كامل الشريف

المقاومة السرية

في قناة السويس

مكتبة المنار
الأردن - الزرقاء

دار الوفاء
القاهرة - المنصورة

كامل الشريف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

«فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا»

صدق الله العظيم

الاهداء

بكل خشوع وإجلال أهدي هذا الكتاب، إلى أرواح الأخوة الأبطال الذين سقطوا في معركة القنال.

وإلى المجاهدين الأحياء الذين ساقوا الحرية لأمتهم ثم انسحبوا في تواضع ليأخذوا أماكنهم وراء قضبان السجون وأسلاك المعتقلات!

وإلى الجيل الجديد من شبابنا المؤمن الذين أراهم بعين الأمل يملأون السهل والجبل ويتدفقون لتطهير أرضنا «فلسطين» من الصهيونية الباغية.

كامل الشريف

مقدمة

قد يبدو غريباً أن أختار هذه الأيام بالذات لأنشر ذكرياتي عن معركة القناة بعد أن مر عليها أكثر من أربع سنوات حتى كاد أن ينساها الناس.

والواقع أن ما أنشره اليوم كان معداً للنشر بصورة أكثر تفصيلاً في مطلع عام ١٩٥٣ وكنا لا نزال على حداثة عهد بهذه الحركة، وكان في حوزتي يوم ذاك مجموعة من اليوميات والتقارير، غير ان بعض اصدقائي من رجال الهيئات الشعبية والجيش نصحوني بعدم النشر، وكانت حجتهم في ذلك ان معركة القناة لم تكن قد انتهت نهاية طبيعية كما انها لم تحقق جميع الاهداف التي قامت من أجلها، وكان من رأيهم أن توضيح الخطط التي اتبعناها خلال صدامنا مع الجيش البريطاني وأسماء القادة الذين أداروا تلك العمليات والضباط الذين تعاونوا معنا في امداد الحركة، من شأنه ان يعرض المجهود الوطني لخطر أكيد و يدفع العدو إلى اتخاذ مزيد من الحيطة وابتكار الجديد من الاساليب التي يحبط بها أعمالنا المقبلة. ولقد اقتنعت يوم ذاك بحجج هؤلاء الاصدقاء الاعزاء وطويت هذه الصفحات حتى تسنح ظروف مناسبة.

أما اليوم فقد زالت الاسباب التي كانت تحول دون النشر بعد أن انتهت عمليات الجلاء في الحدود التي رسمتها اتفاقية اكتوبر لعام ١٩٥٤ ثم بعد أن استولت مصر على القاعدة البريطانية في القناة على أثر العدوان الثلاثي الغادر، وبذلك خلت أرض الوطن تماماً من كل أثر للجيش المحتل.

لقد احتدم خلاف عنيف حول اتفاقية اكتوبر هذه وما جاءت به، إلا ان من الأمور المؤكدة أن هذه الاتفاقية حققت إجلاء الجزء الاكبر من قوات الاحتلال وخفضت عددها من ثمانين الف جندي إلى الفين من الخبراء، وهي من هذه الناحية كانت تعتبر خطوة نحو تحرير البلاد من السيطرة العسكرية البريطانية، اما بقاء القاعدة العسكرية ووجود الخبراء وقيود المعاهدة الجديدة والتزاماتها وهي الثالوث الذي كان يعرض استقلالنا للخطر والذي

---

(١) كان هذا الكلام في سنة ١٩٥٧ «الناشر»

حملنا على معارضة الاتفاقية عند توقيعها فقد سحقه الانجليز بقنابلهم حين اغاروا على مصر وشعبها الآمن مع حليفتهم فرنسا واسرائيل!

ومن الانصاف للتاريخ ان نقرر انه لا الحكومة العسكرية المصرية ولا أي حكومة سواها كانت قادرة على إقناع الانجليز باجلاء قواتهم -مهما كانت حدود ذلك الجلاء- لولا الكفاح الشاق الذي قام به شباب مصر المؤمن لارهاق الجيش المحتل ومقاطعته والتضييق عليه وهو الكفاح الذي ننشر فصوله في هذه الصفحات.

لقد اقتنعت بريطانيا من خلال المعركة أن بقاء جيوشها وسط شعب يضمر لها العداء الشديد، وينتهز كل فرصة مواتية للانقضاض عليها أمر يكلفها كثيراً ولا تستطيع مواجهته لأمد طويل، وإذا هي استطاعت ان تتغلب عليه في أوقات السلم، فلن تستطيع ذلك في اوقات الحرب العالمية حين تكون جيوشها مشغولة بمحاربة العدو الخارجي بينما الوطنيون في الداخل يطعنون ظهرها ويضعونها بين نارين.

لقد استطاعت معركة القناة ان تضع بريطانيا وجهاً لوجه امام هذه الحقيقة حين اضطرت قواتها ان تقف موقف الاستعداد والحذر، وأن تحارب عدوا مستتراً لا تراه ولا تحس به إلا حين تقع ضرباته السريعة في مقاتلها، وان تعيش في حالة من الذعر والترقب القاتل وسط قاعدة عسكرية كبيرة كان الأمل فيها ان تكون قاعدة آمنة تغذي القواعد البريطانية في الشرق الأوسط بالمواد والأيدي العاملة، وينزل الجنود البريطانيون للراحة والاستجمام وسط حدائقها الخضراء وبحيراتها حين يتحركون في الذهاب والإياب بين المستعمرات البريطانية المنتشرة في آسيا وافريقيا. غير ان حركتنا هذه استطاعت ان تدخل تعديلات خطيرة على هذه الصورة، وان تحيل الجنة الحالمة إلى جحيم يتلظى باللهب والدخان، الامر الذي اضطر معه الجنرال ارسكين قائد الاعداء في منطقة القناة إلى ان يطلب مئة ألف جندي ليحرس بهم ثمانين الفاً يقيمون في القاعدة.

لقد كان على البريطانيين أن يواجهوا هذا العدو الخفي وأن يواجهوا معه أسلحة أخرى شحذها الشباب المصري المؤمن فزادت موقفهم سوءاً على سوء ونعني بها إضراب العمال عن العمل مما سبب شللاً تاماً للقاعدة، وكذلك منع المواد التموينية من الوصول للمعسكرات حتى وقعت المجاعة واضطر الاسطول البريطاني إلى التدخل وأصبحت بوارجه الحربية

وطائراته تنقل اللحوم والخضروات والحبوب ألوف الاميال من الصومال والسودان و يوغندا لتموين هذا الجيش المحاصر.

وعلى ذلك فاننا نستطيع القول انه إذا كانت ثورة الشعب المصري في عام ١٩١٩ قد أدت إلى تصريح ٢٨ فبراير واعلان الدستور، وأن ثورة عام ١٩٣٥ قد حسنت مركز المفاوض المصري وجاءت بمعاهدة عام ١٩٣٦، فان معركة القناة التي اشتعلت عام ١٩٥١ واستمرت حتى مطلع عام ١٩٥٤ قد لعبت دورها الحاسم في الاتيان باتفاقية القناة لعام ١٩٥٤. اما الخلاف الذي نشب حول هذه الاتفاقية عند توقيعها فأمر لا نستغربه في وطن ناهض يتطلع دوماً لاستكمال استقلاله الوطني وازالة كل أثر يشوه جمال هذا الاستقلال، وهو خلاف كان يحدث مثله في اعقاب كل معاهدة سابقة..

لقد وصف مصطفى النحاس معاهدة عام ١٩٣٦ حين وقعها بانها معاهدة الشرف والاستقلال، وكان اعتراض المعترضين عليه عند توقيعها انه اضاع تضحيات المصريين وجهودهم هباء. وكان بوسعه ان يحصل على مزيد من الحقوق لو انه كان أكثر صلابة وتشدداً.

وقد اثبتت حوادث التاريخ بعد ذلك ان المعارضين كانوا على حق كبير حتى ان مصطفى النحاس نفسه وصف معاهدته تلك بمعاهدة الذل والعار حين أقدم على الغائها بعد خمسة عشر عاماً...وجاءت اتفاقية اكتوبر لعام ١٩٥٤ وسط ضجة صاخبة من تأييد المؤيدين واعتراض المعارضين، فبينما سماها المؤيدون معاهدة الجلاء والكرامة رأى فيها المعارضون قيوداً والتزامات تضر بالبلاد، وتضعها تلقائياً في صف الكتلة الغربية إذا وقعت الحرب العالمية الثالثة، أما مصير هذه الاتفاقية والحكم عليها فأمر يحدده المستقبل، وليس أمام مصر إلا أن تستفيد من هذه النقلة وان تعد نفسها لمرحلة طويلة من الكفاح تحافظ به على استقلالها وكرامتها في وقت تهب فيه اعاصير المؤامرات عليها وعلى الوطن العربي والاسلامي كله.

والله تعالى نسأل ان يقي بلادنا ومواطنينا شر المؤامرات والفتن وان يحقق لنا آمالنا في الوحدة والتحرر، كما نسأله أن يتقبل عملنا هذا بأحسن قبول، انه نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

١ ـ من التاريخ

لم تكن معركة عام ١٩٥١ أول محاولة يقوم بها المصريون لطرد جيش الاحتلال من بلادهم، فقد سبق لهم القيام بثورات متعددة كان بعضها يخفت من البداية دون أن يحقق شيئاً، وكان بعضها الآخر يستمر في دفعته حتى ينال بعض النتائج المحدودة. أما الأسباب التي أدت إلى ثورة عام ١٩٥١ فقد كانت نفس الاسباب التي دفعت بالمصريين إلى الثورات والمحاولات السابقة.

لقد حرصت الدعاية البريطانية على ان تخلق اسباباً لثورتنا غير اسبابها الحقيقية فزعمت ان الحكومة المصرية حينذاك (حكومة الوفد) أرادت أن تغطي فشلها الداخلي، وان تصرف المصريين عن واقعهم الاليم إلى عدو وهمي فسمحت لنا بحرية العمل، وزعمت أن الخلاف بين القصر والحكومة هو الذي دفع مصطفى النحاس إلى الغاء المعاهدة والطلب من الملك فاروق التصديق على مراسيم الالغاء بقصد احراجه واضعاف مركزه أمام الشعب.

والواقع أن بريطانيا لم تقصر يوماً في اختلاق الاسباب الوهمية لثورات المصريين وتشويه مقاصدها، كما لم تقصر في ابتكار المبررات لبقاء جيوشها في مصر على غير ارادة شعبها، أما السبب الحقيقي -وهو رغبة الشعب المصري في التخلص من نيرها- فكانت دائماً تتجاهله وتخفيه وراء ستار من الخديعة والتمويه.

فهل كان المصريون حقاً في حاجة إلى البحث عن سبب يدعوهم لكراهية الجيش المحتل؟ وهل كان في تاريخ بريطانيا في مصر سبب واحد يمنع المصريين من كراهيتها والاسراف في هذه الكراهية؟ وهل كان هذا التاريخ غير سلسلة دامية من المخازي والآلام؟

للاجابة على هذه الاسئلة ينبغي أن نضرب في التاريخ خطوات قصيرة للوراء.

نحن وبريطانيا

لم يكن لمصر من ذنب عند بريطانيا إلا أن الله -جلت حكمته- حباها موقعاً جغرافياً ممتازاً، وجعل منها معبراً يصل الشرق بالغرب وحارساً يتحكم في القارات والبحار، كما انها نقطة وسط بين الجزر البريطانية ومستعمراتها المنبثة في افريقيا وآسيا -ولا سيما القارة الهندية لؤلؤة التاج الامبراطوري ودرته الفريدة-، ومن أجل ذلك كانت بريطانية تحرص كل الحرص على ان تضم مصر إلى سلسلة مستعمراتها حتى لا تبقى هناك فجوة في هذة السلسلة المتصلة الحلقات.

لقد بدأت هذة النية في منتصف القرن التاسع عشر، ولكنها كانت رغبة مستترة لا تجرؤ بريطانيا على الجهر بها، ذلك لأنها كانت تخشى من تدخل الدول ذات المصالح إذا أقدمت على أي عمل منفرد، ولذلك اكتفت بتركيز جهودها في نقطتين: أولاهما ان تحول دون وقوع مصر تحت حكم أية دولة أجنبية، وثانيتها أن تمنع قيام دولة مستقلة قوية فيها، ولأجل أحد هذين الغرضين أو لكليهما معاً حاكت بريطانيا مؤامرات دولية واسعة وبذلت جهداً عظيماً استغرق منها أكثر من ربع قرن، وفي الوقت الذي كانت تعمل جاهدة لتحقيق هاتين الغايتين كانت تعمل من ناحية أخرى لتمكين نفوذها السياسي والاقتصادي في انتظار الفرصة السانحة للتدخل الصريح.

بين نابوليون ومحمد علي الكبير

حين احتل نابليون مصر سارعت بريطانيا إلى التصدي له في مياه البحر المتوسط، وحطمت اسطوله في ابي قير وفرضت عليه حصاراً بحرياً خانقاً حتى تمنعه من الحصول على النجدات اللازمة، ثم عقدت اتفاقاً مع الدولة العثمانية في عام ١٨٠١ للقيام بعمل مشترك لطرد الفرنسيين من مصر، ولم يهدأ لها بال حتى جلت الحملة الفرنسية نهائياً، ولكن بريطانيا لم تترك جيوشها في مصر، لأن بقاءها كان يعني بقاء الحملة العثمانية أيضاً وليس ذلك مما

يتفق مع هدفها البعيد في الاستئثار بمصر، وكان أن جلت جيوشها وعادت مصر ولاية عثمانية يربطها بالباب العالي صلات أوهى من خيط العنكبوت.

وحين آل حكم مصر إلى محمد علي الكبير انتهزت بريطانيا فرصة انشغاله بالثورة الداخلية التي نظمها المماليك، فأرسلت حملة عسكرية بقيادة الجنرال فريزر، وقد نزلت هذه الحملة فعلاً ساحل رشيد ولكن الأهلين تصدوا لها وردوها إلى عرض البحر.

غير أن الأمور سارت بعد ذلك في اتجاه آخر، فبعد أن كانت بريطانيا تحمي مصر من السيطرة الخارجية أصبح عليها ان تواجه خطراً آخر قام به محمد علي في مصر، فقد استطاع هذا الحاكم النابغ أن ينشىء دولة حديثة في مدة قصيرة وأن يصل بالجيش المصري إلى درجة من الكفاءة والمقدرة، لفتت اليه انظار السلطان العثماني فأخذ يستعين به في اخماد الثورات التي نشبت في اطراف الامبراطورية المتداعية، وقد تمكن هذا الجيش من اخماد ثورتين عظيمتين: احداهما ثورة الوهابيين في جزيرة العرب، والأخرى ثورة اليونانيين في شبه جزيرة المورة بالاضافة إلى الحملة الناجحة التي قام بها الجيش لاحتلال السودان وتحقيق وحدة وادي النيل، وهنا لم تملك بريطانيا نفسها امام هذا الخطر النامي فقادت كتلة من الدول الاوروبية الطامعة وعملت على التخلص من الاسطول البحري المصري، وأنزلت به ضربة ساحقة في ميناء نافارين في عام ١٨٢٧، ورغم أن هذه الحركة كانت موجهة في ظاهرها للسلطان العثماني على اعتبار أنه صاحب السيادة على مصر واليونان معاً، وان الجيش المصري والاسطول المصري كانا يحاربان الثوار تحت رايته، إلا ان تدمير الاسطول المصري والحد من قوة محمد علي العسكرية كان غرضاً مقصوداً لذاته، ويتضح ذلك من موقف بريطانيا نفسها حين نشب الخلاف بين محمد علي والسلطان العثماني وجرد الأول جيشاً بقيادة ابنه ابراهيم احتل به بلاد الشام كلها، وواصل زحفه شمالاً حتى لم يبق بينه وبين الآستانة - عاصمة السلطان - إلا أن يجتاز جبال طوروس وحينذاك أقامت بريطانيا دول أوروبا على قدم وساق ووجهت -مع حلفائها- انذاراً إلى محمد علي، ليعود بجيوشه إلى مصر ويتخلى عن جميع البلاد التي فتحها من أملاك السلطان العثماني.

وقد يبدو هنا شيء من التناقض في موقف بريطانيا حين حاربت جيش السلطان في بلاد اليونان، ثم حين حاربت جيوش محمد علي دفاعاً عن السلطان، ولكن الواقع أن

بر يطانيا كانت تعمل في الحالتين وفق خطتها المبيتة، وهي تجر يد مصر من أسباب القوة العسكر ية والحيلولة دون قيام دولة قو ية في ر بوعها، أما محار بة السلطان حيناً والغيرة على نفوذه حيناً آخر فلم تكن الا غشاء لاخفاء نياتها الحقيقية.

و بينا كانت بر يطانيا تعمل بهمة على تدمير الدولة العلو ية وحماية مصر من النفوذ الخارجي كانت تعمل من ناحية أخرى على التمكين لنفوذها السياسي والاقتصادي، ومن ذلك أنها استغلت الأزمات المالية التي استحكمت في مصر بسبب اسراف الخديوي اسماعيل وديونه الباهظة، فاشترت أسهم مصر في قناة السو يس في عام ١٨٧٥ ثم عينت من ناحيتها مراقباً مالياً ليشرف على ميزانية الحكومة المصر ية، بدعوى المحافظة على أموال الدائنين الأجانب. ولم يمر وقت طو يل حتى أصبح القنصل البر يطاني في مصر هو الحاكم بأمره في البلاد.

الاحتلال

لم يبق بعد هذا التمهيد الطو يل إلا أن تقوم بر يطانيا بالخطوة الأخيرة في برنامجها فتحتل البلاد احتلالاً عسكر ياً، و يقيناً لو أن الخلاف لم ينشب حينذاك بين الخديوي توفيق والجيش المصري بزعامة أحمد عرابي -وهو السبب الذي تذرعت به بر يطانيا للتدخل المسلح- لالتمست لنفسها سبباً آخر، بل لقامت بالغزو دون أن يكون هناك سبب على الاطلاق، ذلك لأن خطتها الطو يلة كانت قد أثمرت ثمارها الخبيثة فوقعت مصر في أحضان الفوضى، وانتابتها العلل المالية من كل ناحية، وتلاشى نفوذ الباب العالي فيها حتى لم يعد يحس به أحد، ولم يبق امام بر يطانيا سوى أن تأمر جيوشها لتزحف على مصر دون أي عائق جدي.

وفي الوقت الذي اكتمل فيه احتشاد الاساطيل البر يطانية في مياه الاسكندر ية، وفرغت بر يطانيا من إعداد قوتها البر ية في الموانئ البر يطانية أشعلت فتنة في الاسكندر ية راح ضحيتها عدد من الاهلين والأجانب، ورغم ان الحكومة المصر ية سيطرت على الحالة تماماً إلا ان بر يطانيا اعتبرت هذا الحادث المدبر مبرراً للتدخل في شؤون مصر، ثم أخذت تعيد مع مصر قصة الذئب والحمل ولكن على نطاق أوسع، فاتهمت القادة

العرابيين بأنهم يحصنون ميناء الاسكندرية واعتبرت ذلك تحدياً لشعورها الحساس! أما حشد أسطولها في المياه المصرية وقيام هذا الاسطول بمناوراته البحرية أمام الميناء، والانذارات والتهديدات التي كان الاميرال سيمور قائد الأسطول يوجهها للقواد المصريين، أما كل ذلك فلم يكن -في المنطق البريطاني- تحدياً لأحد!

وفي اليوم الحادي عشر من يوليو عام ١٨٨٢ بدأت الجريمة المروعة، وفتحت بوارج الاسطول البريطاني نيران مدافعها على الاسكندرية ولم تتوقف بعد ذلك حتى احالت المدينة الوادعة إلى أكوام من الأطلال والخرائب، وأرغمت أهلها على الفرار منها إلى داخل القطر!!

وبعد أيام من ضرب الاسكندرية نزلت الجيوش البريطانية إلى البر، وبدأت الحملة الظالمة بقيادة الجنرال ولسلي كما هو معروف.

ولم يحرك هذا العدوان السافر الضمير الأوروبي المتحجر، ورأينا دول الحلف الأوروبي التي أظهرت غيرتها على ثوار اليونان وحطمت الأسطول المصري في نافارين، رأينا هذه الدول تستقبل الكارثة الأليمة بالاستخفاف وعدم المبالاة، بل إن العدوتين التقليديتين -بريطانيا وفرنسا- تبادلتا التهنئة الحارة بهذا الانتصار واعتبرتاه انتصاراً للمدنية المسيحية على التعصب الاسلامي! وعدته فرنسا مشجعاً لها على استمرار خطتها الاستعمارية في المغرب العربي. والعجيب أن يسمي المعتدون دفاعنا المشروع عن أوطاننا تعصباً!، ولعلهم كانوا يتوقعون منا أن نفرش الطريق أمام جيوشهم بالورود والرياحين، وأن نقيم أقواس النصر ليعبر تحتها القادة المتغطرسون وبذلك نبرىء أنفسنا من تهمة التعصب!

لقد كان المبرر الذي تذرعت به بريطانيا لاحتلال مصر هو المحافظة على عرش الخديوي ولكن لم يمض إلا وقت قليل حتى استتب الأمر للخديوي وزال هذا السبب نهائياً ولم يبق أي مبرر لبقاء جيش الاحتلال، غير أن بريطانيا لم تعدم بعد ذلك أسباباً زائفة تبرر بها بقاءها العدواني، فهي باقية لحماية المصالح الأجنبية تارة ولحماية الفلاحين المصريين البؤساء من طغيان الاقطاعيين وكبار الملاكين تارة أخرى!

ولما استنفدت جميع الاسباب الداخلية ولم يبق لها سبب واحد معقول استغلت التقلبات السياسية الدولية التي انتابت العالم مع الحرب العالمية الأولى، فتارة هي تحمي مصر من

الاتراك، وتارة من أطماع الفاشية الايطالية ثم من أطماع النازية الالمانية، وبعد ذلك من الأطماع الشيوعية، ولو قامت أية دولة معادية لبريطانيا في أطراف الأرض البعيدة لأقحمتها في المسألة المصرية وجعلت منها مبرراً جديداً لبقائها في بلادنا!

وحين ازداد الوعي الوطني واضطرت بريطانيا أمام الضغط الشعبي المتزايد إلى إخلاء المدن المصرية، وتركيز جيوشها في قاعدة قناة السويس تنفيذاً لمعاهدة ١٩٣٦ كانت حجتها الجديدة أن بقاء قواتها أمر ضروري لحماية القناة وتأمين حرية الملاحة فيها لجميع الدول، وواضح ما في هذه الحجة من بطلان واضطراب، ذلك، لأن وجود جيوش بريطانية في القناة كان هو السبب الرئيسي في تعريض مصر لمحاولتين كبيرتين من محاولات الغزو الخارجي، وهما محاولة الاتراك في الحرب الكبرى الأولى ومحاولات الألمان والطليان في الحرب العالمية الثانية.

وكانت كلتا المحاولتين تهدف إلى تخليص القناة من السيطرة البريطانية، وفتحها أمام السفن المعادية لبريطانيا، ولسوف يظل وجود قاعدة عسكرية بريطانية في قناة السويس مبرراً كافياً لتكرار محاولات العدوان على مصر، حتى يتخلص المصريون نهائياً من القاعدة العسكرية وآثارها وتحقق مصر حيدة قناة السويس كممر دولي حر لا يخضع للسيطرة الأجنبية.

أما من الناحية القانونية الدولية فان مصر -لا بريطانيا- هي صاحبة الحق في القناة والمسؤولة عن حمايتها بمقتضى معاهدة الآستانة لعام ١٨٨٨، ولكن بريطانيا كانت تعتذر دائماً بضعف الجيش المصري وعدم استطاعته القيام بهذه المهمة، ولكي تضمن بقاء الجيش على حالته من الضعف والتأخر، ولتضمن -بالتالي- بقاء حجتها من احتلال القناة حرصت على حرمان الجيش المصري من أسباب القوة وأخذت تماطل في تزويده بحاجته من الاسلحة والمعدات، وفرضت عليه حصاراً شديداً لتمنعه من شراء حاجاته من الدول الأخرى، ثم رسمت سياسة طويلة المدى أدت إلى توريط هذا الجيش الناشيء في حرب فلسطين وهو على حالة شديدة من الضعف، حتى تستنفد قواه وتثبت له عملياً أنه عاجز عن الوفاء بواجباته في حماية القناة!

ولقد ظهرت نتيجة هذه السياسة المرسومة حين نجحت القوات الصهيونية في اختراق

حدود مصر الشرقية في ديسمبر عام ١٩٤٨، والتوغل مسافة ثمانين كيلو متراً في إتجاه القناة، وعندها أعلنت القيادة البر يطانية انها ستتدخل في القتال إذا تعرضت القناة لخطر الغزو، وفاء بالتزاماتها المنصوص عليها في معاهدة ١٩٣٦!

لماذا ثرنا على الانجليز؟

تلك هي الأسباب الزائفة التي بررت بها بر يطانيا غزو مصر واستعمارها أكثر من سبعين سنة وهي اسباب كانت تتغير - كما رأيت - بتغير الظروف فكلما زال سبب برز مكانه سبب جديد. أما الاسباب التي جعلت منا نحن المصر يين خصوماً للاستعمار البر يطاني، ودفعتنا لمحار بته بكل سلاح تناله أيدينا، فكانت أسباباً لم تتغير حتى يزول كل أثر يذكرنا بهذه الفترة الكالحة من تاريخنا الوطني.

إننا نر يد ان نعيش احراراً في وطننا، وان نرتضي لانفسنا نظماً تتفق مع تاريخنا ورسالاتنا دون ضغط أو املاء من أحد، وان ننظم علاقاتنا مع اخواننا وجيراننا بما يتفق مع عقائدنا ومصالحنا المشتركة، وأن ننطلق بعد ذلك في المحيط الدولي الواسع لاداء الرسالة الملقاة على عاتقنا في سبيل تقدم الانسانية ورفعتها، كانت هذه هي آمالنا وأشواقنا ولكن جيش الاحتلال كان دائماً يكبلنا ويمنع انطلاقنا نحو هذه الآمال.

كنا نعلم ان بقاء الجيش الغاصب في بلادنا معناه بقاء الفوضى والخمول والتأخر، وان تتورط بلادنا في كل معركة دولية تكون بر يطانيا طرفاً من أطرافها، وان كل قرش تأخذه بر يطانيا من بلادنا إنما هو على حساب شعبنا ورفاهيته، وكل لقمة يأكلها جندي من جنود الاحتلال إنما هي من نصيب واحد من عمالنا وفلاحينا، كانت تلك هي نظرتنا لجنود الاحتلال الأجنبي وهي الدوافع التي وقفت بجوار اجدادنا وهم يتساقطون بالالوف في جيش عرابي، ثم وهم يقفون خلف مصطفى كامل وسعد زغلول في ثوراتهم، وهي التي وقفت بجوارنا أيضاً ونحن نقوم بثورتنا الكبرى في عام ١٩٥١.

لقد كانت دوافع الحقد على الاحتلال البر يطاني والرغبة الجارفة في التخلص من نيره ايماناً توارثناه عن الاجداد ورضعناه مع لبن الامهات. وكان حقدنا على البر يطانيين أشبه

بشلال عظيم يأتي متحدراً فوق الاجيال المتعاقبة وكلما صادفته ثورة من ثوراتنا السابقة ألقت فيه حصيلتها من الدم والضحايا حتى يصلنا في أشد حالاته عنفاً وهيجاناً.

ولم يكن لثورتنا في عام ١٩٥١ ونحن قلة عزلاء ينقصها كل شيء، وتتصدى لجيش هائل منظم، ثم تتلقى ضرباته وترد عليها في صبر واستبسال، من تعليل غير هذا التعليل!

٢ ـ المعاهدة الملغاة

في يوم الإثنين الثامن من أكتوبر عام ١٩٥١، وقف مصطفى النحاس رئيس الحكومة الوفدية في قاعة مجلس النواب وتلا قرار الحكومة بالغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتي عام ١٨٩٩ بشأن السودان، وختم النحاس بيانه الطويل قائلاً: لقد وقعت هذه المعاهدة في سبيل مصر، وأنا الغيها اليوم في سبيل مصر، وكأن النحاس اراد بهذه الخاتمة الحماسية ان يقطع السبيل على المعارضين الشامتين الذين نقدوا معاهدته يوم توقيعها قبل خمسة عشر عاماً واسموها معاهدة الذل والعار، وحاولوا عرقلة توقيعها جهد طاقتهم لولا ان حكومة النحاس القائمة يومذاك جردت عليهم حملاتها وألزمتهم دورهم واندية احزابهم، ومرت المعاهدة امام البرلمان الذي كانت تتمتع بالاغلبية المطلقة فيه.

لقد اراد النحاس بهذا القول ان يدافع عن مسلكه في الحالتين وكأنه يقول ان معاهدة عام ١٩٣٦ كانت أكثر ما أمكن الحصول عليه في ذلك الحين، وان تغير الظروف يسمح لنا الآن ان نطلب المزيد!

وعلى كل حال، فان النواب على اختلاف ميولهم الحزبية استقبلوا قرار الالغاء بعاصفة من التأييد والحماس، واشترك المؤيدون والمعارضون في ازجاء المديح العاطر للحكومة على موقفها الوطني الجريء، وان كان بعض الساسة النواب تحفظوا في اعطاء التأييد وجعلوه مشروطاً بالخطوات الحازمة التي ستتبعها الحكومة لتنفيذ قرار الالغاء، ومدى استعدادها لمواجهة الخطط البريطانية المضادة.

وبعد أيام قلائل، تقدمت الحكومة للبرلمان بمجموعة مراسيم ومشاريع قوانين تتمشى مع الأوضاع التي جدت بعد الغاء المعاهدة والاتفاقيتين، كمرسوم تعديل الدستور المصري بحيث ينص فيه على وحدة التاج بين مصر والسودان، وتلقيب الملك فاروق بملك مصر والسودان، ومرسوم بإعلان الحكم الذاتي في السودان، وتشكيل جمعية تأسيسية مع الاحتفاظ بوحدة النقد والسياسة الخارجية والدفاع، وكذلك أعلن مصطفى النحاس حيدة قناة السويس كممر مائي دولي وأكد حق مصر في الاشراف عليها وحمايتها بمقتضى معاهدة

الاستانة لعام ١٨٨٨، وكانت جماهير الشعب المصري تتابع خطوات الحكومة في حماس عظيم، فلم تكد الصحف واجهزة الراديو تحمل إلى الناس قرار الالغاء، حتى خرجت مظاهرات التأييد تطوف شوارع المدن والقرى، وظفر الوفد في تلك الايام بالتفاف شعبي اعاد له قوته ونفوذه القديم أيام كان يصارع الاستعمار البريطاني بزعامة زغلول.

دعاية

ولم تترك الحكومة الوفدية هذه الفرصة تمر دون أن تستغلها لمصلحتها الحزبية استغلالاً كاملاً، فأخذ نواب الوفد وشيوخه يطوفون أنحاء البلاد حيث تعقد لهم مهرجانات شعبية يخطبون فيها ويشيدون بوطنية الحكومة والحزب، ويطلبون من جماهير الشعب أن تستعد للمعركة المسلحة في قناة السويس. والواقع ان شعبنا لم يكن في حاجة للتذكير والاثارة، فقد كان دائماً يطالب باغلاق باب المفاوضات إلى الأبد، والاتجاه نحو تنظيم الكفاح، وكانت الحكومات المصرية، ومنها حكومة الوفد، تحول بين الشعب وبين اعدائه، مما أدى إلى قيام جمعيات سرية من وراء ظهر الحكومات، وليست حوادث اغتيال الجنود البريطانيين في القاهرة والاسكندرية ونسف بعض منشآتهم خلال عام ١٩٤٥ بيد رجال الاخوان المسلمين إلا مظهراً من مظاهر الفورة الشعبية المكبوتة، فاذا جاءت الحكومة اليوم واعتنقت الفكرة التي يعتنقها الشعب من زمن طويل، وقامت من تلقاء نفسها بتحطيم القيود التي وضعتها في يديه لتمنعه من النضال فتلك هي غاية الغايات وامنية الامنيات، وكيف لا يخرج الشعب عن بكرة أبيه مظاهراً ومؤيداً؟

على انه لا نواب الوفد، ولا جماهير الشعب، خطر لهم ان يسألوا الحكومة عن استعداداتها لهذه الخطوة، وعما إذا كانت قد أعدت الخطط اللازمة لمواجهة التطورات والاحتمالات، وكيف يتسنى للشعب ان يعرف الحقيقة وسط هذه الدوامة العاتية من الحماس والانفعال، والمسؤولون في الدولة، يجيبون على تساؤل المتسائلين في ابتسامات غامضة بأنهم اعدوا لكل احتمال عدته، وان على الشعب ان يثق في حكومته الوطنية التي أعلنت الحرب ولن تتراجع حتى تحقق استقلال البلاد!

وقد كان يحدث ان يتناول البعض موقف الحكومة بالنقد و يبدي تخوفه من عدم استعدادها، فكان شباب الوفد المتحمسون يسارعون إلى الرد و يرمون الناقدين بالخيانة والجبن، و يسمونهم دعاة التردد والهزيمة، ولا زلت اذكر يوم جاء إلى بلدنا نائب الدائرة الوفدي ومعه احد أقطاب الحزب، كجز من الحملة الدعائية التي نظمها الوفد في كافة الاقاليم، فأقام له النادي الوفدي، مهرجاناً شعبياً ضخماً، خطب فيه كل من النائب والقطب الوفدي، فأثنيا على خطوة الحكومة الجريئة، وطالبا الشعب بالوقوف وراءها لتحقيق الاستقلال، وكان المجتمعون من العمال وطلاب المدارس يقاطعون الخطباء بعد كل جملة وهم يلوحون بأيديهم بانفعال عظيم، ويهتفون: الموت لبريطانيا.. إلى القناة..إلى القناة! ولست أشك أن هؤلاء الشباب كانوا مخلصين في حماسهم واندفاعهم، ولم يكن ينقصهم إلا قيادة قوية تنظم طاقتهم، وتدفعهم إلى ميدان النضال، واذكر ان بعض الحاضرين ألح عليّ ان اتحدث في المناسبة، فقمت واثنيت على موقف الحكومة، ثم وجهت الخطاب إلى نائب الوفد وزميله، وقلت: ان عليهم ان ينبهوا الحكومة إلى واجبها حتى لا تذهب هذه القوة الشعبية بدداً، وقلت: انه ليس من حقي ان أتكهن بخطة الحكومة، كما انني لست حريصاً على التشكيك في سلامة نواياها، ولكنني أعتقد من النظرة السطحية للموقف ان الحكومة لم تفعل شيئاً لتجنيد الشعب واعداده لمعركة مسلحة، ولست احتاج إلى كثير من البحث والتحري لأصل إلى هذه النتيجة، فان احداً من هؤلاء الشباب لم يدع إلى التدريب العسكري، وانني لا أعلم ان الحكومة قد أعدت أي خطة للدفاع عن المدن وخاصة تلك التي تقع في منطقة القناة، أو خطة لتموينها إذا تعرضت للحصار.

و يبدو ان هذا الكلام لم يعجب الشباب المتحمس، فلم أكد انتهي من كلمتي حتى أخذ بعضهم ينظر الي بغيظ شديد، ولعلهم تهامسوا بينهم انني أنا الآخر داعية من دعاة الهزيمة، ثم انتظمتهم مظاهرة صاخبة حملوا فيها أقطاب الوفد على أكتافهم ومضوا يطوفون الشوارع هاتفين صاخبين. وقد علمت بعد ذلك ان ما حدث في بلدنا الصغير لم يكن إلا صورة مصغرة لما حدث في العواصم الكبيرة.

الطلقة الاولى

لم تكن المظاهرات كلها سلمية، فان المظاهرات في مدن القناة اتسمت بطابع العنف، وسالت فيها الدماء المصرية والبريطانية، ذلك لأن منطقة القناة كانت دائماً أكثر مناطق

القطر تأثراً بالاحتلال، وإذا كانت شحنة الثورة قد اكتملت في جميع أنحاء مصر، فان المدن المصرية في قناة السويس كانت ترتجف من الثورة المائجة في أعماقها، وهي ترى الجنود البريطانيين بوجوههم الحمراء، وارديتهم العسكرية الغريبة يذرعون شوارعها صباح مساء، ويخرجون في ميادينها هائجين معربدين كلما لعبت الخمرة برؤوسهم، ولذلك لم تكد الحكومة تعلن الغاء المعاهدة حتى قامت المظاهرات الدموية في مدن القناة، وبلغت اوجها من العنف والهياج في مدينة الاسماعيلية في اليوم التالي لقرار الإلغاء، حيث تقع أكبر المعسكرات البريطانية في قلب المدينة، وبها القيادة العامة للجنرال جورج ارسكين القائد العام للاعداء، وبينما كان المتظاهرون يخترقون شوارع المدينة مرت بهم ثلة من السيارات العسكرية البريطانية فاحرقوها، ثم انكفأوا على مبنى (النافي) البريطاني فأضرموا فيه النيران، ولا شك ان الجنود الانجليز قد بوغتوا بهذه الحركة الفجائية، وكانوا يظنون ان الأمر لا يعدو ان يكون مظاهرة من النوع الذي اعتاده المصريون ولكنهم لم يلبثوا أن استردوا زمام الموقف وصدرت الأوامر بقمع الحركة فاحاطت المصفحات بالجماهير العزلاء، وأخذت تطلق نيران المدافع الرشاشة من أماكن مختلفة، غير ان هذا الاجراء زاد في ثورة الجماهير، فأخذوا يسكبون البترول ويشعلون النار في المعسكرات والمباني البريطانية المجاورة رغم كثرة الخسائر التي حلت بهم، غير ان الجنود الانجليز تمكنوا في النهاية ـ وبمساعدة البوليس المصري ـ ان يسيطروا على الموقف بعد ان قتلوا وجرحوا عدداً من المتظاهرين، وكانت حوادث الاسماعيلية هي أول شرارة من المعركة المسلحة وأول دليل يقدم على استعداد جماهيرنا للتضحية بكل شيء.

لقد أعلنت الطاقة الثورية في شعبنا عن نفسها بهذه المظاهرات ووقفت تنتظر القيادة الموجهة التي تسيطر عليها وتقودها بحكمة نحو مراكز العدو، ولكنها بقيت تنتظر طويلاً، ولولا قادة صغار خرجوا من بين الصفوف واشتبكوا مع جنود الاحتلال رغم قسوة الظروف، لأكلت هذه الثورة نفسها دون أن تحقق شيئاً، ذلك لأن الشعوب في ثوراتها وانتفاضاتها كمياه السيول في تدفقها، فاذا صادفتها سدود قوية حبستها وراءها ثم ارسلتها إلى موات الارض لتحرك فيها الحياة والنماء، اما إذا اندفعت في طريقها دون سيطرة أو تحكم، انقلبت إلى قوة مدمرة تهدم في طريقها كل شيء، ثم تذهب بدداً فلا يدل عليها إلا ما تخلفه من آثار

الخراب والدمار، ولا جدال ان ثورتنا لم تصادف من زعماء تلك الفترة وحكامها من يتصدى للقيادة، فمضت جماهيرنا تتظاهر هنا وهناك وتتعرض للنكسات والخسائر، والقادة يرقبون هذه الاحداث المنطلقة بجمود وبلاهة، ولا تستطيع ايديهم المرتجفة ان تمسك بعنان القوة المندفعة كما لم تستطع عزائمهم المنهارة ان ترتفع إلى مستوى الاحداث الضخمة. وكانت نتيجة ذلك أن بدأت حركة الكفاح المسلح بداية تلقائية دون إعداد سابق، وظلت حتى آخر يوم في حياتها تعمل منفردة بوحي من وطنية القائمين بها دون أدنى توجيه أو عون.

سياسة مرتجلة

لقد قدر لي ان اشهد مولد المعركة وان أعيش مع جماهير مواطني وهم يضطربون حماساً واندفاعاً، كما قدر لي ان اخالط الاحداث التي وقعت في القناة وان اساهم في إدارتها بنصيب كبير، وهاأنذا أجلس بعد مرور خمس سنوات، لأستحضر مراحلها ونتائجها الاخيرة، فتبدو الحقائق امامي خالية من الزيف والادعاء، ويظهر الفارق الكبير بين الصورة المثيرة التي رسمتها أقلام الدعاية يومذاك، عن استعدادات الحكومة وخططها السرية والعلنية، وبين الحقيقة البسيطة التي واجهها رجالنا في المعركة، دون أن ينالهم من تأييد الحكومة وعونها الا الكلام، وما اكثره!

ولا شك ان الالوف الذين حضروا مهرجان الوفد في بلدي، والملايين الذين حضروا مهرجانات مماثلة في بقية البلاد، يستطيعون الآن ان يصلوا معي إلى نفس النتيجة. انهم ولا شك يستطيعون ان يدركوا الآن. انهم كانوا مخدوعين حين انساقوا وراء أمواج الدعاية الكلامية الكاذبة، وانهم كانوا جد مخطئين حين صدقوا كلام الحكام والنواب على علاته، وأمنوا على ادعاءاتهم دون ان يناقشوهم حساباً، وانهم كانوا مخطئين أيضاً حين رددوا التهم الظالمة التي روجتها الحكومة ضد معارضيها في الرأي وضد اولئك الذين لم ينجرفوا في تيارات الدعاية، وظلوا يحتفظون بعقولهم في رؤوسهم وطالبوا بالاستعداد للمعركة!

لقد غضب مني شباب الوفد في بلدي لأنني آثرت التفكير المتزن على الحماس الاهوج، ونبهت إلى ما اعتقدت انه من نواحي النقص، وبعد أيام قلائل كنت أقوم بواجبي في

المعركة، وكان إخواني يتساقطون حولي برصاص الإنجليز، ولقد مرت بنا فترة حرجة جعلتنا نلمس النقص على حقيقته البشعة، ولكننا لم نتراجع ودفعنا نحن ثمن المغالطات والتهريج من أعصابنا ودمائنا، أما المتحمسون الصاخبون الذين ساروا وراء الدعايات المغرضة وهم معصوبو الأعين، فلا أذكر اني رأيت أحداً منهم مع المحاربين خلال أشهر القتال المضنية!

لقد مضت معركة القناة لحالها وأخذت مكانها من تاريخ نضالنا الوطني ولو خطر لواحد ان يسألني عن الدرس الأكبر في هذه الثورة لقلت على الفور: ان التهريج والمبالغة لا يؤديان ابداً إلى كسب المعركة المسلحة، بل يؤديان حتماً إلى الكارثة، والاستعداد الرتيب الطويل هو الذي يرسم للمعركة نهايتها الظافرة، فان من السهل عليك ان تثير حرباً في أي وقت، ولكنك لن تستتطيع ان تكسبها إلا اذا اعددت لها عدتها الكاملة، ولم تسمح لأي مؤثر من المؤثرات ان يدفعك للقتال على الرغم منك وقبل ان تستكمل الاعداد من جميع نواحيه. ولو ان حكومة الوفد قدرت ذلك قبل ان تقدم على إلغاء المعاهدة وتنادي بالقتال والنضال، لرسمت لمعركة القناة نهاية خيراً من نهايتها، ولو انها بذلت على الاعداد مثل ما بذلته على الدعاية لنفسها، لاعفت الوطن من كثير من النكبات ووفرت على المواطنين تلك الخسائر التي لحقتهم نتيجة لهذا التقصير!

بعد الالغاء

لا جدال ان استهتار الحكومة الوفدية وعدم تقديرها للموقف قد اساءا إلى حركة الكفاح المسلح، وأديا إلى كثير من الخسائر، غير ان ذلك كله لا يمكن ان يقلل من أهمية قرار الالغاء كاجراء سياسي ابطل مفعول المعاهدة، وحطم الحاجز الذي كان يفصل بين القوى الشعبية وبين العمل ضد قوات الاحتلال، وبتعبير آخر فان قرار الالغاء فتح الباب أمام المناضلين المصريين ليجربوا حظهم في مصارعة الجيش المستعمر، وسوف نرى بعد قليل ان الطاقة المصرية المناضلة، لم تكن شيئاً هيناً، وانها استطاعت في أشهر قلائل، آن تقلب الخطة البريطانية رأساً على عقب، وان تقنع القيادة البريطانية العليا ان قاعدة القناة لم تعد تلك البقعة الآمنة التي حنت عليهم خلال الحربين العالميتين وإنما استحالت إلى مفازة مهلكة يخيم عليها الذعر ويتربص بها الموت من كل مكان!

لقد كان التفسير الأول لقرار الإلغاء عند جماهيرنا الثائرة، ان القوات البريطانية المرابطة في القناة أصبحت قوات معتدية، تحتل ارضاً مصرية دون أي مسوغ شرعي أو قانوني، وعلى ضوء هذا التفسير، انتظمت كتائبنا المناضلة، ومضت كالعاصفة تدك كل وكر بريطاني يعترض طريقها!

وكانت المعاهدة الملغاة تمنح القوات البريطانية امتيازات كثيرة باعتبارها قوات حليفة، ومن أهم هذه الميزات، الإعفاء من الرسوم الجمركية على المواد التموينية والاستراتيجية التي تدخل القاعدة، وكذلك حق التمتع بالإقامة للجنود البريطانيين وعائلاتهم وحق تشغيل العمال الفنيين في الورش. وسوف نرى بعد قليل، ان الحكومة لم تحاول من جانبها حرمان البريطانيين من هذه الامتيازات، ولكن العمال والمحاربين المصريين استغلوا قرار الإلغاء على اوسع نطاق وساقوا الحكومة المصرية والجيش البريطاني معاً في حالة حرب حقيقية، حين قاموا بحرمان القوات البريطانية من هذه الامتيازات كلها، ونفذوا المقاطعة تنفيذاً كاملاً. لقد منعوا قوافل التموين من الوصول إلى المعسكرات، وارغموا الأسر البريطانية على الانتقال من المدن الكبيرة إلى جحيم الحياة في المواقع العسكرية، وعطلوا الحركة في الموانيء والمصانع والمخازن، ودمروا خطوط السكك الحديدية في كثير من المناطق، وعلى العموم فان المحاربين المصريين تناولوا قرار الالغاء السلبي من يدي الحكومة إلى أيديهم، ومضوا يطبقونه على القوات المعادية في قسوة وحزم، وهو أمر لعله لم يخطر على بال الحكومة الوفدية حين أقدمت على قرار الالغاء!

بريطانيا وإلغاء المعاهدة

أما الحكومة البريطانية فقد استقبلت قرار الالغاء بدهشة عظيمة وأصدرت على الأثر بلاغاً أعلنت فيه أنها لا تعترف بالغاء المعاهدة من جانب واحد، وتعده أمراً يخالف الاعراف والقوانين الدولية. وأعلنت انها تعتبر معاهدة ١٩٣٦ قائمة، وان كانت لا تمانع في الدخول في مفاوضات جديدة لتعديلها!

أما الرأي العام والصحف البريطانية، فقد استقبلت هذا القرار بادىء الأمر بفتور وعدم مبالاة وعدته مظهراً للخلاف الناشب بين الملك والحكومة ولعبة بهلوانية يقوم بها

النحاس لتغطية فشله الداخلي وخاصة في الميدان الاقتصادي. وحين تطورت الحوادث بعد ذلك وبدأ المحاربون المصريون يغيرون على المراكز البريطانية ويقتلون رجالها بالعشرات خرجت الصحف البريطانية عن وقارها وأخذت تهاجم مصر والمصريين وتدعو إلى تطبيق اجراءات عسكرية حازمة لحماية الجنود والضباط، وقالت إن الوقت الذي كان ينظر فيه لأعمال المصريين كدعابات ساخرة قد انتهى، وعلى الحكومة البريطانية ان تواجه حرباً حقيقية في منطقة القناة!

وقد كان موقف النحاس واقدامه على إلغاء المعاهدة أكثر ما اثار استغراب الدوائر الاستعمارية في لندن التي كانت ترى فيه صديقاً مخلصاً لبريطانيا، وقد كتب السير مايلز لامبسون (لورد كيلرن) المندوب السامي الاسبق في مصر وبطل حادث ٤ فبراير عام ١٩٤٢ والذي كان يوصف دائماً بانه الصديق المخلص لمصطفى النحاس ـ كتب مقالاً مطولاً في الديلي أكسبرس أبدى فيه استغرابه لموقف النحاس تجاه بريطانيا ثم نصح الحكومة البريطانية بالا تتسرع في معاداته وان تذكر انه كان الرجل الوحيد الذي وقف بجوارها في محنتها الكبرى خلال الحرب العالمية الثانية. ثم اشاد في مقاله بموقف القيادة البريطانية الحازم في القناة ودعا إلى دعم القوات العاملة تحت قيادة الجنرال أرسكين لمواجهة الهجمات المصرية هناك.

بريطانيا تستعدي حلفاءها

لقد أدرك الانجليز بعد وقت قصير أن المعركة المصرية الجديدة ليست من النوع السطحي الذي ألفوه في مصر، وقامت الشواهد أمامهم على ان هذه الحركة تندفع في ازدياد، وادركوا انهم امام مقاومة شعبية ليس من اليسير اخمادها، فوضعوا سياسة ذات هدفين اولهما: تأليب الرأي العام ضد مصر، والقيام بمحاولة لاقناع بعض الحكومات الاوروبية والشرقية ان هذه الحركة ليست موجهة ضد المصالح البريطانية وحدها، وإنما هدفها تقويض النفوذ الأجنبي بصورة عامة، كما حاولوا الربط بين الحركة الوطنية الصافية، وبين المعسكرات الدولية المتنازعة واظهارها بمظهر التابع لتوجيهات الشيوعية الدولية. أما الهدف الثاني: فهو شن حملة من الضغط والتخويف على الحكومة القائمة، واستدراجها للتفاهم معهم، ثم تسليطها

بعد ذلك على الحركة القائمة، وفي سبيل تحقيق الغاية الأخيرة، استدعى السير انطوني ايدن، وزير الخارجية البريطانية حينذاك الدكتور محمد صلاح الدين وزير خارجيتنا إلى مقابلته في لندن، في محاولة لايجاد تفاهم ما، ولكن ارتباط الحكومة بأهداف محدودة امام الشعب، وقيام الحركة المسلحة، وسقوط الضحايا من الجانبين المتحاربين في ميدان القتال، جعل التفاهم على غير الاهداف الوطنية التي اجمعت البلاد عليها امراً مستحيلا، وعلى ذلك لم تصادف مباحثات ايدن ـ صلاح الدين أي نجاح يذكر. أما في الحقل الخارجي فقد انطلقت أبواق الدعاية البريطانية تسمم الجو ضد مصر، وتتهم المناضلين المصريين بالشيوعية تارة، وبالتعصب الديني ضد المسيحيين تارة أخرى! وقد صرح كل من الجنرال سير بريان روبرتسون، قائد قوات الشرق الأوسط البرية، والجنرال جورج أرسكين قائد قوات القناة، ان قواتها تقف لحماية مصر من الشيوعية الدولية. كما ارسل ونستون تشرشل مذكرة إلى حكومات اميركا وفرنسا وتركيا، حذر فيها من خطورة الحالة في مصر، واستعدى هذه الدول لمعاونته في اخماد الثورة المصرية، وطالبها بارسال قوات رمزية كدليل على تضامنها معه، وفي نفس الوقت كان انطوني ايدن يزور اميركا لمباحثتها في هذه القضية. وقد جاء في خطاب سياسي القاه في جامعة كولومبيا أثناء تجوله في أميركا ان قناة السويس ممر دولي، وان بريطانيا تتطوع لحمايته من أجل مصالح الدول الحرة في العالم، وانها لا تريد ان تحتكر هذا «الشرف» لنفسها، ولذلك طلبت من أميركا وفرنسا وتركيا ان تعاونها في هذا المجهود. ولقد سئل ونستون تشرشل بعد ذلك، عن رأيه في مشكلة قناة السويس فقال: (انه لا يعرف مشكلة بهذا الاسم، ولكنه يعرف ان هذه المشكلة ستبدأ حين تجلو القوات البريطانية عن قاعدة القناة)!

٣ ـ جولة في ميدان المعركة

ذكريات صبي

كنت كثيراً ما أمر على منطقة القناة وانزل ليلة أو ليلتين في مدنها وأرى ما يراه العابر العادي من مظاهر الاحتلال العسكري، الجنود الانجليز بأرديتهم العسكرية وسحناتهم الغريبة يحرسون جسر الفردان القائم فوق قناة السويس والذي يصل وادي النيل بشبه جزيرة سيناء، أو يحرسون المعابر المائية في القنطرة، أو أراهم في شوارع الاسماعيلية وبور سعيد في سياراتهم العسكرية الصفراء وعند بلدة العباسية بجوار التل الكبير حين نمر بسياراتنا في الطريق البري بين الاسماعيلية والقاهرة.

كنت أرى هذه المظاهر فتثير في نفسي دائماً شعوراً بالمرارة والألم، وربما أستغرق في تفكير طويل -بعد كل مرة أمر فيها بهذه المراكز- اتخيل نفسي فيه مشتبكاً في معركة مع جنود الاحتلال، وهو شعور ظل يلازمني وقتاً طويلاً، وقد خالجني أول مرة في سن مبكر وكنت لا ازال في السادسة من عمري حين ذهبت بصحبة والدي وأشقائي لزيارة أخي الأكبر في مدينة دمياط، وكانت المرة الأولى التي اعبر فيها قناة السويس قادماً من سيناء، وارى الجنود الانجليز بارديتهم الغريبة وسحنهم الاجنبية المثيرة، وسألت والدي عنهم فكان جوابه لي -أو لعله ما بقيَ من جوابه في ذاكرتي بعد هذا الزمن- مجموعة من القصص الطويلة المحزنة بعضها نقلاً عن والده وأعمامه واقربائه الذين عاشوا زمن الحرب العرابية وقاسوا بأنفسهم أو تسامعوا بالنكبات التي حلت بالمواطنين، وبعضها الآخر عن ذكرياته الشخصية عن الحرب العالمية الأولى حين اتهم الانجليز اسرتنا بإيواء الجنود الاتراك المسلمين أثناء تراجعهم الفاشل من حملة السويس، وقد فرت أسرتنا من وجه الانجليز فأخذوا يطاردونها مما اضطر والدي وأعمامي إلى الهجرة واطفالهم إلى رؤوس الجبال البعيدة، ولكن الانجليز استطاعوا ان يعتقلوا اخاه الاكبر (الشيخ خليل) وان يحكموا عليه بالاعدام لولا ان تدخل شيوخ القبائل البدوية قبيل تنفيذ الحكم والتمسوا العفو عنه فاستبدلت بعقوبة الإعدام السجن.

وكانت قصص الوالد هذه هي أول اجابة تلقيتها على تساؤلي عن الاحتلال البر
لمصر، كما كانت أول معلومات عرفتها عن تاريخ الانجليز في بلادي في تلك السن الم
ويالها من قصص حزينة يشيع فيها العدوان والظلم والقسوة! لقد كانت خليطاً من
والاعتداء على الرجال والنساء والاطفال، واغتصاب للأقوات والحيوانات كما كا
تشريد للعزل الآمنين عن بيوتهم وأطفالهم، وتسخير قهري للشباب على القيام باعم
يرضونها لمصلحة المحتلين ولو كان الأمر بأيديهم لفعلوا عكسها تماماً، وهل كان
بريطانيا في بلادنا العربية والاسلامية إلا صورة متكررة على اقدار واحجام مختلفة من
القصص التي رواها والدي والتي كانت اسرتي البسيطة ضحية واحدة من ضح
الكثيرين؟

لقد بقيت بعد ذلك وقتاً طويلاً لا أرى الانجليز الا من خلال هذه القصص البا
تحملني الصدفة إلى مراكزهم المنتشرة على طول قناة السويس حتى تطفو هذه الذك
على سطح الشعور عندي، وبقيت كذلك حتى ارتفعت مداركي وازدادت معلو
وأصبحت أقرأ بنفسي قصصاً تزيد في بشاعتها وهولها عما سمعت في تلك السن المب
كنت أقرأه في كتب التاريخ أو في الجرائد والمجلات عن حركة مصطفى كامل و
دنشواي وثورة سعد زغلول وحركة الاخوان المسلمين والثورات الصغير والكبيرة التي
شعبنا ودفع دماء كثيرة ثمناً لها.

إستدعاء

تلك كانت فكرتي عن الاحتلال البريطاني في القناة وهي فكرة صنعتها عوامل
كما ذكرت، وتلك كانت نظرتي للجيش الغاصب عندما كانت مصر قائمة قاعدة بعد
المعاهدة البريطانية في شهر اكتوبر، غير انني لم أكن قد عنيت حتى ذلك الحين
اوضاع الجيش المحتل ومدى استعداداته، وكانت حصيلتي من المعلومات في هذه ا
ضئيلة جداً. ذلك لأن الزيارات العفوية القصيرة التي كنت أقوم بها لمدن القناة
تسعف بمعلومات صحيحة. ولكنني كنت أعلم من ناحية أخرى ان رجالنا في منطقة
ظلوا مشغولين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بتجميع المعلومات والخرائط عن المعس

البريطانية وحركات القوات فيها، وان هذه المعلومات كانت ترسل أولاً بأول إلى قيادة النظام الخاص الذي نظمه الاخوان المسلمون خصيصاً لمحاربة الانجليز يوماً ما. وهو النظام الذي عرفته الدعاية بعد ذلك باسم الجهاز السري.

وكنت أعلم أيضاً ان رجالنا قد نجحوا في دس بعض اخوانهم الخُلّص في صفوف العمال والموظفين الذين يعملون في المصانع والورش والسكك الحديدية ومكاتب القيادات، بل علمت بحكم صلتي الوثيقة بقيادة القاهرة ان بعض رجالناستطاعوا ان يمثلوا ادوارهم باتقان وان يظفروا بثقة كبار الضباط الانجليز، وانهم يتحركون في المعسكرات الانجليزية بحرية تامة في ظل هذه الثقة، ويقومون بدورهم الناجح في تجميع المعلومات الدقيقة الوافية عن تحركات الجيش البريطاني ومناوراته وخططه في منطقة القناة.

وبينا كنت أعيش في حياتي الهادئة الخاصة في بلدي البعيدة وردت برقية مقتضبة في منتصف شهر اكتوبر بتوقيع المرحوم عبد القادر عودة وكيل الاخوان المسلمين تدعوني لمقابلته في القاهرة لأمر هام. وكان علي ان اركب القطار في الصباح الباكر في رحلة طويلة تستغرق عشر ساعات حتى أصل العاصمة في الموعد المحدد.

في الطريق الى القاهرة

لم يكن عسيراً عليّ ان اتكهن بأسباب استدعائي إلى القاهرة، فقد احسست من الوهلة الأولى ان للأمر علاقة بالاحداث الجارية، وحين كان القطار يطوي رحلته الثقيلة عبر الصحراء ويقذف إلى داخل العربات بأكداس من الغبار المنبعث من عجلاته مخلوطاً بذرات الدخان الاسود المتصاعد من مدخنه، كانت التسلية الوحيدة هي قراءة الصحف والمجلات أو الحديث مع جيران السفر، وكانت الصحف الصباحية طافحة بالعناوين الضخمة المثيرة عن إلغاء المعاهدة، وخطوات ما بعد الإلغاء، ولا حديث للناس إلا الحرب وما عسى ان يجره الصدام مع الانجليز من المشاكل والنكبات. وكان التاجر السمين الجالس إلى يميني لا يخفي استياءه وتأففه من ارتفاع أسعار السلع الاستهلاكية وانصراف الناس عن شراء الكماليات استعداداً للأيام الحالكة، وكانت عناوين الصحف وموضوعاتها تتفاوت في لهجتها وتختلف في اتجاهاتها. فصحف الحكومة تسوق قصائد المدح والاطراء لرئيس

الحكومة وحزبه ووزرائه وتجعل منهم أبطالاً وطنيين. أما صحف المعارضة فكانت تبدي تخوفها من الموقف وتصنع له من هواها صورة حالكة السواد. وبين هذين النوعين من الصحافة الحزبية نوع ثالث يمثل الاحزاب الشعبية المتطرفة كالحزب الاشتراكي والافكار اليسارية الأخرى التي انتهزت الفرصة فأخذت تعبىء المشاعر العامة وتدعو للثورة بشعارات دموية عنيفة وتتهم الجميع -الحكومة ومعارضيها على السواء- بأنهم عاجزون مترددون، كما لاحظت في هذا النوع الثالث من الصحف حملة مركزة على الاستاذ الهضيبي مرشد الاخوان المسلمين «الذي يحول بين الاخوان وبين النزول إلى ميدان المعركة المسلحة» على حد زعم تلك الصحف في ذلك الوقت. ولقد التمست من عندي بعض الاعذار لاصحاب هذه الصحف المتحمسة الفائرة التي كانت تبحث عن التصريحات المدوية فتجدها عند الزعماء والمتزعمين بلا حساب ثم تلتمسها عند قائد أكبر هيئة نضالية في مصر فلا تجد الا صمتاً مطبقاً وربما كلاماً غامضاً مبهماً لا يشفي الغليل مثل «الاخوان يؤدون واجبهم ان شاء الله» أو غير ذلك من العبارات الهادئة!

ولكن الذين عرفوا الهضيبي عن قرب يستحيل عليهم اتهامه ولا يحكمون عليه من الظواهر والتصريحات الكلامية، فهو بطبعه المتزن الوقور يترفع عن التهريج والمبالغات ويفضل أن تعلن الأعمال عن نفسها، كما أنه كان لا يثق في الحكومة ولا يعتقد بقدرتها على قيادة المعركة ولا يأمن منها الانقضاض على رجاله كما فعلت حكومات سابقة، ولذلك كان يميل إلى السكوت والانصراف إلى الإعداد تاركاً لغيره مهمة الإدلاء بالتصريحات المرعدة وتغذية الصحف بالعناوين الحمراء والسوداء!

وحين تجاوزنا القنطرة الشرقية بعد استراحة قصيرة وانحرفنا جنوباً بمحاذاة قناة السويس، قطع علي حبل التفكير توقف القطار وأصوات جلبة وضوضاء تنبعث من الخارج، ثم فتح باب العربة وأطل وجه أحمر مسلوخ تعلوه قلنسوة عسكرية عليها شعار جنود الدبابات البريطانية. وكان لصاحب الوجه عينان زرقاوان فاحصتان أخذتا تجيلان النظر في الركاب وتنظران في الوجوه تارة وتحت المقاعد تارة أخرى، وتشاغلت بقراءة الصحيفة، وضمت المرأة الجالسة أمامي رضيعها في ذعر واشفاق، ولا أدري كم من الوقت مضى على الجندي البريطاني وهو يتفحصنا، ولكنني أدركت انصرافه حين كشفت المرأة عن وجه

رضيعها وانفردت عضلات وجهها المتقلصة. وأخذت ترسل اللعنات على الانجليز وآبائهم وتستنزل عليهم غضب السماء وهي ترسل زفرات حادة!

وقد علمت من مفتش السكك الحديدية بعد انطلاق القطار ان الانجليز أوقفوه قبل جسر الفردان وفتشوه لأول مرة بحثاً عن العناصر الارهابية والاسلحة. وحين كان قطارنا يتوسط الجسر فوق مجرى القناة ارسلت نظرة عبر النافذة إلى الممر المائي الازرق الذي فجره اجدادنا بعرقهم ودمائهم ليصلوا به القارات والبحار و يساهموا به في دفع الحضارة الانسانية وتوسيع آفاق التعارف والتعاون بين بني البشر. وعلى الضفة الغربية رأيت الجنود الانجليز يتنقلون بسياراتهم المصفحة واسلحتهم المشهرة ورأيت المعسكرات البر يطانية تمتد بمحاذاة القناة إلى الأفق البعيد، وجنود الامبراطور ية يمارسون تدر يباتهم العسكر ية. ولم يلبث القطار ان اجتاز الجسر الكبير مخلفاً وراءه الصحراء الواسعة المترامية واقبل بوجهه على أرض وادي النيل وقد كساها بساط من الخضرة الداكنة، بساط عظيم تتخلله شبكة واسعة من القنوات والمصارف التي تحمل الماء من الترعة الكبيرة الى الأرض الزراعية المنبسطة، كما تظهر المآذن واسطح البيوت البيضاء في القرى الر يفية المبعثرة هنا وهناك.

وفي منزل المرحوم عبد القادر عودة جرى أول حديث عن الوضع الراهن ومتطلباته. وابلغني ان الاخوان المسلمين قرروا تبني المعركة في قناة السو يس، وانهم يتصلون الآن برجال الحكومة والأحزاب الاخرى لبناء جبهة سياسية موحدة، وان سبب استدعائي للقاهرة هو ان المركز العام يكلفني بدراسة الوضع في منطقة القناة ومعرفة الامكانيات المحلية هناك وتحديد نواحي النقص، مع ضرورة الفراغ من هذه الدراسات خلال اسبوعين واعداد تقر ير شامل لمناقشته في مؤتمر خاص يعقد في الاسماعيلية لهذه الغاية ويحضره مندو بون عن المناطق المختلفة في القاهرة والقناة ومدير ية الشرقية.

وقال ان تعليمات بذلك قد ارسلت إلى رؤساء هذه المناطق لتسهيل مهمتي و بذل المساعدات اللازمة لانجاحها. وفي فجر اليوم التالي كنت اغادر القاهرة بالسيارة إلى مدير ية الشرقية حيث بدأت جولة مضنية خطرة طابعها السر ية المطلقة وهدفها دراسة كل شيء، و بدون مبالغة التحضير لمعركة مسلحة مع القوات الامبراطور ية. و بينما كنت في طر يقي لأداء هذه المهمة تناولت صحف الصباح من محطة الزقاز يق فوجدت الجرائد المتطرفة

تواصل حملتها على الهضيبي وتسأله عن سبب سكوته وهو لا يجيب. حقاً! ما أعظم فداحة المسئولية وما أشد ما يلاقي الرجل المسئول من المتاعب وخاصة حين يتمسك بالرزانة والحكمة في جو من العواطف المهتاجة. وألقيت هذه الصحف جانباً وهمست لنفسي «يا له من رجل»!

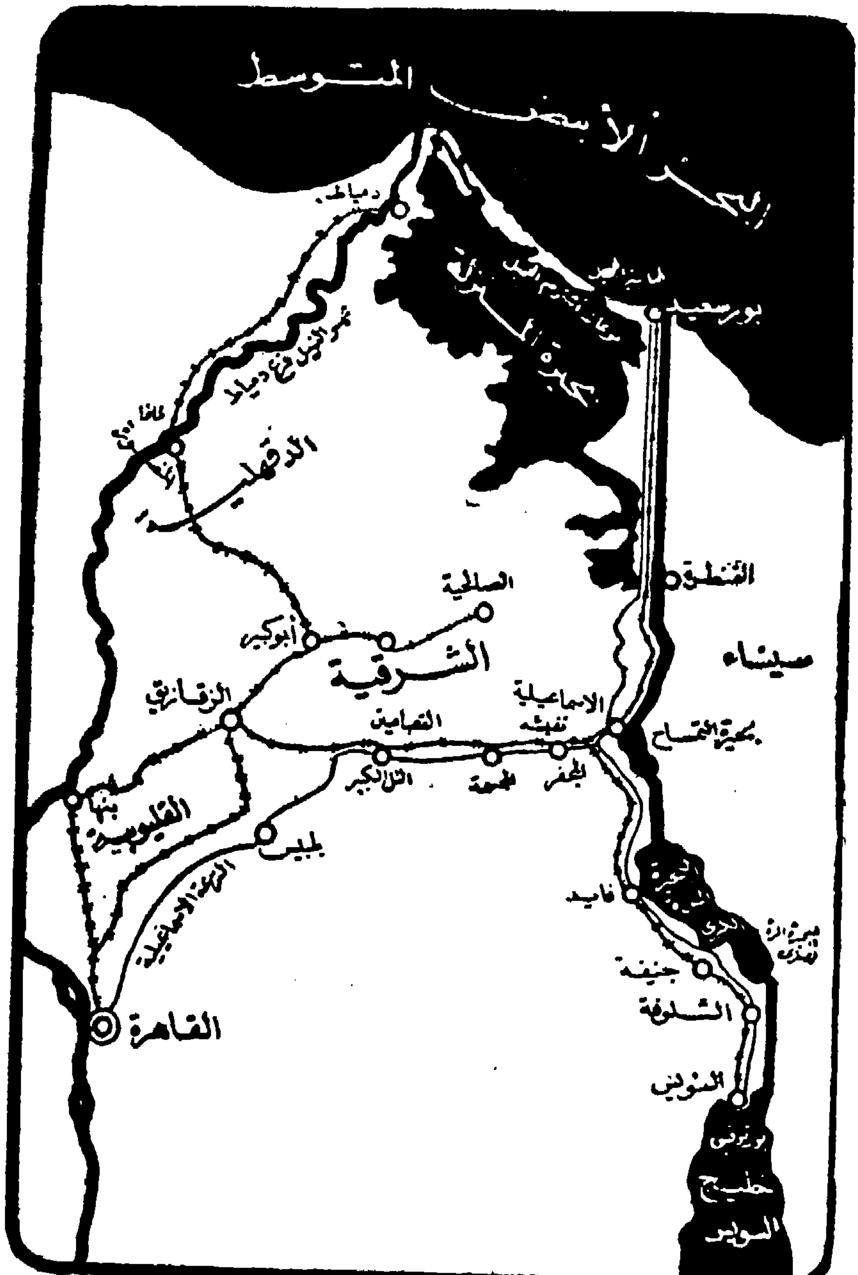
في مديرية الشرقية

لم يكن السبب الأوحد الذي دفعني للنزول في مديرية الشرقية انها تقع على الطريق بين القاهرة وقناة السويس، وان الذاهب إلى منطقة القناة يجب أن يمر بها أولاً، وان أسباباً جغرافية واستراتيجية عظيمة تجعل منها قاعدتنا الكبرى في أي حركة نقوم بها ضد الغزاة المستعمرين.

لقد كانت الشرقية هي الجسر الذي عبره البريطانيون لاحتلال القاهرة في زمن الحرب العرابية، وفوق تربتها مات اجدادنا بالالوف وهم يقاومون الغزو بصدورهم العارية في معركة انعدم فيها التكافؤ، وقد آن لها أن تثأر لنفسها من غاصبيها!

إن مديرية الشرقية تبتلع في جوفها العظيم جزءاً كبيراً من المنطقة البريطانية المحتلة وتحيط به من الجانبين لمسافات شاسعة، والقاعدة البريطانية التي تبدو على الخريطة كحرف (آ) تمتد قاعدته الافقية بمحاذاة مجرى القناة من بور سعيد على البحر الابيض إلى السويس على البحر الأحمر يعود خطه الرأسي فيندفع بعيداً في أراضي الشرقية صوب القاهرة.

يقال دائماً ان الارض بموقعها وطبيعتها تلعب دوراً رئيسياً في الحروب، ولكن دورها الأهم تلعبه في هذا النوع من الحروب الشعبية التي كنا نعد لها والتي يسمونها أحياناً «حرب العصابات» بحيث تصبح الارض الصالحة هي كل شيء بالنسبة لهذه العصابات، ولقد كانت مديرية الشرقية -كما سيتضح في الفصول القادمة- شيئاً بالغ الاهمية بالنسبة لنا، وفوق هذه القيمة الاستراتيجية العظيمة التي يمكن ان تعطيها هذه المقاطعة المصرية لرجال حركتنا فإن هناك قيمة كبيرة يمكن أن تعطيها لعدونا أيضا، وأعني بذلك عشرات الألوف



خريطة عامة لميدان العمليات

من العمال والموظفين من أبنائها الذين يعملون في القواعد البر يطانية والذين ينبغي علينا ان نجعل منهم جنوداً لنا يدمرون المعسكرات متى امرناهم أو يتركون العمل فيها فتصاب بالشلل. وهناك أيضاً الوف الاطنان من المواد الغذائية التي تتسرب كل اسبوع من الشرقية إلى الجيوش المحتلة والتي تتوقف عليها حياة الضباط والجنود وعائلاتهم. ولست أجهل ان بر يطانيا لن تسمح لجنودها ان يموتوا جوعاً تحت حصارنا بينما البحار والمستعمرات الأخرى في آسيا وافر يقيا مفتوحة امام اساطيلها البحر ية والجو ية، ولكن جلب المواد الضرور ية لجيش كبير من وراء البحار ليس بالأمر الهين، كما ان تشغيل البواخر والطائرات لزمن طو يل في جلب الطماطم والبيض والبصل ليس مما يسعد به جنرالات الامبراطور ية وحكامها!

وإذا استطعنا ان نفرض عليهم هذه الحالة لامد طو يل فاننا نكون قد كسبنا المعركة. حقاً ان علينا واجباً عظيماً في اقليم الشرقية وهو واجب ربما تتوقف عليه وحده النتائج النهائية لهذه الحركة كلها. ان علينا ان نستغل خصائص هذه المنطقة ومميزاتها لمصلحتنا على أوسع نطاق ممكن، كما ان علينا من ناحية ثانية أن نعطل الفوائد التي يمكن ان ينالها العدو منها!

تلك هي الفكرة الأولى التي استقرت في ذهني، وانا اتنقل بين مدن الشرقية وقراها، واذرعها في خطوط محاذية للمنطقة البر يطانية تارة وخطوط متلاقية معها تارة أخرى، في القر ين والتل الكبير حيث تعتصر المدير ية معسكرات العدو بين ذراعيها من الناحيتين، ومن منطقة "بلبيس" حيث تندفع الصحراء ذات الجبال العالية والغرود الرملية حتى تطل على "فايد" "وفنارة" قصبة العدو ومقر قياداته العليا، وفي صحراء الصالحية عندما تستدير مدير ية الشرقية في قوس عظيم وتطل على بحيرة المنزلة وقناة السو يس من جهة البحر المتوسط.

المعرفة طر يق النجاح

لقد خرجت من التجر بة الفلسطينية بدرس كنت دائماً اردده حتى أصبح لي ولاخواني جميعاً شعاراً (ينبغي ان نعرف عدونا جيداً)! وكنا دائماً نرد انتصارات العدو اليهودي في مناسبات كثيرة إلى معرفته العميقة بالجبهة ونقاط الضعف والقوة فيها، كما كنا نرد فشلنا

نحن في الحملة الفلسطينية كلها لهذا السبب وهو جهلنا بالعدو. وتحت هذا العنوان الكبير كانت تقع هزائم جزئية كثيرة لا سبيل إلى حصرها. ومن أجل ذلك كانت معرفتنا بالعدو تشكل موضوعاً مهماً للغاية، وكانت معرفتنا بعد ذلك بانفسنا، اعني بأرضنا ومسالكها ودروبها وطرق مواصلاتها وجبالها وترعها ومصارفها وكل شيء فيها، ومعرفتنا بمواطنينا في بلادهم وقراهم ومساكنهم، ومدى ولائهم للحركة واستعدادهم للاستمرار في الولاء لها رغم تغير الظروف، هذا النوع من المعرفة أيضاً ينبغي ان يشغل بالنا كثيراً.

وإذا كان هذا الموضوع لا يشكل قضية هامة لدى الضباط أصحاب الذهنية العسكرية الذين لا تعنيهم إلا قيادة وحداتهم، تاركين للادارات الحكومية أن تنسق الصلة بالاهالي المدنيين وان تسوقهم للمجهود الحربي العام بالأوامر والقوانين العرفية فان هذا الموضوع يعتبر مشكلة غاية في التعقيد بالنسبة لقيادة العصابات الشعبية وخاصة في ظروف كظروفنا حيث يستطيع العدو ان يشن حملات معاكسة من مراكزه القريبة وحيث تقف الحكومة موقفاً متردداً خائراً لا ينطوي على كثيرمن التشجيع!.

إن من واجبنا ونحن نضع تخطيط المعركة المقبلة ان نبسط امامنا اعتبارات كثيرة حين نناقش صلتنا بالاهالي المدنيين، وأول هذه الاعتبارات اننا لا نملك أي سلطة عليهم، وأن كل الصلات بيننا وبينهم إنما تقوم على مدى اقتناعهم بحركتنا وايمانهم بجدواها.

إننا سنطلب منهم تضحيات كثيرة تكلفهم راحتهم وأقواتهم وربما أرواحهم أيضاً دون أي مقابل من جانبنا. فاذا نجحنا في اقناعهم بعدالة القضية التي نحارب من أجلها، وإذا استطعنا الارتقاء بوعيهم السياسي والديني فاننا نكون قد أقمنا قاعدة أمينة في هذه المنطقة، وإذا حدث العكس فقدت هذه القاعدة أهميتها تماماً وأصبحنا نعمل في محيط لا ينسجم معنا.

كانت هذه الأمور هي أول بحث دار بيني وبين قادة جماعاتنا في مديرية الشرقية أثناء اجتماعاتي بهم وكانت الخطة التطبيقية لذلك تقوم على هذه الاسس:

أ - بذل المزيد من الجهد لتعزيز صلتنا بعمال المعسكرات واعداد تقارير تفصيلية عن تحركات الجنود الانجليز ومناطق تدريباتهم ومراكز الحراسة والداوريات المتحركة ومخازن الذخيرة ومواعيد القطارات وغيرها.

ب - القيام بحملة دعاية دينية وطنية في كافة بلاد المديرية وقراها، وتعزيز الصداقات مع العمد والوجهاء وشيوخ القبائل وخاصة في المناطق المواجهة لجبهة العدو أو القائمة على خطوط المواصلات التي تربط الشرقية بمدن القناة.

ج - بذل جهد خاص لجمع التبرعات وشراء الاسلحة والذخائر الانجليزية التي كانت تهرب في ذلك الحين وخزنها بطرق فنية في أماكن منتخبة لهذا الغرض.

وقد عقدت عشرات الاجتماعات المماثلة بعد ذلك في بور سعيد والقنطرة بقسميها وشواطىء المنزلة، والكفور القائمة على مجرى مصرف بحر البقر، والريّاح ثم الاسماعيلية ومنطقتها الواسعة المليئة بالقرى ومعسكرات العمال ثم مدينة السويس والشط، وكانت هذه الاجتماعات كلها تهدف إلى حثهم على تقوية شبكة المعلومات لديهم وابتكار وسائل جديدة لتحقيق الغايات التي أشرت اليها؟

وفي الاسماعيلية كانت تقوم أقوى تشكيلاتنا السرية كما توجد القيادة الادارية الرئيسية لمنطقة القناة، يرأسها داعية محنك عظيم الخبرة هو المرحوم الشيخ (محمد فرغلي) كما يساعده مغامر جسور هو (يوسف طلعت) وعدد كبير من الشباب الواعي المنبث في مختلف الفئات والطوائف المهنية. وكان للاسماعيلية شبكة للمعلومات من أقدم الشبكات وأقواها، كما كان يعمل فيها عدد من المحترفين والمتفرغين الذين لا عمل لهم إلا متابعة النشاط البريطاني وملاحقة العملاء المصريين والاجانب الذين يعملون لحسابه، وكانت تدور معركة خفية بين هذا الجهاز وبين قلم المخابرات البريطاني، وتظهر هذه المعركة أحياناً على السطح في اشتباكات متفرقة هنا وهناك.

وكان الإنجليز لا يجهلون خطر هذه الجماعة وبأسها، فكانوا يراقبون الشيخ فرغلي مراقبة دائمة، وكان منظراً مألوفاً أن يُرى هذا الرجل الوقور في شوارع الاسماعيلية بلباسه الديني المبتكر وعمامته البيضاء الأنيقة يتابعه عميل بريطاني حيثما سار!

لقد نزلت الاسماعيلية قبيل انعقاد المؤتمر الخاص بيومين واجتمعت بالشيخ فرغلي ومساعديه اجتماعات طويلة. وقد سألني يوسف طلعت ظهر يوم ونحن على مائدة الغداء في منزل الشيخ عما إذا كنت أرغب في زيارة احد الجنرالات في منزله وتناول الشاي على مائدته العامرة. فضحكت لهذه المداعبة ولكنه أكد لي انه لا يمزح ولا يقول إلا حقاً الامر

الذي ادهشني غاية الدهشة، ولكنه فسر لي الموضوع ذاكراً ان لديه اخاً مخلصاً يعمل في المعسكرات ولا يعرفه احد حتى الاخوان أنفسهم، وانه وصل إلى مكانة عظيمة في نفس الجنرال الانجليزي مما يساعده على التجول في المعسكرات بحرية تامة، وأنه يحمل معه شهادة تمكنه من دخول منزل الجنرال وكبار الضباط في أي وقت يشاء. وقال يوسف طلعت غامزاً بعينه التي تفيض منها الشجاعة والدهاء: ألا ترى أن جولتك تبدو ناقصة مبتورة إذا أنت لم تقم بنزهة طويلة مع صاحبنا؟

والحق انني ابديت تخوفي من هذه المغامرة. ولكن العرض كان مغرياً إلى درجة يصعب مقاومتها. فقمت من فوري وقلت في حزم: غداً. قال: غداً صباحاً ان شاء الله.

الشيخ محمد فرغلي

لقد عرفت الشيخ فرغلي -أول ما عرفته- يوم كان يرافق المرشد الشهيد في جولته على خطوط القتال في فلسطين، ثم توثقت بيننا عرى الاخوة حين عملنا سوياً خلال الحملة الفلسطينية فازددت له معرفة كما ازددت به اعجاباً.

كان الشيخ فرغلي من ذلك الصنف الذي يفرض عليك -رغم تواضعه الشديد وأدبه الجم- ان تحترمه وتقدره، وكان مفتاح شخصيته هو «الترفع»، الترفع عن الصغائر، والترفع عن الخصومات، والترفع عن كل ما يشين. وكان شديد الحرص على سمعة الدعوة، ونظمها، غيوراً إلى أبعد الحدود على هيبتها وكرامتها. واذكر ان الشيخ فرغلي لم يكن منسجماً تمام الانسجام مع المرشد العام الجديد في الأيام الأولى لتنصيبه، وكنت أعرف عنه ذلك. وبعد نجاح الانقلاب العسكري وتأليف وزارة محمد نجيب الأولى عقد اجتماع في مكتب البكباشي جمال عبد الناصر وكان وزيراً للداخلية في تلك الوزارة، كما حضر معه عن رجال الإنقلاب -كما اذكر- كمال الدين حسين وصلاح سالم وعبد الحكيم عامر، وكنا الشيخ فرغلي وأنا نمثل الاخوان في محاولة من تلك المحاولات التي بذلت لتحديد الخلافات بين الاخوان وحكومة الانقلاب ووضع حلول لها، ويبدوا أنهم أرادوا أن يوقعوا بين الشيخ والمرشد العام وان يكسبوه في صفهم وكانوا كثيراً ما يفعلون ذلك مع بعض اقطاب الجماعة، فأخذوا يمتدحون الشيخ ويذكرون له مواقفه العظيمة في فلسطين ثم أخذوا ينالون

من شخص المرشد العام و يتحاملون عليه. غير ان الشيخ فرغلي قطع عليهم الحديث وقال غاضباً: «يجب ان تدركوا ان هذا الذي تتحدثون عنه هو زعيمنا وقائد جماعتنا وانني أعتبر حديثكم هذا إهانة للجماعة كلها ولشخصي بصفة خاصة، وإذا كان هذا هو اسلوبكم في تسو ية الخلاف فانكم لن تصلوا لشيء إلا ز يادة هذا الخلاف»! وكان هذا القول كافياً لاقناعهم انهم امام رجل صلب العود قوي الشكيمة فانصرفوا بالحديث إلى جهة أخرى!

ولم يكن الشيخ فرغلي من ذلك النوع من شيوخ الدين الذين يتعلقون بالقشور و يبحثون عن المناصب والمراكز، ولو كان كذلك لاعفى نفسه من المتاعب ولأصاب من المراكز أقصى ما ير يد، ولكنه كان مجاهداً بحق. وحسبه انه ترك وظيفته وأهله وذهب إلى فلسطين مع أول جماعة من المجاهدين. وحين نشبت معركة القناة ترك أهله مرة أخرى واندمج بكليته في المعركة، ولم يكن أيضاً «درو يشاً ساذجاً» يعالج قضايا الجهاد من زاو ية عاطفية، بل كان سياسياً ذا عقلية منظمة كما كان صاحب شخصية مسيطرة تملأ نفوس من معه بالأمل والثقة وتشعرهم انهم يسيرون خلف قائد قدير عظيم الخبرة.

ولقد قتل الشيخ فرغلي بعد ذلك بأيد مصر ية، ولعل الذين استباحوا دمه ارادوا أن يبعدوه عن طر يق مجدهم، ولو ادركوا أنهم صنعوا منه شهيداً خالداً وأقاموا منه مثلاً حياً سيظل يهيب بالجموع الكثيرة من الاخوان ومن طلاب الحق ليكافحوا الباطل حيثما وجدوه، ولو ادركوا انهم وضعوا بفعلتهم هذه اسماً جديداً في قائمة الاسماء اللامعة من شيوخ الاسلام المجاهدين من امثال ابن تيمية وسعيد بن جبير وعمر المختار وحسن البنا، ولو انهم ادركوا ذلك كله لربما ترددوا كثيراً في قتله رحمه الله.

يوسف طلعت

جندي بالفطرة ومحارب بالسليقة وعصامي بمعنى الكلمة. كان في مطلع حياته يرتزق من حرفة يدو ية شاقة فأحياناً نجار واحياناً يصلح الدراجات، غير ان مشاكل الرزق لم تمنعه من أن يقرأ كثيراً و يثقف نفسه بنفسه، حتى أصبح يخطب ويحاضر في مجالات كثيرة، و يترأس جماعات من الشباب فيهم من وصل إلى درجات علمية كبيرة، ولكنهم لم يجدوا يوماً أي غضاضة في العمل تحت امرة «الشيخ يوسف» كما كانوا ينادونه!

كان ذا عقلية مبتكرة خلاقة لا تعجز عن ايجاد حل لأي معضلة. اذكر حين كنا في فلسطين أننا غنمنا بعض قنابل المورتر من العدو، ولم نكن نملك المدفع اللازم لها في ذلك الوقت المبكر من الحرب فوقفنا عاجزين، ولكن يوسف طلب منا ان نمهله اسبوعاً فتركناه ونحن لا ندري ماذا ينوي. وبعد أيام قدم لنا اسطوانة فولاذية مثبتة على حامل ارضي، ولم تكن لامعة دقيقة الصنع كالمدفع الأصلي ولكننا استخدمناها في ضرب مراكز اليهود القريبة بقنابل المورتر! وحين وقفنا عاجزين امام مشكلة مستعصية هي: كيف نستطيع ان نلقي المفرقعات على استحكامات اليهود من مكان بعيد، كان هو أول من فكر في صنع (راجمة ألغام) مبتكرة ساعدتنا كثيراً على قذف الغامنا دون أن نتعرض للاصابات.

أما أبرز صفاته فكانت بلا شك (الدعابة). مرح خفيف مهذب لا تسمع منه كلمة نابية، ولا تفارقه روح المرح في أحرج المواقف وأشدها خطورة. كان يوماً على رأس دورية قتال في فلسطين مهمتها القيام بأعمال القناصة ضد الحرس اليهودي في احدى المستعمرات القريبة، وقد أخذ يتسلل بجماعته في الصباح الباكر من حفرة إلى حفرة إلى شجرة حتى أصبحوا في مكان قريب جداً من مباني المستعمرة بحيث كانوا يرون من في داخل البيوت من اليهود. وحينما نظروا إلى برج الحراسة وجدوا جندياً يهودياً وفتاة من المجندات في موقف عاطفي، وجاءت النكتة المرحة على لسان يوسف ولم يستطع كبتها في هذا الموقف الخطر، فهمس في اذن اخوانه: اتدرون لماذا يقف اليهودي واليهودية هذا الموقف؟ فسكت الاخوان، واستمر هو يقول:

انهم يعرفون جيداً اننا من الاخوان المسلمين، واننا موجودون هنا لنتجسس عليهم ونرصد مواقعهم فأرادوا ان يمنعونا من النظر إلى مستعمراتهم لأن اليهود يعلمون ان الله أمرنا ان نشيح بأبصارنا عند رؤية المنكر، ثم تلا الجملة القرآنية (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم)! ثم قال: نحن الآن أكثر من أربعة شهود ونستطيع ان نقيم عليهم الحد. ثم أمر قناصته باطلاق النار على رأس البرج فوقع الفتى والفتاة على الأرض. وحين كان الرصاص ينهمر على رأسه ورأس من معه كان لا يزال مستغرقاً في ضحكة عالية قبل ان يلوذ ببطن الوادي.!

هذه الروح المرحة لم تفارقه ابداً حتى يوم ان كان ماثلاً امام المحاكمة الهزلية التي عقدتها الحكومة العسكرية له لتحكم عليه بالاعدام. يرحمه الله.

مغامرات في معسكرات العدو

لم أكد أفرغ من صلاة الصبح، حتى انطلق بوق السيارة أمام فندقي. وعندما نزلت على عجل رأيت سيارة صغيرة تقف بعيداً و يظهر منها وجه يوسف طلعت بلحيته المدببة وسحنته المألوفة عندي. وقبل ان أصل إلى السيارة كان هو قد نزل منها وواصل سيره على قدميه. ودلفت في السيارة حين فتح لي الباب شاب اسمر قصير لم أتبين ملامحه تماماً تحت القبعة التي ارخى حافتها على جبينه بينما ابتلعت نظارته السوداء الضخمة جزءاً كبيراً من وجهه، وادار السيارة وانطلق بها في اتجاه المعسكرات دون ان ينبس بكلمة، ومضى وقت طويل قبل أن يسألني عن الصحة والاحوال، ويخبرني ان يوسف طلعت أفهمه كل شيء، وانه سيحرص على أن يأخذني إلى أي مكان اشاء، كما اخبرني ان دوري في الرحلة ليس أكثر من كاتب عنده يساعده في أعماله التجارية. وحين وصلنا باب المعسكر الرئيسي وهو المعسكر القائم في الطرف الغربي لمدينة الاسماعيلية، والذي كان الجنرال «ارسكين» يقطن فيه و يدير منه قوات منطقة القناة، أوقفنا جنود البوليس الحربي البريطاني، وخيل لي حينذاك اننا وقعنا في مشكلة، ولكن صاحبي ابرز شهادته، فتفرس فيها الجندي ملياً ثم ناولها له، والتفت لي يسألني بالانجليزية عن هويتي وماذا اريد، فتظاهرت انني لم أفهم شيئاً مما قال، واشرت الى صاحبي قائلاً بانجليزية ركيكة: لا أفهم الانجليزية! وتحدث صاحبي فقال عني انني أعمل معه، فاقتنع الجندي وأعطانا اشارة المرور، وحين دلفت السيارة من الباب، انتابني شعور من يجد نفسه فجأة في عرين الاسد!

كان المعسكر اشبه بخلية النحل، جنود يمسكون في أيديهم أواني الطعام، ويهرولون نحو المطبخ لتناول طعام الصباح، وجنود يقفون في أرض التدريب يمارسون تمارينهم اليومية، ومئات العمال والفنيين يدخلون إلى المخازن والمصانع، واخذنا نحن ننتقل من مكان إلى مكان وندخل على العمال مصانعهم وعلى الضباط الانجليز مكاتبهم الانيقة. وكان صاحبي يسأل من نجلس اليهم اسئلة من النوع الذي يتعلق بمهمتي، فمثلاً يسأل العمال عن محتويات هذه المخازن، ليصل بعد ذلك إلى أماكن مخازن الذخيرة ومستودعات البترول، و يسأل عن عدد الفنيين المصريين في بعض الورش الهامة، فتبين لي ان الحركة كلها تدور على أكتاف

هؤلاء العمال المواطنين، بينما يتولى الانجليز الاشراف البعيد، وانه إذا توقف هؤلاء العمال توقفت الحركة معهم بصورة يستحيل علاجها. وأخذ صاحبي يسأل اسئلة كثيرة غير ذلك، تتعلق بمساكن الضباط وطريقة الحراسة فيها، وأوقات المناوبة بين الحراس، كل ذلك وانا مطرق استمع فاذا خلوت اليه بعد ذلك نبهته إلى موضوع معين تاركاً له اختيار الوقت المناسب للسؤال عنه، وإذا استطعت أن أخلو بعد ذلك لحظات لا يراني فيها أحد دونت في مفكرتي رموزاً وارقاماً قليلة استعين بها عند العودة على تذكر ما سمعت وربط المعلومات بعضها ببعض.

وحين غادرنا هذا المعسكر، انحرفنا شرقاً، ومضت السيارة في طريق يحاذي قناة السويس، وكانت بحيرة التمساح تبدو أمامنا واسعة منبسطة، وتظهر وراءها صحراء سيناء بتربتها الصفراء، وجبالها العالية. وقلت لنفسي ما أجمل هذه الصحراء وما أحسنها!، انها اصلح منطقة للقتال، ألا ليت الانجليز أقاموا قاعدتهم فيها بدلاً من هذه الأرض السهلة المنبسطة التي لا يجد الانسان فيها مخبأ آمناً! ولكن لعل هذه من بين الاسباب التي دفعت الانجليز لاختيارها كما دفعتهم للابتعاد عن الصحراء، حقاً! ان كل شيء تتمناه لمصلحتك يتمنى خصمك عكسه تماماً لمصلحته، ولكن الا نستطيع ان نقنع الانجليز بالذهاب إلى هذه الصحراء حيث نقابلهم هناك؟ انه لأمر جائز! ولكن كيف الوصول اليه. واسترسلت اسأل نفسي وأجيب عليها، ربما إذا تعرضنا للسفن البريطانية المارة في القناة من ناحية البر الشرقي، وربما إذا ضربنا الجسور أيضاً من تلك الناحية، فلنحاول هذه المحاولة مستقبلاً فلعلها تفيد، وقد حاولناها بعد ذلك التاريخ بثلاثة أشهر.

ودخلنا بعد ذلك معسكرات كثيرة كما دخلنا مقر قيادة الجنرال روبرتسون. وحين وقفنا بسيارتنا قرب باب القيادة كان الجنرال بالصدفة يخرج في جولة للتفتيش، وقد وقفت أمامه وخلفه مجموعة من السيارات والدراجات النارية وعليها جنود مسلحون كثيرون. وحين مر قريباً من سيارتنا، وتفرست فيه كان السؤال الذي مر بذهني هو كيف يمكن ان يأتي فدائيون إلى هذا المكان وتتاح لهم مثل هذه الفرصة النادرة؟ ذلك لأن قائد الاعداء هدف ثمين جداً، ولكن قيام الحركة المسلحة بعد ذلك والمحاولات التي قمنا بها لاغتيال كبار الضباط الانجليز جعلت الانجليز يبالغون في حراسة قادتهم كما جعلت هذا الأمل بعيد التحقيق!

وفي كسفريت وفنارة دخلنا مطارات بريطانية ورأينا قاذفات القنابل الضخمة والمطاردات الخفيفة جاثمة فوق ارض المطار، وكان واضحاً ان الانجليز يهتمون بحراسة هذه الاهداف حراسة شديدة. فنطاقات الاسلاك الشائكة تدور حولها على مسافات بعيدة، وابراج المراقبة التي تعلوها الكشافات الضخمة تشاهد حولها بكثرة ولا يفصل الواحد عن الآخر أكثر من أمتار معدودة. وكان أكثر ما سرني ان هذه المطارات تقع قريباً من منطقة جبلية تتصل بالصحراء الواسعة الممتدة إلى بلبيس، وقد صحت تقديراتي إذ استطاع رجالنا بعد ذلك اقتحام احد هذه المطارات، كما فشلوا في مرة ثانية حين حاولوا نفس المحاولة، وهكذا القتال لا يجري على وتيرة واحدة وإذا رغبت في النصر فيجب الا تفزع من الفشل!

وحين عدنا قبيل الغروب من رحلتنا إلى الاسماعيلية، شعرت انني افدت من هذه الجولة أكثر مما كنت اتوقع، واستطعت ان ارسم لنفسي مخططاً مبدئياً للعمل وخاصة حين خلوت إلى نفسي واخذت ادون معلوماتي الجديدة وأضعها بجانب المعلومات القديمة عن مراكز رجالنا ومناطق تجمعهم.

ولقد ذهبت مع هذا الاخ بعد ذلك في جولات مماثلة حين كان القتال محتدماً وكان الانجليز يضعون الاموال الطائلة ثمناً لرؤوسنا وكان الاقتراب من منطقة القناة بالنسبة للابرياء مغامرة غير محمودة العاقبة فضلاً عن الدخول في المعسكرات والتجول في ربوعها، ولقد ازددت اقتناعاً في كل مرة ان معرفة العدو هي أقصر السبل لادراك النجاح، وانه يستحيل عليك أن تضع خطة مضمونة إلا إذا توفرت لك معلومات وثيقة، وأن رجل مخابرات ناجح كصاحبنا هذا يقدم من النتائج ما يعجز عن تقديمه جيش وافر العدة، كما تكونت عندي تجربة أستطيع أن أنصح بها أولئك الذين يتصدون لقيادة العصابات الشعبية وهي أن لا يقنعوا بالمعلومات النظرية السطحية التي تمنحها لهم الخرائط أو التقارير وأن يحرصوا كلما استطاعوا على أن يدرسوا بأنفسهم وأن يضعوا خططهم على أساس مشاهداتهم واختباراتهم الشخصية.

مؤتمر الاسماعيلية

انعقد مؤتمر الاسماعيلية برئاسة الشيخ محمد فرغلي رئيس المنطقة في جوٍّ ثوريٍّ مكفهرّ، فقد كانت المظاهرات لا تزال تعم المدينة وحوادث التحرش بالاهلين التي يقوم بها الجنود الانجليز من الحوادث اليومية المألوفة.

وكانت المدينة تعيش في جو من التوتر الشديد سببته المصادمات الدامية التي وقعت فيها بعد الغاء المعاهدة، فقد خرج المواطنون في اليوم التاسع من اكتوبر وهو اليوم التالي لأعلان الالغاء يعربون عن فرحهم بهذه الخطوة الوطنية وانتظمتهم مظاهرة سلمية ضخمة اخذت تطوف شوارع المدينة وتهتف هتافات معادية لبريطانيا.

وكان يمكن ان تمر المظاهرة بسلام لولا ان اطلق الانجليز النار على جماهير الشعب لتفريقهم وتسببوا في اسقاط بعض الجرحى منهم، فزاد الهياج واندفعت الجماهير الغاضبة تحرق السيارات البريطانية المارة في الطريق وتسكب البترول على مخازن البضائع الانجليزية القريبة.

ورغم أن البوليس المصري تمكن من السيطرة على الحالة بعد ساعات قلائل إلا أن الإنجليز انتهزوا الفرصة وجلبوا قوات إضافية احتلت بعض أحياء المدينة واتخذت من أسطح المنازل العالية أوكاراً لها، وأصدرت القيادة البريطانية المحلية أمراً حظرت فيه على الجنود أن يسيروا فرادى فأخذوا يجوبون شوارع المدينة في جماعات كبيرة مسلحة وهم يرتدون زي الميدان.

تلك كانت حالة الاسماعيلية والجو الذي تعيش فيه حين انعقد فيها المؤتمر الأول. ولقد سمعت بعض المندوبين في المؤتمر ينقدون هذه المظاهرات ويعدونها نوعاً من الفوضى والتهريج، وكانوا يبدون أسفهم على الخسائر التي وقعت فيها ويتمنون لو ان هذه المظاهرات لم تقم من البداية، وأصحاب هذا الرأي كانوا يبنون نظريتهم على أساس عاطفي غير واقعي وهو ان الخسائر التي تقع في الاهلين خسائر ليس لها ما يبررها، ولكنني كنت اعتقد دائماً ـوقد شاركني هذا الاعتقاد آخرونـ ان مثل هذه المصادمات المباشرة مع جماهيرنا ضرورية جداً لتهيئة الجو الثوري اللازم لنجاح حركتنا، ذلك انه لا شيء يمكن ان يوحد بين رجال المقاومة السرية ويهيء لهم جواً من التأييد عند جماهير الشعب أكثر من هذه المصادمات، وإذا نحن تركنا العاطفة جانباً فاننا ندرك بسرعة ان قتل الرجال العزل والنساء والاطفال الابرياء بيد القوات الاستعمارية يظهر حركتنا على وجهها الحقيقي وهو اننا نقوم بالدفاع عن مواطنينا والانتقام لهم، كما يضع في أيدينا المبررات اللازمة للرد على العدوان بالعدوان.

ولا يجب أن يفهم من هذا القول أننا كنا نشجع هذه المظاهرات أو نسوق المدنيين العزل لمواجهة رصاص الإنجليز فذلك لم يخطر على بالنا، ولكن أما وقد فعلها الإنجليز وقدموا لنا هذا

السلاح طائعين مختارين فيجب أن لا نضيع وقتنا في البكاء على الجرحى والشهداء، وإنما يجب أن ينحصر واجبنا في استغلال الجرائم والإفادة منها على أوسع نطاق، وقد فعلنا ذلك، وانطلق دعاتنا في مدن القطر المصري وقراه وجاسوا خلاله طولاً وعرضاً يصفون للسكان في كل مكان وحشية الإنجليز وبربريتهم ويدعون الشباب للتطوع في المقاومة السرية، ولست أنكر أن هذه الحملة كان فيها بعض المبالغة الضرورية جداً لتعبئة الشعور العام وتهيئة الجو الثوري المنشود!

لقد كنت أسمع أحياناً من بعض المثاليين وغلاة المتدينين أن الدعاية ضد الاعداء يجب أن تعتمد على الحقائق وحدها ويجب ألا يكون فيها أدنى مبالغة أو خيال، والواقع أنني لم أجد في الدين ما يسند هذا الرأي ولا زلت أرى مثل هذه الفكرة المثالية المضحكة كانت جديرة بأن تعرض حركاتنا للفشل التام وأن تؤدي إلى انفصام خطير بين جماهير الشعب وجنود المقاومة، وقد يصح هذا القول لو كانت الحرب تدور بيننا وبين قوم شرفاء ويقدرون العدالة والصدق، ولو كان الإنجليز من بين هؤلاء لما كنا في حاجة لمحاربتهم بل لما جاءوا إلى بلدنا على الاطلاق!

لم يكن الغرض من مؤتمر الاسماعلية الذى توافد إليه مندوبون من كافة الانحاء كما حضره مندوبون عن القيادة المركزية في القاهرة هو البحث فيما إذا كنا سنبدأ القتال ضد الإنجليز أم لا، فإن فكرة القتال ضد الإنجليز كانت مقررة قبل وقت طويل. والذين تابعوا حركة الاخوان المسلمين في نضالها ضد الانجليز يذكرون ولا شك انها بدأت تحاربهم على نطاق ضيق قبل ذلك التاريخ بست سنوات وطالما اغتال اتباعها الجنود البريطانيين في القاهرة والاسكندرية قبل جلائهم عن مدن القطر، وكذلك في منطقة القناة حين انتقلت الجيوش اليها بمقتضى المعاهدة الملغاة. وكان الاخوان يقاتلون الانجليز ويعرضون شبابهم للاعدام والسجن حين كانت الحكومة المصرية تجعل من نفسها حامية لافراد الجيش المحتل، فكيف إذا ساقت الظروف حكومة مصر القائمة في ذلك الحين في صف واحد مع الشعب. انها لفرصة نادرة لا يضيعها الاخوان المسلمون وان عليهم الآن ان يضربوا الانجليز في اوكارهم وان يحرجوا الحكومة المترددة أيضاً ويدفعوا بها إلى ساحة الحرب راضية أو كارهة!

واذن فقد كان اعضاء المؤتمر يعلمون ذلك ولم يكن أمامهم في الحقيقة إلا ان يقرروا متى يحاربون وكيف يحاربون؟

لقد دارت ابحاث كثيرة خلال الجلسات التي استغرقت ثلاثة أيام والقى فيها كل

مندوب تقريراً وافياً يحتوي على ارقام دقيقة عن الرجال المدربين في منطقته أو الذين يمكن حشدهم وتدريبهم، وعن كميات الأسلحة والذخائر والتموين الموجودة في حوزتهم أو التي يمكن توفيرها بعد ذلك، وغير ذلك من الامور الفنية والادارية المتعلقة بالحركة الجديدة. وقبل ان ينفرط عقد المؤتمر أكد الحاضرون ضرورة اختيار قائد للحركة. وبعد تداول قصير طلب الحاضرون مني أن أتولى هذه المهمة. وقد تصورت خطورة المسئولية وثقلها في تلك الظروف المضطربة فحاولت الرفض، ولكنهم ألحوا مؤكدين انهم سيضعون تحت تصرفي كل ما لديهم من الامكانيات وانهم سيعاونونني باخلاص وتفان. وقد قبلت هذا التأكيد، والحق أنني لم أندم يوماً ما على هذه النتيجة فان العلاقات الوثيقة التي تولدت خلال المؤتمر بين هذه المجموعة المؤمنة ظلت طوال أيام المعركة وما بعدها تزداد رسوخاً وتفرض نفسها على جميع الظروف والتيارات المعاكسة.

٤ ـ الحصار وحرب الأعصاب

أهمية القاعدة

لكي ندرك اهمية حركة الحصار والمقاطعة التي شنها المصر يون ضد البر يطانيين في القناة ينبغي ان نؤكد مرة أخرى أهمية القاعدة بالنسبة لبر يطانيا، والميزات التي كان لا بد من توفرها في هذة القاعدة لتبقى محققة للاهداف التي انشئت من أجلها.

إن اختيار قاعدة حر بية يخضع لكثير من الاعتبارات الاستراتيجية والإدار ية، ولا يمكن اعتبارها قاعدة صالحة إلا إذا توفرت فيها خصائص مميزة معينة. واختيار قاعدة لجيش كبير يتطلب توفر المز يد من هذه الخصائص والمميزات، أما اختيار قاعدة للجيش البر يطاني في الشرق الأوسط، حيث تقوم المصالح الحيو ية للامبراطور ية البر يطانية، وتقوم المواصلات البر ية والبحر ية التي تربط بين أجزاء الامبراطور ية ومستعمراتها الكثيرة فأمر يحتاج إلى دراسات ومفاضلات كثيرة قبل أن يتقرر كما لا يمكن أن يتوفر في كل منطقة.

إن من المسلم به عند العسكر يين، أن تكون القاعدة في أرض صالحة يسهل الدفاع عنها كما يسهل الانطلاق منها إلى جهات أخرى، وأقل ما يلزم لتوفر هذا المعنى ألا تكون القوات المرابطة فيها في وضع يلزمها بالدفاع عن نفسها أمام عدو يعيش في نفس المنطقة، فإذا وقع ذلك فإن تلك القاعدة تفقد اكبر خصائصها، و بالتالي تفقد أهميتها تلقائياً. و ينبغي أن تكون القاعدة أيضاً في منطقة غنية تتوفر فيها المياه والمواد الغذائية الضرور ية حتى تتأمن حاجات الجنود المقيمين فيها، فإذا كانت القاعدة كما قلنا لجيش كبير كالجيش البر يطاني، وكان الغرض منها هو استيعاب عدد هائل من الجنود بما يلزمهم من معدات وتجهيزات حتى تتمكن بر يطانيا بواسطتهم من حماية مصالحها الحيو ية، وفرض إرادتها على بلاد الشرق الأوسط كله فقد أصبح من الضروري أن يضاف إلى ما ذكرناه أن القاعدة المختارة في منطقة تكثر فيها الأيدي العاملة لإدارة المصانع والمعامل التي يجب أن تقوم لإمداد هذا الجيش الكبير.

ولقد توفرت لمنطقة القناة خصائص عظيمة لايمكن أن تتوفر لغيرها فهي تقوم على طرف وادي النيل الخصيب الغني بمياهه وموارده الزراعية وفيها مئات الألوف من العمال اللازمين لإدارة القاعدة والذين تصل أجورهم إلى درجة من الإنخفاض لا يمكن أن توجد في مناطق كثيرة من العالم، ولا شك أن من بين العوامل التي أدت لاختيار هذة للقاعدة الكبرى وقوعها على قناة السو يس، شر يان الامبراطور ية وصلة الوصل بين أجزائها، كما تقع بين مدخلين عظيمين من

مداخل المواصلات البحرية وهما البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط، يضاف إلى ذلك أيضاً أن القاعدة تختبىء وراء درع صخري عظيم يشكل مانعاً عنيداً أمام احتمالات الغزو من جهة الشرق ونعني به صحراء سيناء الوعرة ذات الجبال التي يصعب اجتيازها، والتي أثبتت أهميتها الكبرى خلال الحرب العالمية الاولى حين ارهقت الجيش التركي الزاحف إلى قناة السويس، واستنفدت قواه بين جبالها الشاهقة ووديانها القاحلة حتى تمكنت الجيوش البريطانية المرابطة في القناة من تدميره والقضاء عليه قضاءً مبرما.

تلك هي مجمل الخصائص التي توفرت في منطقة القناة وجعلت منها قاعدة صالحة لقوات الامبراطورية، وهي كما ترى خصائص طبيعية محلية وليست مجلوبة، كما انها خصائص لا يمكن بقاؤها إلا إذا توفر تعاون عميق يقوم على الثقة بين البريطانيين وجيرانهم من المصريين. فاذا تصورنا ذلك كله أمكننا أن ندرك خطورة الدور الذى يمكن أن يلعبه المصريون في معركتنا إذا قاطعوا القاعدة ورفضوا العمل فيها، والدور الخطير الذى يمكن أن يقوم به الفلاحون والتجار إذا رفضوا التعامل مع القوات المحتلة، وقطعوا عنها المواد التموينية الضرورية.

إن معركتنا مع الغاصبين تقوم على أساسين، هما المقاطعة وحرب العصابات، ولقد قام عمالنا وتجارنا الوطنيون بدورهم خير قيام فأكسبونا نصف المعركة دون أى عناء، ولست أغالي إذا قلت ان نصيبهم منها كان هو النصف الأهم في تلك المعركة.

انقطاع العمال

كان من أهم القضايا التي واجهتنا أثناء مؤتمر الاسماعيلية قضية العمال المصريين، وإمكانية السيطرة عليهم وحشدهم في صفوف الحركة ولم تكن المشكلة الوحيدة هي إقناعهم بترك العمل في وقت معين، ولكن برزت أثناء ذلك مشاكل كثيرة تتصل بهذه القضية، فلكي أطلب من عامل أن يترك عمله يجب أن أطرح على نفسي بعض الأسئلة وأعد لها أجوبتها، من اين سيأكل؟ وما هي المدة التي يمكن ان يقضيها عاطلاً عن العمل؟ ـ ولقد كانت اسئلة معقدة بالنسبة الينا، ذلك لاننا لا نملك سلطة على دوائر الحكومة والشركات الوطنية لكي تحتضن هؤلاء العمال وتجد لهم مجالاً عندها، كما اننا لم نكن نملك مالاً ننفق منه على هذا الجيش من العمال وعائلاتهم، ولكننا قررنا ان نأخذ القضية على مراحل،

والمرحلة الأولى والأهم بلا شك، هي ضمان السيطرة على العمال وتوجيههم، وقد أخذنا على عاتقنا مباشرة هذه المرحلة. كما تكشف لنا في أثناء البحث ان مدى سيطرتنا على فئات العمال ليست قليلة حتى ذلك الحين بفضل الجهود التي بذلها يوسف طلعت واخوانه، ولم يكن أمامنا إلا ادخال بعض التحسينات على الوضع القائم فعلاً.

أما المرحلة الثانية فهي ضرورة القيام باتصالات مع الحكومة المصرية ومواجهتها بضغط شعبي لتكون مستعدة لاستقبال هؤلاء العمال متى تركوا أعمالهم، وقد حمل الشيخ فرغلي بوصفه رئيس المؤتمر هذا القرار إلى مكتب الارشاد العام في القاهرة، وكان مركزه الكبير في الجماعة كعضو في مكتب الارشاد ورئيس إداري لمنطقة القناة يمكنه من متابعة هذه القضية والتماس الحلول لها. وكانت أول بادرة تنفيذية لهذا القرار هي اتصالات سريعة بين المسؤولين عندنا وبين رجال الحكومة، إلا أن تردد الحكومة في هذه القضية اضطر الإخوان بعد ذلك إلى تنظيم مظاهرات شعبية كان بعض مطالبها منع العمال المصريين من العمل في المعسكرات وتوفير الاعمال اللازمة لهم!

على اننا حين كنا نناقش قضية العمال في مؤتمر الاسماعيلية والاجتماعات التي تبعته، لم يكن يغيب عن بالنا ما سيتعرض له العمال من المتاعب، فقد كنا لا نجهل عجز الحكومة عن ايوائهم جميعاً، كما ان المرتبات الكبيرة نسبياً التي كانوا يتقاضونها من الانجليز ليس من السهل توفيرها من ميزانية الحكومة، هذا مع التفاوت الكبير في طبيعة الاعمال نفسها. فقد كان العمل في معسكرات الانجليز ومصانعهم مريحاً إذا قيس بالعمل في مصالح الحكومة الوطنية، غير أننا لم نلق بالاً لهذه الفروق واعتبرناها جزءاً من الضريبة المعقولة التي يجب ان يدفعها العمال لحركتهم الوطنية. ذلك، لأن الشعوب التي تجعل الحرية والكرامة نصب أعينها لا تبالي بالتضحيات مهما عظمت، وليس دورنا نحن ان نتلافى تماماً ما عسى ان تجره الحركة المسلحة من المتاعب والآلام، ولكن ان نعمل على تخفيفها جهد الامكان.
وقد ثبت لنا بعد أيام قلائل ان وطنية العمال والفلاحين كانت أقوى بكثير مما تصورنا فلم تكد المصادمات المسلحة تبدأ ونجد من الضروري ايقاف الحركة العمالية في القاعدة حتى استجابوا لنا بالالوف وبدأ العمال يهجرون مدن القناة ومعهم عائلاتهم وأطفالهم في اتجاه الريف المصري.

لقد كانت ضربة ناجحة حقاً! وكان اروع ما فيها انها تمت فجأة ودون مقدمات. ونظر الضباط الانجليز ذات يوم من أيام نوفمبر فاذا قاعدتهم ساكنة هامدة يغطيها صمت المقابر وإذا هي لا يسمع فيها صوت، والمصانع ذات المداخن العالية والآلات الضخمة التي كانت تملأ المنطقة بهدير قوي قد صمتت هي الأخرى، والمطابخ التي كان الجنود الانجليز المدللون يذهبون اليها أثناء وجبات الطعام، ليجدوا الصناع المصريين قد أعدوا لهم ما لذ وطاب، تتناثر فيها الاقذار هنا وهناك، وليس فيها من احد إلا الكلاب والقطط الضالة الجائعة!

ولقد رأيت في ذلك اليوم مئات العمال يذرعون شوارع المدن ويملأون المقاهي، كما رأيت وأنا أقف مع بعض ضباطنا عند نقطة للمرور بالقرب من التل الكبير ـ حيث تقوم آخر مراكز العدو ـ المئات من العمال بنسائهم وأطفالهم وأمتعتهم يتدفقون إلى داخل القطر على عربات تجرها البهائم أو في سيارات شحن كبيرة وهم ينشدون أناشيدهم الريفية الحماسية، فهزني ذلك المنظر من الاعماق وقلت لنفسي: ان امة تكون طبقاتها الكادحة على هذه الدرجة من الوعي والاستعداد للتضحية لأمة جديرة بألا تغلب، وقلت لمن حولي من ضباطنا: «لقد أوقع هؤلاء العمال خصومكم في مشكلة كبرى وعليكم الآن ان تزيدوا من حراجة الموقف بالنسبة للعدو بغارات قوية وقد ضحكوا حين قلت لهم انني اتصور الآن صديقكم ـ ارسكين ـ مشغولاً بغسل اواني مطبخه بنفسه، وليس لديه وقت لاعداد الحملات ضدنا!»

ولكني شعرت بعد ذلك انني كنت مغالياً، فان هؤلاء الانجليز كالقطة ذات السبعة الأرواح، كما يقول المثل العامي عندنا، وليسوا من النوع الذي يستسلم بسرعة!

اجراء بريطاني معاكس وبعثة «راو»

لم يلبث الانجليز أن استردوا رشدهم بعد هذه الضربة القوية، فأخذوا يحاصرون معسكرات العمال القريبة منهم ويتصيدونهم في القرى ويسوقونهم تحت السلاح لاداء أعمالهم في الورش والمصانع. وقد استطاعوا بهذه الحركة الفجائية العنيفة ان يرهبوا قلة من العمال، وبالتالي ان يعيدوا شيئاً من الحياة والحركة لقاعدتهم. ولكن هذه الحركة لم تنقص

شيئاً من النصر الذي أحرزناه فان الانجليز ادركوا من اليوم الاول اننا ربحنا معركة العمال تماماً، ولا سبيل للمكابرة في هذه الحقيقة، وكانوا يدركون أيضاً أن سوق العمال بالسلاح أمر لا يمكن ان يدوم وإذا دام فسيكلفهم أن يضيعوا جندياً بكامل سلاحه وراء كل عامل مصري. فلم يلبثوا أن تهاونوا في الأمر وسلموا بالهزيمة. وفي فترة أقل من الشهر عاد العمال يتفلتون من المعسكرات و يلوذون بالفرار!

لقد كان الإجراء البر يطاني إجراء خاطئاً من بداية، ومع أنه لم يكن عملياً فقد أكسبهم مز يداً من العداوة في أوساط العمال، كما انه اساء لسمعتهم حين نشرنا في مختلف الصحف، وتناقلت ما نشرناه مصادر الاخبار ان الانجليز يطبقون نظام السخرة في المعسكرات، و يكرهون العمال على العمل تحت القوة والإرهاب. لقد خسر الإنجليز تلك الجولة كما قلنا ولم تنفعهم مكابرتهم فيها، ولم يكن إجراؤهم العنيف في الواقع إلا محاولة يائسة، ولكمة أخيرة كتلك التي يسددها الملاكم المهزوم في الهواء قبل ان يتهاوى على ركبتيه و يستسلم للاغماء!

ولقد أدت الحملة التي شنتها صحافتنا على الإنجليز بسبب ما أسمته بالخطة البر بر ية ضد العمال الأبر ياء، والاحتجاجات الشديدة التي تقدمت بها الحكومة إلى بر يطانيا ومكتب العمل الدولي، أدى ذلك كله إلى تحر يك الرأى العام العالمي. ووجهت اتحادات العمال في أماكن مختلفة من العالم نقداً شديداً للحكومة البر يطانية على خطتها التعسفية حتى اضطر مكتب العمل الدولي إلى إيفاد بعثة برئاسة المستر «راجونات راو» للتحقيق في هذه القضية. ولقد تجولت هذه البعثة في المعسكرات واستمعت إلى شهادات العمال، ولكن الواقع ان هذه البعثة حين جاءت إلى مصر كانت القبضة البر يطانية على العمال قد تراخت وبدؤوا يعاودون هجرة اعمالهم، وهكذا لم تجد البعثة قضية تحقق فيها!

ولقد حاولت القيادة البر يطانية ان تعالج مشكلة العمال ببعض اجراءات وقتية، كأن تفرض على جنودها القيام بالاعمال اليدو ية في المعامل والمخازن، وأن تجلب العمال الاجانب من شرق افر يقيا وجنوبها ولكن هذه الاجراءات أيضاً لم تؤد إلى نتيجة ايجابية ناجحة، كما ان انشغال الجنود بهذه الاعمال أثر على واجباتهم الاصلية في الحراسة والتدر يب. وحين أخذت غارات المقاومة السر ية تزداد عنفاً سحبت القيادة هؤلاء الجنود ووضعتهم في المراكز الدفاعية، كما انها اضطرت بعد ذلك إلى جلب المز يد من القوات من

قبرص وشرق الأردن. أما العمال الأفريقيون فرغم أنهم استطاعوا ملء بعض الفراغ الذي خلفه المصريون فيما يختص بالاعمال العادية، فان الفراغ الفني بقي شاغراً لا يملؤه احد وكان واضحاً ان استجلاب آلاف العمال من بلاد بعيدة يكبد أموالاً طائلة للخزينة البريطانية، ولم يلبث هؤلاء العمال ان كثرت بينهم الاضطرابات بسبب مطالبهم الخاصة برفع الاجور، وحقهم في اجازات طويلة لزيارة أهليهم، كما كثرت بينهم حوادث الفرار حين وجدنا من الضروري لسلامة حركتنا ان نخطف أو نقتل بعض هؤلاء العمال، لارهابهم واقناعهم ان بريطانيا لا تستخدمهم كعمال، وانما تحشدهم ليكونوا وقوداً في قتال لا يعنيهم في شيء!

المجاعة في القاعدة

ولما نجحت الخطة فيما يتعلق بالعمال المصريين كان علينا ان نبذل مجهوداً كبيراً لانجاح خطة الحصار، ومنع تدفق المواد الغذائية التي كانت تتسرب كل يوم بمئات الاطنان. وقد كان هناك فرق لا يمكن تجاهله بين العمال من ناحية والتجارة والمقاولات من ناحية ثانية. فقد كان الأمر سهلاً بالنسبة للعامل ان يترك عمله كما رأينا، وان يضحي بمرتبه ومركزه انتظاراً لمرتب آخر يتقاضاه مهما كان قليلاً. أما بالنسبة للتاجر والمقاول فقد كان الأمر يبدو أكثر تعقيداً. فقد كان بعض التجار يشتري مساحات من الأرض المزروعة بالخضروات لحساب الجيش البريطاني، فاذا توقف عن ارسالها خسر الأموال التي دفعها لصاحب الأرض. وكانت عقود التعامل مع الانجليز تقوم على شروط قاسية منها ان يخسر التاجر مبلغ التأمين الذي يدفعه عند توقيع العقد، كما يخسر أيضاً ثمن الكميات التي يكون قد سلمها فعلاً إذا هو توقف عن الارسال. وما يقال عن موردي الخضار يمكن ان يقال مثله عن المقاولين الاخرين الذين يعملون في البناء أو الشحن والتفريغ أو أعمال التنظيف والبيع في داخل المعسكرات أو غير ذلك من الاعمال المختلفة. لقد كانت هذه المشكلة المعقدة تتعلق بمصير الالوف من التجار والزراع، والواقع اننا لم نكن نستطيع ان نفعل شيئاً لهم فإننا -مع تقديرنا الكبير لخسارتهم وعطفنا عليهم- كنا نرى من ناحية أخرى ان مقاطعة البريطانيين

تجاريأ ومنع المواد الغذائية عنهم عمل ذو أهمية قصوى لنجاح حركتنا. وقد حرصنا قبل ان نطبق خطة الحصار ان نجري احصاء شاملاً لهؤلاء التجار، وان نجري اتصالاً سرياً بهم نحذرهم فيه من استمرار تعاملهم مع الانجليز، ونحثهم على انقاذ أموالهم وتصفية حساباتهم والاستعداد لتنفيذ الحصار. وكنا نتصور مقدار الخسارة التي ستصيب هؤلاء المواطنين المخلصين، ولكنك كثيراً ما تختار أمراً بغيضاً إلى نفسك إذا كان عليك ان تختار بينه وبين أمر آخر يتعلق بمصير وطنك، وبمصير قضية حيوية كتلك التي كنا نحارب من أجلها. ولذلك لم ينقض أكثر من اسبوعين وهي المدة التي حددناها لتنفيذ الحصار، حتى وجهنا نداءاً إلى التجار والمزارعين والمقاولين ندعوهم فيه إلى مقاطعة الانجليز، ونهدد باعتبار كل من يتعامل مع العدو بعد ذلك خائناً لقضية الوطن متعاوناً مع الأعداء. وقد كان هذا النداء هو موضوع خطب الجمعة في المساجد وموضوع احاديث ومحاضرات انطلق بها دعاتنا في المدن والقرى. وبعد يومين من هذا النداء أرسلنا جماعات مسلحة صغيرة ترابط على النقط القائمة على الطرق لتمنع سيارات الشحن من الوصول إلى المعسكرات. ولما حاول بعض التجار اقتحام هذه المراكز وتجاهلها صدر الأمر باحراق بعض محتويات السيارات، ولم تقع حوادث الاحراق هذه إلا في حالات نادرة لم تتجاوز ثلاث مرات، ولكنها كانت كافية لاقناع الناس اننا جادون في انذاراتنا، كما أننا مستعدون لتطبيق عقوبات أشد إذا اضطررنا إلى ذلك. وقد آتت هذه الحركة ثمارها المرجوة فانقطع سيل الاغذية عن المعسكرات الانجليزية تماماً، ووقعت المجاعة التي اردناها، ووجدت القيادة البريطانية نفسها في مأزق شديد، يزيد في مرارته عن المأزق الذي وقعت فيه كنتيجة لاضراب العمال، فأخذت تشجع التجار على جلب المواد التموينية وتعرض عليهم عروضاً سخية مغرية. وزادت على ذلك فأرسلت بعض وحداتها لابادة النقط التي اقمناها لمنع اجتياز السيارات، ولكن كل هذه الاجراءات لم تغير من النتيجة شيئاً، فعمدت إلى استخدام وسائلها الخاصة، وأخذت تجلب المواد الغذائية المجففة من الخارج كما أخذت تتلقى شحنات من الخضروات واللحوم من الصومال وأوغنده!

ولم نفاجأ نحن بهذه الاجراءات بل كانت في تقديرنا تماماً، ولم يخامرنا الاعتقاد يوماً ما أننا سنستطيع أن نميت جنود الاحتلال جوعاً، ولكن كان كل ما أردناه سواء في قضية العمال

أو قضية التموين أن نجرد القاعدة البريطانية في القناة من جميع مميزاتها الطبيعية المحلية، وأن نعطل الخصائص الجيدة التي تجعل منها مكاناً آمناً للعدو، وان نقنع الانجليز عملياً ان الجنة الخضراء التي اختاروها لتكون ملاذاً لهم قد هبت عليها عاصفة مجنونة فاقتلعت ثمرها وشجرها وأحالتها إلى صحراء مهلكة يخيم عليها الجوع والحرمان، وكان في تقديرنا دائماً أننا إذا نجحنا في إقناعهم بهذه الحقيقة، فإن استمساكهم بالقاعدة سيقل كثيراً مما يسهل مهمة السياسي المصري المفاوض مستقبلاً. وأستطيع أن أقول الآن وبعد مضي ست سنوات على هذه الحركة أننا أصبنا في ذلك نجاحاً لم نكن نتوقعه، وان جلاء الإنجليز الذي تم بعد ذلك بخمس سنوات من هذه الحوادث كان نتيجة منطقية لهذا الدرس البليغ الذي تلقوه على أيدينا!

٥ ـ نحن والعدو الذي حاربناه

النظام الخاص

حين بدأ الإخوان المسلمون حملتهم على الاستعمار البريطاني وجّه المرشد الشهيد «حسن البنّا» جهده لإنشاء تشكيلات سرّية من الفدائيين، وإعدادها للقيام بأعمال العنف ضد القوات البريطانية وأطلق عليها اسم «النظام الخاص»، وكان يسبق تدريب هؤلاء الرجال وتنظيمهم إعداد روحي كبير يجعلهم دائماً على استعداد لبذل أرواحهم متى اقتضت ذلك مصلحة الوطن والدين. وقد كان جوّ الكبت المخيّم على مصر في ظل السيطرة البريطانية يفرض على هذه التشكيلات أن تنشط في الخفاء وتلوذ بالسرّية المطلقة. وكان الأفراد لا يعرفون بعضهم بعضاً إلا في الحدود كما كان تنظيمهم يجري على أساس «خلايا» صغيرة لا تعرف إحداها شيئاً عن الأخرى.

لقد كان معظم الشباب الذين انخرطوا في معركة قناة السويس التي نؤرّخ لها من جنود هذا النظام الخاص الذي تعب حسن البنّا في إنشائه والسهر عليه وهو النظام الذي عرفته دعاية الحكومة العسكرية بعد أربع سنوات من هذه الأحداث باسم «الجهاز السري» وأسرفت في اتهامه وتشويه مقاصده. وكان من الضروري لحركة كحركتنا أن يكون لديها تشكيلات فدائية تتوفر فيها الشروط التي توفرت في النظام الخاص من دقة التنظيم وروح الفدائية والطاعة التي تجعل صاحبها على استعداد لتنفيذ أي أمر يصدر إليه والتضحية بكل شيء في سبيل الفكرة السامية التي يعمل من أجلها.

لقد كنا في غنى عن إنشاء هذا التنظيم لأنه كان قائماً فعلاً - كما رأيت - قبل ذلك بسنوات، وكان صاحب الفكرة فيه هو المرشد الأول «حسن البنّا» ولم يكن يهدف من ورائه إلى محاربة الحكومات وقلب أنظمة الحكم واغتيال الزعماء كما حاولت الدعاية المغرضة أن تصوره، وإنما كان هدف الرجل الكبير أولاً وآخراً هو إعداد قوة فدائية معدّة لقتال الإنجليز إذا سنحت فرصة مناسبة. ولقد مات حسن البنّا قبل معركة القناة ولم يقدر له أن يشهد الدور الذي لعبه تلامذته، وهكذا المؤمن العظيم يموت وتبقى آثاره تتفاعل وتختلط مع الناس والأيام وتفرض نفسها على الحوادث فرضاً!

انني لا استطيع ان ادعي ان هذا النظام كان على درجة كبيرة من المقدرة والكفاءة

الفنية، فان التدريب بين هؤلاء الشباب ظل يقوم على اساس فردي انعزالي، وفي جو سري مكتوم ينقصه الوضوح والانطلاق، وقد ترتب على هذا الوضع ضعف في الكفاءة العامة لهذه التشكيلات، ذلك لأن الجندي يلزمه التدريب على انواع كثيرة من الاسلحة وان يمارس استعمالها بالذخيرة الحية، كما يجب ان يقوم بالتدريب داخل تشكيلة أكبر حتى تنسجم حركاته مع افراد التشكيل عندما يقومون بواجباتهم، وواضح ان هذا القدر من التدريب الضروري كان مستحيلاً بالنسبة لجنود النظام الخاص حيث يقوم التدريب كما قلنا على اساس فردي ضيق وفي جو من التكتم الشديد بعيداً عن عيون الحكومات وسطوة القوانين.

وحين جاءت حرب فلسطين وذهب بعض جماعات هذا النظام ضمن قوات المتطوعين ظهر عجز هذا التدريب دفعة واحدة حين اصطدموا مع القوات اليهودية المدربة، وكانت الخسائر الكثيرة التي وقعت بينهم في معارك النقب الأولى كافية لاقناعنا بمعاودة تدريبهم على اسس جديدة، وقد كانت الظروف خلال الحرب تسمح طبعاً بالتدريب على اساس جماعي وفي جو من الوضوح المطلق، ولقد ظهرت ثمار هذا التدريب بعد ذلك بوقت قصير حين اشتبكوا مع القوات اليهودية في سلسلة من المعارك دون أن تقع بينهم خسائر كبيرة إذا قيست بخسائر العدو. لقد حنكتهم التجربة ولم يعودوا مجموعة من الشباب المتحمسين الاغرار!

وحين عادت هذه المجموعات المدربة إلى مصر بعد الحملة انتقل النظام نقلة كبيرة حين انتظموا فيه وأخذوا يدربون شباباً كثير ين غيرهم و ينقلون إليهم خبرتهم ودراساتهم التي اكتسبوها خلال الحرب.

معسكرات التدريب

كان هناك المئات من هؤلاء الشباب يقيمون في مدن الشرقية والقناة،وكان هناك مئات غيرهم ينتظمهم الجهاز الخاص ولكن ينقصهم التدريب، ولذلك اتجة تفكيرنا من البداية إلى إقامة مراكز للتدريب في منطقة الشرقية وفي بعض المناطق الداخلية الأخرى، وكان الهدف من هذه المركز هو اعادة تدريب جميع رجالنا الذين سبق لهم الاشتراك في حرب فلسطين، ثم الانتقال بعد ذلك إلى تدريب الشباب الجدد الذين ينضمون إلى قوى

الحركة، وقد قامت على الاثر عدة مراكز للتدريب كان أهمها في اقليم الشرقية، وقد ساعد وجود بعض الاخوان من ملاك الاراضي الواسعة على اقامة معسكرات نموذجية كالمعسكر الذي أقمناه في مزرعة«الحاج ابراهيم نجم» على مقربة من فاقوس وجلبنا اليه كميات متنوعة من الاسلحة والذخائر، وكان المشرفون على تدريب الشباب نخبة من ضباط المتطوعين الذين برزوا خلال حملة فلسطين واكتسبوا خبرة في التدريب أمثال «محمد علي سليم» و«عبد العزيز علي» وغيرهم، وحين اتسع نطاق العمل بعد ذلك أقنا معسكرات مماثلة في المناطق القريبة، ولا شك أن موقف الحكومة ساعد كثيراً على نجاح حركة التدريب، ولو أرادت أن تمنع هذه الحركة لفعلت، فلقد كان من الأمور المألوفة أن يسمع الفلاحون أصوات القذائف النارية ودوي الانفجارات تنبعث كل يوم من أرض التدريب، وأن يشاهدوا مئات من الشباب يتسلقون الحواجز و يثبون فوق المصارف، ولقد كان يحدث أن يشكو الفلاحون إلى مراكز البوليس القريبة، وقد علمت بعد ذلك أن ضباط البوليس كانوا يبلغون هذه الشكاوى إلى وزارة الداخلية ولكن الوزارة لم تحقق في أية واحدة منها!

لقد هيأ لنا وجهاء الشرقية وملاك الاراضي فيها فرصة لا تقدر حين منحونا مزارعهم و بيوتهم الريفية لنستغلها للتدريب كما بذلوا لنا وللوطن صنيعاً كريماً حين سمحوا لرجالنا بأخذ الجزء الأكبر مما كانت تدره اراضيهم من البقول والخضروات لتموين هذه المجموعات الكبيرة، فوفروا علينا بهذا جهداً كبيراً وأموالاً طائلة، وهو جهد يجب ان يذكر لهؤلاء المواطنين بالشكر والتقدير. ولولا هذه المعونة القيمة لما استطاعت هذه المراكز التدريبية ان تحقق رسالتها ولما تمكنت من تطعيم الحركة بألوف الشباب الذين مروا خلالها.

كتائب الجامعات والازهر

كان رد الفعل المباشر لاشتباكات القناة أن غمرت البلاد موجة من الحماس، وخصوصاً في أوساط الطلاب والجامعيين. وقد كنا نحرص على الإفادة من هذا الحماس وترتيبه في حركة منظمة، فأخذنا نرسل بعض جثث الشهداء من رجال المقاومة الذين بدؤوا يتساقطون من مختلف المناطق إلى القاهرة وعواصم الأقاليم ليعرضوا على الجماهير هناك

ويحملهم المتظاهرون الهائجون في الشوارع قبل أن يواروهم التراب.

ولقد تبنى طلاب الاخوان الجامعيون فكرة تدريب الطلاب وإعدادهم في منظمات عسكرية وإيفادهم لميدان المعركة ودارت اتصالات طويلة بين ممثلي الحكومة وبين «حسن دوح» زعيم طلاب جامعة القاهرة في ذلك الحين وأحد ضباطنا في حملة فلسطين، ولكن الحكومة أخذت تماطل في تنفيذ الفكرة ولاتحسم فيها برأي، وحاولت أن تبدد الشعور الوطني بمناورات وإجراءات، فعمدت إلى تشكيل لجنة عسكرية، قالت انها ستتولى التدريب وعينت لها كبار الضباط ذوي السمعة الحسنة والماضي الوطني الناصع من أمثال عزيزالمصري والمواوي وصالح حرب، وأعلنت أنها اعتمدت مبلغ مئة الف جنية مصري لهذا الغرض، ولكنها لم تتقدم خطوة أخرى بعد ذلك كما لم تستجب للطلبات التي تقدم بها هؤلاء الضباط لإنشاء مراكز لتسجيل المتطوعين. ولم يلبث هؤلاء الضباط الكبار أن أدركوا أنهم وضعوا لاداء دور معين هو تبديد الطاقة الثورية وتجميد الحركة. فقدم بعضهم استقالاتهم وبذلك انحلت اللجنة العسكرية العليا تلقائيا دون أن تفعل شيئاً يذكر!

وأمام ما بدا من تراخ في موقف الحكومة وميلها إلى المراوغة لم يجد شباب الجامعات بدأ من أخذ زمام الموقف في أيديهم، فأنشؤوا معسكرات التدريب في الجامعة وجلبوا إليها الاسلحة ومعدات التدريب، كما جلبوا المدربين الاكفاء من المحاربين القدماء ومن ضباط المتطوعين في الحملة الفلسطينية واحياناً من ضباط الجيش العامل الذين كانوا يتطوعون خفية للمساهمة في هذا العمل الوطني. وقد ساعد على نجاح هذة الحركة التأييد العظيم الذي لاقاه الطلاب من مدير الجامعة حينذاك الدكتور عبد الوهاب مورو، فقد كان هذا الوطني المخلص يعتمد لهم المال سراً من ميزانية الجامعة، ويقف بقوة امام المحاولات التي قامت بها الحكومة لحل هذه المعسكرات وايقاف حركة التدريب فيها.

ولقد أدى نجاح معسكر التدريب في جامعة القاهرة الذي اقيم باشراف حسن دوح ومساعديه نفيس حمدى وعلي رياض، إلى قيام معسكرات مماثلة في كل من جامعة ابراهيم والجامعة الأزهرية. ولقد جئت القاهرة خصيصاً لزيارة هذه المعسكرات، وكان منظراً يبعث على الاعتزاز، منظر اولئك الطلاب يرتدون ملابس التدريب بعد يوم حافل في

الدراسة والامتحانات، و ينقطعون عن بيوتهم خلال اسابيع عديدة حتى يوفروا لانفسهم الوقت الكافي للتدريب، وكان يتداول قيادة معسكر جامعة ابراهيم شابان من خيرة شبابنا هما محمد مهدي عاكف ووائل شاهين. وقد كان لجهدهم أثر حميد في الوصول بوحدة جامعة ابراهيم إلى درجة جيدة من الكفاءة.

وفي ساحة الجامعة الازهرية حيث يخيم جو من الوقار تفرضه الدراسة الدينية، كما يفرضه الشيوخ والعلماء كنت ترى شباب الأزهر يخلعون ملابسهم الفضفاضة ويهرعون إلى ساحات التدريب في صفوف منتظمة يتقدمهم قادة مؤمنون، مزجوا الفكرة الدينية بالوطنية السليمة وجعلوا الايمان بالله دافعاً لحب الوطن والتفاني في خدمته، من امثال يوسف القرضاوي ومناع قطان وغيرهم.

ان الظروف الحاضرة المفروضة علي تمنعني من الاتصال بهؤلاء الشباب الأبطال كما تحول بيني وبينهم لدرجة لا أعرف معها أين يقيمون ولا ماذا يعملون، ولكنني استشعر كل معاني التقدير والاجلال كلما ذكرت هؤلاء الذين وردت اسماؤهم في السياق وألوفاً غيرهم لا تستطيع الذاكرة ان تستوعب اسماءهم بعد مضي هذا الزمن، ولكن ماذا يضيرهم ان انساهم أو ينساهم الناس جميعاً ما دام الله يذكرهم في ملأ عنده كمجاهدين شرفاء ابلوا في سبيل وطنهم احسن البلاء، وما دام الوطن سيظل يذكرهم كلما ذكر تلك المعركة المجيدة التي أدت إلى زعزعة الاحتلال وقادتة في النهاية إلى التسليم بالجلاء!

محاولات الشيوعية!

قلنا ان الحكومة الوفدية وقفت موقف المعارضة من تدريب الجامعيين ولكنها أحجمت عن اتخاذ أي اجراء حاسم مخافة الصدام مع الرأي العام الذي كان في ذروة حماسه وغليانه، غير ان العقبات لم تقف عند حد معارضة الحكومة بل واجهت طلابنا في الجامعة معارضة قوية من الطلاب الشيوعيين الذين أخذوا يتحينون الفرص لتشويه هذه الحركة الوطنية وإشاعة أسباب الخلاف بين جماهير الطلاب، ويفتعلون حوادث العنف حتى يبرروا للحكومة التدخل لحل معسكرات التدريب. كانوا ينظرون للحركة نظرة حزبية ضيقة وقد

ساءهم ان يتزعم الاخوان الحركة الوطنية وان يجمعوا الطلاب حول المعركة المسلحة، وفي مرات كثيرة كاد يؤدي موقف الشيوعيين المناهض للحركة إلى صدام عنيف بين الطلاب في حرم الجامعة لولا ان فطن الاخوان للخطة الشيوعية فتذرعوا بالصبر والاناة وحرصوا على تجنيب البلاد شر الخلاف في تلك الظروف الدقيقة،وكان لهذا الموقف الحكيم من جانب الإخوان أثره في دوام التدريب واتساع نطاقه وفي تشكيل الوحدات الجامعية التي اشتركت بعد ذلك في المعركة، وكان لها دور بارز في العمليات.

وقد اشادت الهيئات الوطنية والصحف بموقف الاخوان وعدته انتصاراً عظيماً لمعركة القناة. وكتبت مجلة المصور المعروفة تقول «كان للاخوان المسلمين الفضل الأكبر في تهدئة الحالة الشاذة في الجامعة، وقد كان لسان حالهم يقول لزملائهم الذين احدثوا الحوادث ان هناك معركة في القناة فهلموا إليها بدل معارك الداخل هنا. وقد كان لهذا الكلام أثره الفعال في نفوس الزملاء فكان الهدوء وكان الاتجاه للقتال ثم كانت غمزة بارعة من الإخوان المسلمين ترمز إلى مدى تأثيرهم في تحول التيار»!

جماعات اخرى

لم يكن من السهل أن نخلي ميدان المعركة من جماعات أخرى كانت تعمل دون التزام لخطتنا أو خضوع لقيادتنا الموحدة، كما كان من الخطر ان نترك هذه الجماعات تعمل دون اتفاق، لما يجره ذلك من تناقض واضطراب، وكان بعض هذه الجماعات يعمل بدافع وطني فردي .كأن يجتمع بعض الشباب و يشتروا قطع الاسلحة باموالهم الخاصة ثم يذهبوا إلى إحدى مدن القناة أو قرى الشرقية الواقعة على مقربة من مركز العدو، و يبدؤوا في مناوشتها على قدر طاقتهم وعلى الصورة التي يرسمونها لأنفسهم. وكان بعض هذه الجماعات يعمل بدافع حزبي تنظيمي، ولم يكن من هذا الصنف الأخير في الواقع الا جماعة ارسلها الحزب الاشتراكي الذي يرأسه المحامي أحمد حسين: أما النوع الثالث فكان شباباً من العمال العاطلين الذين احترفوا اعمال السرقة من معسكرات الانجليز وانتهزوا فرصة الحماس الوطني فجعلوا من حرفتهم هذه جهاداً وطنياً مشروعاً!

والحق ان مشكلة كبرى واجهتنا من جراء هذا العمل المرتجل. وكان امامنا وسيلتان

للتغلب عليها وهما محاولة التفاهم مع هذه الجماعات الصغيرة وامتصاصها في تشكيلاتنا المنظمة الواسعة، أو القضاء عليها واخراجها من ميدان المعركة مهما كلفنا ذلك من الجهد. ولم يكن في استطاعتنا الا ان نختار الحل الأول مقدرين الدوافع الوطنية السامية التي حركت هؤلاء الشباب والتي حركتنا نحن ايضاً.

إن وحدة القيادة بالنسبة لرجال المقاومة السرية مبدأ بالغ الاهمية وعلى مقدار تحققه تتوقف النتائج النهائية للمعركة، وبدون هذا المبدأ تتحول المقاومة إلى عصابات فوضوية يعارض بعضها بعضاً حتى يقضي عليها العدو في النهاية. ويجب ان يكون مفهوماً ان «وحدة القيادة» تعني شيئاً غير «مركزية القيادة» ان وحدة القيادة امر ضروري لمنع الاضطراب وتحقيق القدر اللازم من التنسيق في العمليات المشتركة بين المناطق المختلفة، ولكن مركزية القيادة، أي تركيز العمل في يد واحدة يقود الحركة كلها إلى الشلل والجمود. وينبغي التسليم بضرورة اعطاء قدر كبير من الاستقلال إلى قواد المناطق، ذلك اننا لا نحارب على جبهات ثابتة كما هو الحال بالنسبة للحروب النظامية ولكننا نحارب عدواً ينتشر على مساحات شاسعة ونعمل ضد أغراض متحركة تبدو حيناً وتختفي حيناً، حيث تعتبر (السرعة) هي العامل المرجح بين الفشل والنجاح.

ومن ذلك يتضح اننا حينما أصررنا على وحدة القيادة لم نكن نتصرف تصرفاً انانياً، ولكننا كنا نحرص على تحقيق مبدأ نراه ضرورياً جداً لنجاح حركتنا. ولم يكن تحقيق هذه الغاية بالأمر الهين في ذلك الحين حيث كانت الدوافع الحزبية تلعب لعبها، وحيث يدعي كل زعيم وكل هيئة انه وحده مبعوث العنايه الآلهية لانقاذ الوطن، وحيث تنعدم السلطة العليا أو الزعامة الكبرى التي ينزل الجميع عند حكمها و يقبلون قيادتها راضين أم كارهين .

إنه لأمر عادي ان تبدو مثل هذه العقبات في الثورات الشعبية، غير انها يجب ان لا تزعج اولئك الذين يتصدون للقيادة، فهي ظاهرة تبدو في المراحل الأولى ثم لا تلبث ان تختفي حينما يترسب الحماس، وتساعد الظروف على بروز الجانب الأصلح والأقوى، وحينذاك، ينضوي الجميع تحت لوائه وتقوم القيادة الواحدة. وكانت تلك هي النظرة التي نظرنا بها إلى هذه القضية حين اصطدمنا بها في اليوم الأول لحركتنا. لقد تركنا لكل منطقة أن تتصرف على ضوء هذا القرار، وبينما استطاع يوسف طلعت بدهائه وحنكته ان يتغلب

على هذه العقبة في منطقة الاسماعلية وان يضم إلى صفه هذه الجماعات و يسخرها للمجهود العام، كما استطاع محمد علي سليم أن يفعل الشيء ذاته في منطقة القنطرة، إلا أن قائدنا في التل الكبير حسن عبد الغني عجز عن تحقيق هذه النتيجة لأن الشرقية كانت مفتوحة على مناطق القطر الداخلية بحيث يستطيع كل انسان ان يدخلها متى شاء، فاستمرت هذه الجماعات تعمل دون خطة وقتاً أطول من غيرها، الأمر الذي اثار المشاكل في وجه رجالنا وعرضهم إلى اخطار كثيرة، حتى انحلت الجماعات تلقائياً حين قتل بعض شبابها ولم تستطع تعو يضهم!

التسلح

لقد وقفت أثناء تجولي في مدن القناة واقليم الشرقية على حقيقة مخيفة، كما تأكدت هذه الحقيقة يقيناً حينما تقدم المندو بون ببياناتهم وارقامهم في مؤتمر الاسماعيلية. والحقيقة هي اننا لم نكن نملك سلاحاً! إلا إذا اعتبرنا بعض الرشاشات والبنادق الصدئة والذخيرة المدفونة في باطن الارض سلاحاً يعتد به في معركة كتلك المعركة!

لقد كنت أومن دائماً ان في حركتنا كل امكانيات التطور والنمو، وإنها إن كانت تبدو قليلة ضعيفة في بدايتها فإن ظروفاً مساعدة كثيرة بعضها داخلي يتصل بشعبنا ووطنيته وايمانه وشجاعته، و بعضها خارجي يتعلق بالعدو ومتاعبه ومشاكله الكثيرة، لقد اعتقدنا ان هذه الظروف ستساعدنا حتماً على تحقيق النصر في النهاية. ولقد كنت أؤمن دائماً ان الحركات الشعبية لا يجب ان تقاس بمقياس مادي بحت والا انتهت قبل أن تبدأ. ولو ان قائد المقاومة الشعبية يسأل نفسة دائماً ماذا عنده وماذا عند العدو من وسائل القوة المادية وحدها فانه لا يستطيع ان يمضي خطوة واحدة في طر يق المعركة. ولكن لديه الايمان والتصميم اللازمان والعزم على استغلال ما عنده مهما كان قليلاً لمقابلة العدو واصابته، وذلك كان مبلغ ايماننا بحركتنا وهو ايمان جعلنا نحمل اسلحتنا الصدئة وذخيرتنا القليلة ونخرج بها في ظروف صعبة لاقتناص الدبابات والمصفحات وقتل الجنود المدججين بالأسلحة والنيران!

حقاً ما أصدق قول القائل «ان الثورة مجنونة» ولو كانت غير ذلك لما فكرنا في قتال الانجليز! انك تكون شجاعاً إذا قابلت المدفع الكبير بمدفع صغير، أو قابلت الدبابة بسيارة صغيرة مصفحة وتكون أكثر شجاعة إذا لم تجد الا بندقية صدئة وعتاداً قليلاً، ولقد كان رجالنا أكثر من شجعان حينما فعلوا ذلك ... كانوا مؤمنين...!

العدو الذي حاربناه

تلك كانت قوتنا عند بداية المعركة، جنود النظام الخاص وكل ميزتهم انهم مؤمنون متحمسون، وانهم منظمون وان كان تدريبهم أقل من المستوى المطلوب وكتائب الجامعات والازهر وعددها قليل وهي أقل في التدريب بلا شك من جنود النظام الخاص، وجماعات أخرى صغيرة متفرقة لا تجمعها قيادة واحدة ولا تخضع لتوجيه موحد. وكان السلاح كما رأيت في ندرته ورداءته .. صحيح اننا استطعنا مع الأيام ان ندخل تحسينات كبيرة على هذا الوضع، فقد اخذت معسكرات التدريب تعمل ليل نهار وتخرج لنا مجموعات مدربة، كما استطعنا أن نضاعف من قوة سلاحنا بطريق الشراء والسطو على مخازن العدو والاستعانة بأصدقائنا من الهيئات والشخصيات كما سيتضح في الفصول القادمة. ولكن النسبة بيننا وبين العدو ظلت نسبة شاسعة لا تخضع لمقياس، هذا نحن! فماذا كان العدو؟

* * *

لقد دلت الدراسات الأولية التي قمنا بها ان العدو يحشد قوات عظيمة في قاعدة القناة تفوق بكثير العدد الذي كان مسموحاً به وفقاً لمعاهدة ١٩٣٦ الملغاة وهو عشرة آلاف جندي. ولم يكن سبب هذه الدراسة اننا كنا نعد أنفسنا لطرده من مناطقه، فذلك هدف خيالي يرتفع فوق آمالنا، ولكننا كنا نريد أن نعرف عدونا معرفة دقيقة، ومن ناحية أخرى كان علينا ان نرقب ما يطرأ على قوته من الزيادة أو النقصان كما نرقب تحركات قواته الضاربة واحتشاداتها، ان من الضروري ان نرقب ذلك كله لأن زيادة قوة العدو في القاعدة وتحرك قوته الضاربة قد يعني شيئاً كثيراً بالنسبة لحركتنا. قد يعني مثلا السيطرة على قواعدنا أو احتلال بعض القرى والكفور التي تنطلق منها عصاباتنا أو غير ذلك، وتحركات قوى العدو

تعطي دلالات قوية عما يدور في اذهان قادته، كما تمنحنا فرصاً عظيمة للعمل ضده كما سيتضح فيما بعد.

تبين لنا قبل بداية الثورة أن قوى العدو موزعة على الشكل التقريبي الآتي:

١) مجموعة لواء مشاة تقدر قوتها بستة آلاف (٦٠٠٠) جندي في التل الكبير.

٢) مجموعة لواء مشاة رئاسته في فايد وكتائبه موزعة بين السويس والاسماعيلية.

٣) كتيبة من اللواء المشاة (سبعة عشر) في بورسعيد.

٤) اللواء المدرع الثقيل.

هذا عدا جنود الاشارة والمهندسين والمهمات والتموين وكانوا يقدرون بسبعة آلاف جندي. أما سلاح الطيران فقد كان هناك سرب من قاذفات القنابل من طراز (لانكستر)، وسرب من المقاتلات الخفيفة عدا ثلاثة اسراب من طائرات النقل من طراز (داكوتا).

لقد كان من الخطأ ان نعتبر ان عدونا الأوحد هو هذه القوات المرابطة في قناة السويس بحيث نضع جميع تقديراتنا السياسية والعسكرية على هذا الاساس، ذلك ان عدونا في الواقع هو بريطانيا العظمى بجيوشها وأساطيلها الهائلة التي تعتبر قوات القناة جزءاً صغيراً من أجزائها، وعدوتنا هي السياسة الاستعمارية الامبراطورية التي تملك من وسائل الدعاية والسيطرة ما تستطيع ان تكيد لنا به في كثير من المجالات الداخلية والخارجية. ولقد كنا على حق في تقديراتنا فلم ينقض إلا شهران على بدء القتال حتى أخذت القيادة البريطانية في القناة تستنجد بوزارة الحرب التي أخذت ترسل لها نجدات عاجلة من الرجال والعتاد، ونشطت حركة النقل الجوي في أواخر شهر نوفمبر نشاطاً ملحوظاً حينما أخذت الطائرات تنقل وحدات من جنود المظلات بينما كانت البواخر الحربية ترسو في البحيرات المرة أو في بورسعيد حيث تنزل كتائب جديدة وكميات كبرى من العتاد، وقد ارتفع عدد القوات البريطانية في أقل من شهرين ارتفاعاً كبيراً حتى وصل إلى ثمانين الف جندي، وفي بداية عام ١٩٥٢ وصل الرقم إلى مئة الف، وكانت الفرقة الأولى والثالثة المشاة قد وصلتا بكامل قواتها كما عززت القوة المدرعة بثلاثة ألوية أخرى وزادت القوة الجوية زيادة كبيرة، ولم يكن ذلك بالأمر الذي يزعجنا بل اعتبرناه نصراً عظيماً للثورة فان تحريك كتل

كبيرة من الجيش البر يطاني بما يلزم هذا التحر يك من خطوط و وسائل نقل وتكاليف مالية باهظة يعتبر ـفوق ما فيه من ارهاق عظيم للعدوـ وسيلة عملية لتأكيد نظر يتنا القائلة ان قاعدة القناة لم تعد قاعدة صالحة لبر يطانيا وهي تعيش في محيط يضمر لها العداء، واذا كان هذا شأنها مع جيرانها المصر يين خلال ايام السلم فكيف سيكون حالها حين تندلع حرب عالمية وتفد الليالي السود الحالكات!

٦ ـ تخطيط المعركة

ماذا نريد؟ وكيف؟

قبل ان نبدأ في إطلاق طلقة واحدة ضد العدو جلسنا في مركز رئاستنا في فاقوس نسأل أنفسنا بكل هدوء هذا السؤال ماذا نريد؟ ولو سألنا هذا السؤال لأي مصري من الشعب الذي يبلغ عدده اثنين وعشرين مليوناً لقال على الفور «جلاء الانجليز» وكان هذا الجواب صحيحاً من وجهة النظر السياسية، ولكننا كنا نعتقد أن هدفنا نحن ينبغي أن يكون أكثر تواضعاً وأكثر تحديداً، لأن اجلاء الانجليز ليس قضية عسكرية فحسب، وإنما هو هدف يجب أن تتضافر فيه عوامل سياسية واقتصادية وعسكرية ليست من عملنا نحن، وليس في ايدينا أية أداة من أدواتها، واذن فقد انتهينا إلى جوابنا نحن على هذا السؤال ينبغي ان يكون على هذه الصورة «مضايقة الانجليز» تاركين للسياسيين بعد ذلك أن يبحثوا في الهدف البعيد بوسائلهم الخاصة.

وربما يرى البعض في هذا القول سفسطة لا موجب لها ما دام الهدف في النهاية هو إجلاء الانجليز، ولكن تحديد الهدف من الحركة المسلحة يساعد على تحديد وسائله وتكتيكاته أيضاً، فان إجلاء العدو عن أرض يحتلها بحركة مسلحة يعني أن تحتل انت هذه الارض وتدافع عنها، وهو ما كنا نتحاشاه دائماً، أما مضايقة العدو فلا تعني شيئاً أكثر من إقلاق راحته وإدخال الاضطراب على خططه وتحركاته وطرق مواصلاته دون أن تكون مضطراً للدفاع عن شيء!

ويأتي بعد ذلك السؤال الثاني، وهو كيف نضايق الانجليز؟ وكانت خطتنا ذات شعبتين اولاً: فرض المقاطعة والحصار، وقد مر بك كيف طبقنا هذا القرار.

ثانياً: القيام بعمليات هجومية تهدف إلى إيقاع الخسائر بالعدو في الأرواح والمعدات.

وعلى هذا الأساس وضعنا لانفسنا قاعدة اعتبرناها مدار خطتنا في المستقبل، وهي أنه ينبغي علينا أن نقوم بغارات خاطفة على العدو كلما سنحت لنا الفرصة دون أن ندخل معه في معركة مكشوفة مهما تكن الأسباب، ولقد التزمنا هذه القاعدة وراعينا تنفيذها بحزم شديد، دون أن نسمح للعواطف أو التهور أن تفسد علينا خطتنا، لقد كنا نصدر أوامر

الانسحاب بمجرد أن يتحقق هدفنا وأحياناً حين لا يتحقق منه إلا جزء قليل، ذلك لأن التجربة علمتنا أن عدم القناعة بالنجاح الكامل يؤدي حتماً إلى الابادة الكاملة!

إن الانسحاب السريع عند البعض شيء قريب من الهزيمة أو دون النصر على الأقل، ولكن يجب أن يكون واضحاً أن الانسحاب السريع بأقل نجاح ممكن يعتبر نصراً كاملاً بالنسبة لرجال المقاومة السرية أو لرجال العصابات مثلنا، وإذا كانت الاستماتة في الدفاع والثبات في المراكز أمراً ضرورياً بالنسبة للجنود النظاميين في بعض الحالات، فإن الأمر يختلف بالنسبة لرجال العصابات، ذلك، لأن الاستماتة في الدفاع والثبات في المراكز ربما تعني في بعض الحالات كارثة محققة، ولقد وقع بعض رجالنا في الخطأ في حالات قليلة. وحين كان الناس يتغنون ببطولتهم وشجاعتهم وتفيض الصحف في إطراء المقاومة الباسلة التي أبدوها كنا نحن نحاسبهم على انهم مخطئون أشد الخطأ!

حرب العصابات

لقد طالما سمعنا أن الأرض المصرية ـ وخاصة منطقة القناة ـ لا تصلح لقتال العصابات، و يبدو لي أن أصحاب هذا الرأي حين كانوا يبحثون في صلاحية الأرض المصرية وعدم صلاحيتها، كانوا يتصورون طبيعة الارض في بلاد أخرى كانت مسرحاً لأنواع نموذجية من حروب العصابات مثل روسيا أو الصين أو الملايو، ولعلهم كانوا يتصورون بخيالهم الجبال الوعرة تغطيها طبقات الجليد والغابات الكثيفة الموحشة، والبحيرات المغطاة إلى مساحات لا يحدها البصر بنبات البوص الكثيف، التي اشتهرت بها تلك الاقطار ثم ينظرون إلى الخريطة على ارضنا السهلة المنبسطة التي تكاد تكون خالية من هذه الميزات ثم يقولون بحسرة: «إن الأرض المصرية لا تصلح لهذا النوع من القتال»!

وإذا نحن اقتنعنا من البداية أن الغرض الذي نسعى اليه إنما هو الاقتراب من العدو إلى درجة يصبح من السهل علينا ان نطلق النار على جنوده أو نبث الالغام في طرق مواصلاته فان حرب العصابات أو الحرب الشعبية يمكن ان تشن في أي أرض وتحت أي ظروف.

ولست أجهل مع ذلك ان طبيعة الارض تفرض على النشاط صورة معينة ومدى معيناً،

بمعنى ان العدو إذا كان يحتل ارضاً مليئة بالغابات المتشابكة فإن ذلك يعطي للعصابات فرصاً أحسن للعمل، كما يمكنها من استخدام قوات أكبر، وكذلك الحال إذا كانت الأرض جبلية وعرة الدروب والمسالك، بينما يختلف الوضع إذا كانت الغابات أقل كثافة والأرض سهلة قليلة السواتر غير أنها لا تصل على كل حال إلى درجة يمكن أن يقال معها إن محاربة العدو أمر مستحيل!

لقد قيل لنا الكثير عن ارض القناة وعدم صلاحيتها قبل أن نبدأ المعركة، ولوأننا كنا من الذين يغيرون خططهم بسهولة و يتنازلون عن أهدافهم بسرعة -إذن- لوقفنا قبل أن نبدأ خطوة واحدة!

إن الأرض المحيطة بالقناة في معظم أجزائها مسطحة، فعلاً، ولكنها في أجزاء أخرى تبدو جبلية وإن كانت أقل وعورة مما نشتهي، كما هي الحال في القطاع الممتد بين جبل عتاقة على خليج السويس ومنطقة فنارة قبل أن تبتعد السلسلة الجبلية في اتجاه الغرب، وتحل محلها أرض زراعية منبسطة، وهي في أجزاء أخرى رملية تغطيها الكثبان «والغرود» كما هي الحال في المنطقة بين القنطرة الغربية وبلدة الصالحية في مديرية الشرقية.

لماذا نفضل الارض الوعرة ذات السواتر والجبال؟ أليس ذلك لحجب الرؤية؟ إذا كان الأمر كذلك فإن ظلام الليل وخاصة في ليالي المحاق كفيل بتحقيق هذا الغرض أيضاً، وليس يطلب منا إلا اختيار «الارض الصالحة» للعمل التي يسهل التعرض للعدو فيها والعودة منها إلى مكان آمن، وكذلك اختيار الوقت الملائم للعملية الذي نتمكن فيه من العودة إلى قواعدنا سالمين!

والعدو لا يستطيع أن يبقى دائماً داخل المعسكرات، إنه عدو يتحرك على خطوط مواصلات وسكك حديدية، ولن يكون من الأمور السارة أن ندمر له هذه الطرق، بل سيلجأ حتماً إلى مهاجمتنا وإبادتنا إذا عرف أين نقيم!، وهذه الفكرة التي تخيف البعض وترتعد لها فرائصهم ينبغي ألا تخيفنا، لأنها من نقط الضعف في الجيش النظامي، بل يجب أن نسعى دائماً لاخراجه من المعسكرات واقناعه بمطاردتنا حتى نصل به إلى الأرض الصالحة للعمل، وهناك فقط يمكننا أن نضربه ضربة شديدة، وإذا رأى أن يستمر في مطاردتنا فإن فرصة ذهبية تسنح لنا إذا كان رجالنا يحسنون زرع الألغام وإقامة الشراك الخداعية!

وهكذا ... تبين لنا بأن منطقة القناة تصلح أيضاً لعملياتنا المقبلة، وأن القول بأنها لا تصلح قول تنقصه الدقة ويمليه أن البعض مولعون بتخيل ما يقرأونه في الكتب قائما على الطبيعة، فإذا لم يتحقق لهم ذلك قامت في أذهانهم نظرية سلبية خاطئة هي «كل شيء أو لا شيء»!

العمل بين خطتين

حين اجتمعنا مع قادة مناطقنا في فاقوس بعد مؤتمر الاسماعيلية الذي أشرت اليه كان علينا أن نختار بين خطتين للعمل، الأولى: ان نعمل في جميع المناطق التي يحتلها العدو بحيث نضربه في السويس وبور سعيد والتل الكبير وفي جميع القرى الواقعة بينها مرة واحدة.

والثانية: أن نعمل ضد واجهة العدو في مديرية الشرقية وحدها، وكان أصحاب الرأي الثاني يبنون رأيهم على نقطتين هامتين:

١) إن انطلاق جماعاتنا من قواعدها في الشرقية يسمح لها بضرب العدو والعودة إلى مناطق الأمن دون التعرض للخسائر، فضلاً عن سهولة إمدادهم بالطعام والعتاد.

٢) إن العمل في داخل مدن القناة سيجعل العدو يضرب المدنيين دون تفرقة و يعرض ألوف السكان هناك إلى التضييق والحصار.

ولما كنت أنا قد وضعت تخطيط النظرية الأولى فقد لخصت دفاعي عنها فيما يلي:

أ) إن ضرب العدو في المناطق الداخلية يحتم عليه أن يضع إجراءات دفاعية خاصة لكل منطقة، مما يزيد في إرهاقه ولا يتحقق الذعر المطلوب إلا بأن يتوقع كل معسكر من معسكرات العدو أنه سيكون الهدف التالي للضربات.

ب) إن العمل في تلك المناطق يجعل من العسير على العدو تحديد قوتنا و بالتالي العمل على سحقها وخاصة إذا أحسنّا الاختباء في داخل المدنيين.

ج) إذا عملنا ضد الواجهة فقط يستطيع العدو بما تتوفر له من الامكانات الهائلة أن يقوي هذه الواجهة بحيث يصبح التسرب خلالها مستحيلاً.

د) إذا استمر العمل من الشرقية وحدها فقد يعطي ذلك مبرراً للعدو أن يحتل هذا الاقليم كله بحجة سحق أوكار المقاومة الشعبية.

هـ) سيظل هدفنا الرئيسي في الواقع هو العمل ضد خطوط مواصلات العدو، وحركة هذه الخطوط تعمل في داخل المنطقة، بينما الذي يعمل منها بمحاذاة الشرقية خط واحد يسهل على العدو حراسته.

و) إن تموين رجالنا في داخل المنطقة ليس أمراً مستحيلاً إذا نحن أحسنا الاستفادة من فروعنا هناك وحققنا نظرية الالتصاق بالمدنيين على أوسع مدى ممكن!

ولقد أخذنا بهذه النظرية، وكانت هي الخطة التي طبقت بعد ذلك، ولا شك ان تطبيق النظرية الثانية ربما كان يقي المواطنين المدنيين في القناة فعلاً من كثير من المتاعب كما حدث بعد ذلك، ولكن الأخذ بها كان يعني خنق هذه الحركة من البداية وتضييق مداها إلى درجة لا يشعر العدو معها بأية مضايقة جدية، ويجب أن أعترف أنه حين كانت حالات الحصار تفرض على المدنيين كان صوت الضمير الانساني عندنا ينبعث من الاعماق قائلاً «هكذا عرضتم النساء والأطفال للجوع والفزع، وتكون لحة خاطفة يغطي فيها صوت العقل قائلاً، بحزم: وهل توجد ثورة بدون متاعب؟» والواقع انه سيتضح في فصول مقبلة أن معركة القناة اضطربت بين هاتين النظريتين وجربتها معاً في أحوال متعاقبة بحيث أصبح من السهل معرفة المزايا والعيوب في كلتا النظريتين، وفي كلتيهما مزايا وعيوب لا يمكن إخفاؤها.

ولقد أخذنا على عاتقنا بعد اجتماع فاقوس الأول تنفيذ النظرية الأولى، وعلى اساسها جرى توزيع الرجال والعتاد ورسم الخطط وتحديد الاهداف في جميع منطقة القناة واقليم الشرقية دفعة واحدة وفي يوم واحد حددناه للبدء استطعت أن أحصي عشرين عملية نسف أو اختطاف أو كمين بين مثلث بور سعيد ـ السويس ـ التل الكبير، وكان أول رد فعل عند قيادة العدو أن أعلنت أمراً إنذارياً جعلت به جميع قواتها في منطقة القناة في حالة استنفار عام، ولقد بقيت حالتهم كذلك إلى فترة طويلة!

التدريب

قلنا ان التدريب بين رجالنا كان على درجة كبيرة من الضعف حين بدأنا معركة القناة، وفيما عدا المجموعات التي قاتلت في فلسطين وأتيحت لافرادها فرص التدريب الواسع هناك كان الآخرون لا يعرفون إلا استعمال المسدسات والبنادق، وإلقاء القنابل اليدوية، وحتى هذه الاسلحة لم يكونوا يعرفون عنها إلا تفكيكها وإعادة تركيبها دون استعمالها استعمالاً فعلياً، وهو القدر الذي تسمح به طبيعة التدريب السري وما يلزمه من الحذر والتكتم، ومع ذلك فقد كانت هذه المعلومات القليلة بداية لا بأس بها، كما انها تنبيء عن رغبة في التعليم، فإن ذلك الشاب الذي يقبل على التدريب السري مع ما فيه من المخاطر يمكن أن يكون محارباً مثالياً إذا اتيحت له فرص التدريب على نطاق واسع.

ولقد وجدنا أنفسنا مضطرين لتقسيم التدريب إلى مراحل، مراعين فيها أننا لم نكن قد قررنا إخراج شبابنا من أعمالهم وتفريغهم للحركة بحيث نستطيع أن نبعث بهم إلى معسكرات التدريب لوقت كاف، وينطبق هذا القول بصفة خاصة على الشباب في مدن القناة حيث يستطيعون التوفيق بين أعمالهم المعاشية وأداء واجبهم في الحركة، لا سيما وأن هذا الاجراء -أي تفريغ الافراد للحركة- كان سيضع على عاتقنا مسؤولية الانفاق عليهم وعلى عائلاتهم وهي نفقات باهظة لم تكن تستطيع حركتنا أن تتحملها. ومن ناحية أخرى كان انتسابهم لأعمال في الشركات ودوائر الحكومة -فوق أنه يتيح لهم فرصاً حسنة لجلب المعلومات- فهو يهييء لهم ستاراً من الامن لا يتوفر إذا كانوا عاطلين عن العمل، ومن أجل ذلك قسمنا التدريب إلى مرحلتين.

المرحلة الاولى: وهي مرحلة محلية يمكن ان تجري في البيوت أو في المزارع القريبة ويتدرب الرجال فيها -حسب طبيعة المكان واتساعه- على التاكتيك والمهارة في الميدان وقراءة الخرائط ودروس نظرية في المفرقعات، وأعمال التدمير واستخدام الاسلحة وصيانتها وبعض المحاضرات النظرية عن حرب العصابات، والدروس المستفادة من العمليات الجارية، وكان خبراء التدريب يرسلون إلى جميع المدن والقرى التي يقوم فيها هذا النوع من التدريب السري، كما كان هؤلاء المدربون يرتبطون مباشرة بالقائد المحلي للمنطقة وربما

كانت تقام في المزارع أو البيوت «تختة الرمل» ويجري التدريب عليها، وهو ما كان يحدث فعلاً في مدينة العريش باشراف «عبد المنعم عبد الرؤوف»، وبعد أن ينهي الرجال هذه التدريبات النظرية -وكانت غالباً تستغرق اسبوعين- يجري ترحيلهم في مجموعات إلى معسكرات التدريب الكبيرة، وهناك تبدأ المرحلة الثانية.

أما المرحلة الثانية: فقد كانت تجري في معسكرات منتخبة في المناطق الخلوية التي لا تخضع لنفوذ البريطانيين وكنا نفضل المناطق الصحراوية التي يقل فيها نفوذ الحكومة المصرية أيضاً، وفي الحالة الأولى كانت مديرية الشرقية هي المنطقة الصالحة. وفي الحالة الثانية كانت الاجزاء الجنوبية من شبه جزيرة سيناء، وهناك في الشرقية وسيناء يجري التدريب التطبيقي على الدروس النظرية التي مر بها الرجال حيث تتاح لهم فرص استعمال الاسلحة بأنواعها المختلفة من المسدس إلى مدفع الهاون أو «البيات» الثاقب للدروع، والقيام بعمليات النسف والتدمير بالمفرقعات الحية، وكذلك بمناورات في الهجوم والاعمال الليلية بالذخيرة الحية أيضاً.

وكانت المدة التي تتطلبها هذه الفترة من عشرة أيام إلى اسبوعين وفي هذه المرة يتحتم على الشاب أن ينقطع للتدريب انقطاعاً كلياً، فإذا فرغ من هذه الدورة التدريبية كان عليه أن يلتحق باحدى المجموعات العاملة في بلدته بعد ذلك، أما إذا دعت الضرورة أن ينقل إلى بلد غير بلدته ففي هذه الحالة يطلب منه أن يستقيل من عمله، أو أن يأخذ اجازة طويلة، وتتحمل قيادة الحركة حينذاك جميع نفقاته ونفقات اسرته، ولا أذكر أن شاباً تردد في تنفيذ الأوامر حين طلبنا منه أن يترك عمله وأهله وينتقل إلى منطقة أخرى، وكان يلحق بمعسكرات التدريب اطباء متطوعون أو طلبة في السنوات النهائية من كليات الطب أو ممرضون ذوو خبرة، اما الحالات الخطيرة فكانت تحال إلى مستشفيات أو عيادات يقوم على أمرها أطباء متعاونون معنا. أما تموين معسكرات التدريب فقد ذكرنا أن فروع الاخوان المحلية كانت مسؤولة عنه، وكان كل رئيس للإخوان في بلده هو المسؤول عن تموين الرجال في منطقته. ولقد أدت هذه السياسة التدريبية المرنة فائدة كبرى إذ استطعنا خلال شهرين من بدء العمليات أن ندرب أكثر من خمسمائة شاب بأقل التكاليف.

مراحل العمل

إن ظروفاً كثيرة هي التي تحدد طبيعة العمل وترسم له سيره، وإذا تجاهلت قيادة الحركة تلك الظروف ولم تستحضرها جميعاً -وهي ترسم خطتها- فإنها ستدرك ان هذه الظروف لا بد أن تفرض وجودها وتلقي بانعكاساتها على سير المعركة، ولقد كانت هناك ظروف واعتبارات كثيرة بعضها سياسي وبعضها نفسي وبعضها عسكري أيضاً هي التي كان ينبغي علينا أن نستحضرها في أذهاننا عند رسم خطوط حركتنا في القناة ونحدد لها مراحلها وقد استحضرنا هذه الظروف والعوامل جميعها قبل ان نقرر لحركتنا الثورية ثلاث مراحل رئيسية وهي:

المرحلة الاولى «الوخز»

لا شك ان العدو قوة جبارة لها في نفوس أبناء شعبنا هيبة لا يمكن تجاهلها، وهذه الهيبة أوجدها استعمار بشع استمر يجثم سبعين سنة فوق صدر الوطن، وأحس المواطنون بقسوته وشدته في ظروف كثيرة، وخاصة في الثورات التي وقعت قبل ذلك وكانت جيوش العدو تقمعها بغلظة وشراسة حتى ترسبت في أعماق الرجال -وخاصة ذلك الجيل الذي شهد هذه الثورات وابتلى بنارها- فكرة راسخة هي أن مقاتلة الانجليز حماقة وطيش لا يمكن أن يقوم عليها عاقل متزن كما أنها لا يمكن أن تؤدي إلى أية نتيجة تذكر.

ولم تكن قوة العدو التي اردنا منازلتها بأقل من تلك القوة التي تصدى لها الجيل الماضي، فبريطانيا -في نظر هؤلاء الرجال- لا تزال هي بريطانيا العظمى، وطاقتها العسكرية غير المحدودة وقدرتها الهائلة على النزال لا تزال كما كانت، إن لم تكن قد زادت بعد خروجها ظافرة من حربين عالميتين، وإنني أستطيع أن أذكر الآن بعد مضي ست سنوات على هذه الحركة عبارات النصح والتهكم المرير من رجال كلل الشيب رؤوسهم أو ضباط في الجيش كان المفروض أن يكونوا أقدر من غيرهم على تفهم الموقف.

وإذاً فقد كان علينا أن نكسر هذه الهيبة البر يطانية تدريجياً، وأن نز يل العقدة النفسية التي تركبت في نفوس أبناء الجيل المخضرم، والتي يمكن أن تسري منه إلى الجيل الشاب الذي أخذ على عاتقه هذه المعركة.

لقد أردنا أن نعود شعبنا على شيء لم يألفه، وان نقنعه عملياً بأن من الأمور المعقولة أن يقتل مصري انجليز ياً دون أن يصيبه من العقاب ما أصاب الفلاحين البؤساء الذين شنقهم الانجليز في دنشواي.

لقد اعتبرنا هذه المسألة النفسية هي نقطة الانطلاق في حركتنا وكان علينا ـلكي نحققهاـ أن نتخير لمدة محدودة عمليات سهلة تكفل قتل بعض جنود العدو دون أن تعرضنا لأية خسارة، وان نقوم بعد ذلك باشاعة هذه الانتصارات في طول القناة وعرضها. وقد أدت لنا الصحافة المصر ية خدمة عظيمة في هذا السبيل، ورغم أنها كانت تعمد إلى المبالغات غير المعقولة في بعض الحالات، إلا أن ذلك لا ينقص من الدور العظيم الذي قامت به الصحافة الوطنية وخاصة جر يدة المصري لإثارة الحماس في منطقة القناة ونقل صورة كبيرة للمعركة للمواطنين في المناطق الأخرى.

لقد كانت هذه هي المرحلة الأولى وكانت العمليات فيها تتسم بالخفة والبساطة والحرص أشد الحرص على عدم وقوع إصابات بين رجالنا، واستطيع أن أقول الآن إن هذه المرحلة أدت ثمارها كما توقعنا تماماً وكانت أساساً ضرور ياً للأعمال الكبيرة التي جاءت بعد ذلك.

ولو لم يفعل شباب الإخوان المسلمين شيئاً إلا تجريح الهيبة العسكر ية للعدو والتهوين من شأن قوّته وتجرئة المواطنين عليه، لو لم يفعل شبابنا إلا ذلك لكان عملاً كافياً لأن يذكر لهم بالتقدير والاعتزاز!

المرحلة الثانية

لم يكن يلزم في المرحلة الأولى إلا عدد محدود من الرجال ذوي الخبرة يضاف إلى مجموعات «النظام الخاص» في مدن القناة وتنظيم أعمال السرقة من العدو ووضعها في

نطاق الخطة العامة للحركة. و بينما يقوم هؤلاء الرجال بعملية «الوخز» وتهيئة الجو النفسي اللازم للحركة تكون معسكرات التدر يب في الشرقية وسيناء قد عملت بسرعة على تخر يج أكبر عدد من الرجال المدربين، وكان علينا أن ننظمهم في جماعات صغيرة، وان نبعث بهم في دورات لدراسة منطقة القناة حتى يألفوها قبل أن نرسلهم إلى القواعد التي تخيرناها على امتداد القناة أو في منطقة الشرقية.

وكان العدو قد فقد اتزانه الآن نتيجة لأعمال الوخز التي كانت تعمل عملها في أحشائه الغليظة، وأخذ بدنه الضخم يهتز في حركات هستيرية وأطرافه تكيل الضربات من حوله في الهواء، تماماً كما يصنع الفيل الضخم حين تهاجمه أسراب البعوض فيضرب بخرطومه وآذانه وقوائمه دون أن يصيب منها شيئاً. لقد أخذ عدونا ينظر للموضوع نظرة جدية فقام يحاصر المدن والقرى ويضع قواته تحت حالة حرب فعلية، و يقيم المزيد من نقط الحراسة، ولا يخرج من معسكراته إلا في أرتال كبيرة. كذلك أخذ شعبنا يتهيأ نفسياً للمعركة، وأصبحنا لا نجد صعوبة في جلب المزيد من المتطوعين للحركة بل أصبح الرجال الكبار المجربون ينظرون للحركة نظرة أكثر احتراماً، واذن فلم تعد عمليات الوخز تكفي لمضايقة العدو ... وهكذا بدأت المرحلة الثانية: وهي مرحلة تميزت بعمليات جريئة على نطاق واسع، ووقع فيها بعض الضحايا من رجالنا. ولكن سقوط الضحايا هذه المرة لم يفزع الناس ولم يؤكد النظرية القائلة «إن قتال الانجليز ضرب من الجنون»، بل زاد من حماس الشعب وتعلقه بالحركة ولا سيا حين كنا نبعث بجثث الشهداء إلى القاهرة وعواصم الاقاليم حيث تحملهم مظاهرات حماسية لتصحبهم إلى مقرهم الأخير!

المرحلة الثالثة

مرحلة تركناها للعدو يحدد لها مكانها وزمانها، وكان علينا نحن أن نعد لها على قدر المستطاع، ونعني بها احتمال أن يقوم العدو باحتلال اقليم الشرقية أو الزحف على القاهرة لاسقاط الحكومة القائمة حينذاك كوسيلة للتخلص من الحركة كلها، وكانت خطتنا إزاء هذا الاحتمال تقوم على أمرين هما أقصى ما تستطيع مقاومة شعبية أن تقوم به:

ا ـ تدريب بعض الفلاحين على استخدام الاسلحة والمفرقعات والقاء القنابل اليدوية للتعاون معنا مستقبلاً في القيام بأعمال التخريب ضد مؤخرة العدو إذا تقدم للأمام.

ب ـ تهيئة سكان القرى وحثهم على الاستعداد وشراء الاسلحة عن طريق المحاضرات والوعظ الديني. وينبغي أن نذكر هنا أن هذا الاحتمال اضطر الجيش المصري النظامي بعد ذلك إلى إرسال بعض كتائبه لترابط على حدود منطقة الشرقية.

التنظيم

كثيراً ما يعتقد البعض ان حرب العصابات التي تسمى أحياناً بالحرب غير النظامية أو الحرب الشعبية يمكن ان تكون حركات عفوية يقوم بها أفراد من الشعب دون أن يخضعوا لخطة واحدة أو قيادة موحدة، والذين يرضون بالاشتراك في حركات تقوم على هذا الأساس الخاطيء إنما يقتلون أنفسهم دون أن يحققوا فائدة تذكر!

إن الحركة الشعبية المسلحة يجب أن تقوم على خطة شاملة تتعرض للجزئيات قبل العموميات، فلا يترك فيها أي شيء للصدفة تتحكم فيه، فان الصدف تكون ــ إلا في حالات شاذة لا يقاس عليها ــ في صف الجيش الأكثر عدداً واستعداداً وهو جيش العدو، وإذا ترك قائد العصابة أو المقاومة الشعبية مقدرات رجاله للصدف تلعب بهم فانه لا يفعل أكثر من ان يجعل منهم صيداً سهلاً لرصاص العدو.

لذلك كان علينا أولاً أن نحدد هدفنا من هذه الحركة ــ كما قلنا ــ وأن نخضع أساليبنا وفقاً لهذا الهدف، وكان علينا بعد ذلك أن نوزع تشكيلاتنا على المناطق توزيعاً جيداً يتناسب مع أهمية هذه المناطق وأهداف العدو فيها، ثم نربط بين هذه المناطق بوسائل اتصال مرنة تقبل التطور حسب حركات العدو المضادة وندرس تنظيم وسائل التموين والتطبيب في كل منطقة على حدة، وكان على قواد مناطقنا أن يدرسوا مسألة اخفاء الاسلحة والمحافظة عليها بعناية ودقة، وان يحرصوا على وضع أكثر من ترتيب لهذه الأمور كلها بحيث يلجأون اليها تباعاً إذا نجح العدو في إحباط ترتيب واحد منها. ومن ذلك يتضح أن مهمة قائد العصابة

الصغيرة أو مجموعة العصابات ليست سهلة، بل هي معقدة تحتاج إلى قدر كبير من الذكاء والدراية ، ويجب ألا ننسى أن هذه الأمور كلها بالنسبة للجيوش النظامية تعتبر شيئاً (روتينياً) تشرف عليه إدارات مختصة ، وتتوفر لها إمكانيات كثيرة من وسائل النقل والتخزين، ولكن الأمر كثير التعقيد بالنسبة للعصابات وتزداد تعقيداته وفقاً للظروف والأحوال التي يعملون فيها، فالعصابات التي نظمها الصينيون (مثلاً) ضد الغزو الياباني لبلادهم كانت تنطلق من قواعدها في اراض يسيطر عليها الصينيون سيطرة مطلقة مما جعل شئون العصابات الادارية وتموينها أمراً سهلاً، ويختلف هذا الوضع من وجوه كثيرة عن الوضع الذي كانت العصابات العربية تقاتل فيه البريطانيين في فلسطين عام ١٩٣٦، حيث كان العدو يسيطر على مرافق البلاد و يدير جميع شئونها الداخلية والخارجية، وتخضع له قوى الأمن الوطنية خضوعاً تاماً، ففي هذه الحالة الثانية يصبح الأمر أكثر تعقيداً منه في الحالة الأولى، ولقد كانت حركتنا نحن أيضاً تختلف شئونها الادارية بين السهولة والتعقيد حسب المناطق التي تعمل فيها، ففي داخل منطقة القناة والاسماعلية و بورسعيد والسويس وغيرها حيث يتزايد التحكم البريطاني، تكون مهمة قادتنا أشد عسراً، أما في المناطق الأخرى كالشرقية مثلاً حيث لا توجد قوات بريطانية وتكون ظهورنا إلى مناطق مصرية صميمة فيصبح الحال أكثر سهولة وهكذا.

لقد كان موضوع التنظيم واخضاع الحركة كلها لخطة واحدة وقيادة موحدة أمراً شغل أذهاننا وقتاً طويلاً، وخاصة حين بدأت تتسرب إلى المنطقة عناصر غير ملتزمة، تهاجم المراكز البريطانية إعتباطاً الأمر الذي سبب لنا كثيراً من المشاكل وأفسد علينا خططاً كانت معدة، ولقد اتجهنا بكل قوتنا إلى امتصاص هذه العناصر ونجحنا فعلاً في إذابتها داخل تشكيلاتنا.

أما تخطيط الهيكل الاداري للحركة كلها فقد استنفد جهوداً أكبر، ولا ادعي أننا بدأناه ناجحاً خالياً من العيوب بل العكس هو الصحيح، ولكن كان هدفنا دائماً إيجاد هذا الهيكل وقد أقمناه فعلاً ولكن بين سلسلة من الاخطاء والتجارب الفاشلة.

القواعد

إن اختيار قاعدة لرجال المقاومة أمر مهم للغاية، وهو يخضع لاعتبارات كثيرة وتتحكم فيه عدة عوامل رئيسية منها: قرب أو بعد هذه القاعدة من مناطق العمل، وطبيعة الأرض في

القاعدة، وسهولة الانطلاق منها والعودة اليها، وسهولة إخفاء الاسلحة والرجال فيها، وتوفير المياه ومواد التموين فيها بشكل دائم منتظم، والتأكد من عدم استطاعة العدو مهاجمتها فجأة أو قصفها من الجو لإبادة من فيها، وسهولة الانسحاب منها إلى منطقة أخرى إذا تمكن العدو من معرفتها وبالتالي من مهاجمتها.

كل هذه عوامل تتحكم في اختيار القاعدة المنشودة، وهي أيضاً عوامل لا تخضع لمقياس واحد فان ما يصلح في بلاد ربما لا يصلح في بلاد أخرى، كما ان ما يصلح في منطقة في دولة ما ليس من المحتم أن يكون صالحاً في منطقة أخرى في هذه الدولة. وكان أول ما واجهنا ـحين أخذنا نطوف في منطقة القناة على هيئة لجنةـ هي المشكلة الرئيسية: وهي صلاحية أرض القناة لأعمال العصابات أو عدم صلاحيتها.

إن القاعدة النموذجية الكامنة وراء الجبال الوعرة أو الغابات الكثيفة المتشابكة الاغصان لا وجود لها عندنا، فهل يعني ذلك عدم وجود قواعد على الاطلاق؟ لقد انتهينا إلى أنه ما دام الغرض من العمل هو قتل العدو فليس من العسير أيضاً ان نجد منطقة ننطلق منها لقتله.

والواقع اننا انتهينا إلى أن مخبأنا الرئيسي ليس هو «الارض» وحدها ولكنه «الجمهور» أيضاً بحيث تأتي الارض بعد ذلك في المرتبة الثانية، بمعنى ان علينا ان نختفي وسط جمهور المدنيين وتكييف أوضاعنا كلها على هذا الأساس، علينا ان نكسب ثقة الجمهور المصري وعطفه على حركتنا، وأن نتخذ من البيوت العادية أماكن للاختفاء، وألا نتخذ أي مظهر غير عادي يكشفنا للعدو أو عملائه، وباختصار أن نندمج كلياً مع سكان المدن والقرى اندماجاً يصعب معه تمييزنا عنهم، بحيث لا يبقى للأرض بعد ذلك إلا واجب تكتيكي. ولقد وضعنا هذه الخطة على اعتبار أن العدو سيصعب عليه أن يعرف رجل العصابة من المدنيين الآخرين، إلا انه حين تطور القتال بعد ذلك ولم يجد العدو وسيلة لتمييزنا من المدنيين، لجأ إلى ضرب المدن وفرض حالة الحصار عليها وكان هدفه ـبلا شكـ هو التضييق على المواطنين وإشعارهم بخطورة وجودنا بينهم، وما يجره ذلك عليهم من المتاعب حتى ينقلبوا علينا و يرفضوا التعاون معنا. إلا ان هذه الخطة لم تنجح أيضاً ومضى المواطنون على ولائهم لحركتنا، غير أن هذه الخطة المعادية دفعتنا بعد ذلك إلى ابتكار شيء جديد هو «القاعدة الفرعية» أو منطقة الوثوب، وهي منطقة تقع بين القاعدة وبين مناطق العمل ضد العدو

وكان من أغراضها إعفاء المدنيين من المتاعب وجر العدو إلى مناطق خلوية غير مأهولة
سيتضح عند الحديث عن العمليات نفسها.

وعلى هذا الأساس اعتبرنا المدن الرئيسية في القناة قواعد للمقاومة كما اعتبرنا القـ
الواقعة على مقربة من الاطار البريطاني في الشرقية كالقرين والتل الكبير وأبو حماد قوا
أخرى. وحين تطور العمل وأخذ العدو يغير على المدن في حملات تطويق وتفتيش، اتخذنا
المزارع القريبة قواعد فرعية أو مناطق وثوب مثل «ابو سلطان» قرب الاسماعيلية، والمـ
وظهر الجبل قرب القنطرة الغربية.

أما مشكلة التموين وما يتعلق بها فقد نظمناها على أساس الافادة من اخواننا المدنيـ
وقد ساعدنا على تنظيمها وجود شعب للاخوان في كافة المدن والقرى، بحيث وضعنا خـ
وتركنا أمر تنفيذها لرؤساء هذه الشُّعَب، وقد تألفت لجان لهذه الغاية من رؤساء الفر
ومعاونيهم، ففي الزقازيق كان الدكتور محمد علي فريد هو القائد الاداري للحركة، وفي
حماد كان المحامي علوي عساف هو المسؤول عن تموين قطاع التل الكبير، وفي فاقوس
« ابراهيم نجم » هو المسؤول عن تموين مراكز التدريب ، وفي بور سعيد كان «
المصري » وفي القنطرة كان «احمد القصاص » وفي السويس كان «الظاهر منير»، وهـ
انتظمت هذه الشبكة التموينية بفضل هؤلاء الرجال وأدت للحركة خدمات جليلة تذ
بالشكر والتقدير.

مناطق العمل

إن الارض الصالحة في الحرب الشعبية هي النقطة التي يمكنك ان توقع فيها بالـ
ضربة مفاجئة سريعة، ثم تنسحب منها إلى منطقة أكثر أمناً. وبديهي أن هذه الارض ينبـ
أن تكون ذات سواتر تمكنك من الاختفاء فيها بحيث لا يراك العدو ولا يحس بوجودك حـ
تصل إلى مكان يصبح فيه في متناول الاسلحة فتوقع به ضربتك ثم تنفلت راجعاً، و
كانت السواتر المقصودة هي بيت مهجور على مقربة من الطريق أو ترعة من الترع أو د
من البوص، هذا بالنسبة للاهداف المتحركة، على ان هناك أهدافاً ثابتة للعدو كـ

الحراسة أو المعسكرات أو الجسور أو مضخات المياه، وفي هذه الحالة يمكنك أن تتخير هدفاً من هذه الأهداف تستطيع أن تعمل ضده وان تعود من حيث أتيت، و يتوقف ذلك كله -سواء العمل ضد الاهداف المتحركة أو الثابتة- على تخير الأرض الملائمة والوقت الملائم، كما يتوقف أيضاً على قوة العدو ومدى قدرته على الصمود وجلب النجدات وغير ذلك. والمسألة على كل حال ليست مسألة ارض صالحة بقدر ما هي مسألة قدرة على استغلال هذه الارض، وتصور العوامل الاخرى التي أشرنا اليها.

ولا يكفي أن تبحث عن الارض الصالحة التي يمر بها العدو ولكن عليك أيضاً أن تستدرج قوى العدو إلى أرض صالحة بعيدة. وقد يتحقق ذلك أيضاً إذا أغريت العدو بمطاردتك إلى هذه الأرض، وهي عملية تحتاج إلى قدر كبير من التحضير والدقة، فان هذه اللعبة مع جيش نظامي ليست دائماً محمودة النتائج -إلا إذا سبقها- كما قلنا تحضير جيد يقوم على دراسة دقيقة.

ويجب ان يظل قائد المجموعة العصابية ممسكاً بالمبادأة وحرية العمل في يديه، وهذه المميزات التي توفرها له المرونة وخفة الحركة يمكن ان يفقدها حالاً، و يتنازل عنها لقائد العدو إذا هو أخطأ في تقدير اللحظة المناسبة للعمل أو تقدير الوقت اللازم للانسحاب.

وقد يساور قائد العصابة أحياناً شيء من الغرور والزهو حين يرى قوته الصغيرة تضغط على العدو وتوقع به الخسائر، فينسى نفسه و يبقى فترة أطول من المقرر وحينذاك -يكون دون أن يشعر- قد دخل في الوقت الخطر، ذلك، لأن العدو يكون قد استرد وعيه بعد المفاجأة واستعد للعمل المضاد، وربما يستطيع أيضاً أن يجلب نجدات سريعة، و بذلك تتعاظم قدرته على الضغط، ويجب أن نذكر في هذه الحالة اننا لا يجب ان نطلب نحن نجدات أيضاً، والا تخطينا -لا شعورياً- عن مبدئنا الأصلي الذي يقضي بالضرب السريع والهرب السريع. وأتحنا للعدو الفرصة التي يسعى اليها وهي تثبيتنا تمهيداً للتطويق فالابادة!

والواقع أن سلسلة من التجربة والخطأ تعرضنا لها إبان الحرب الفلسطينية وخلال معركة القناة، تجعلني أؤكد مرة أخرى أنه ينبغي علينا -إذا كنا رجال مقاومة شعبية- أن نقتنع بأي انتصار نحرزه مهما كان ضئيلاً، وأن يكون لدينا الاستعداد على التحكم في عواطفنا والانسحاب في اللحظة المناسبة، ولكي يتحقق ذلك ينبغي على قائد المجموعة العصابية ان

يقدر على أساس واقعي -ليس فيه مبالغة أو تقليل- حقيقة قوة العدو التي ينوي مهاجمتها ومدى قدرتها على المقاومة والوقت الذي يستغرقه وصول النجدات اليها، مستعيناً في ذلك بمعرفة طبيعة الارض وطرق المواصلات وقرب مراكز العدو أو بعدها ومدى قدرته هو على عرقلة وصول هذه النجدات، ثم عليه أيضاً ان يتصور جيداً قوته هو، وبعده أو قربه عن قاعدته والوقت الذي يلزمه لاتمام الانسحاب.

هذه التقديرات يجب أن تصحب اختيار الارض الصالحة وعلى قدر دقتها وتوفر الحقائق فيها يتحقق الأمل في اتمام العملية الهجومية بسلام.

ولم يكن من السهل بطبيعة الحال، ان نفرض على كل قائد من قادتنا مناطق معينة ليعمل فيها، أو نحدد له الارض الصالحة التي يستدرج اليها العدو، ولكن الامر كان متروكاً كله لقادة المناطق يحددونه على ضوء معلوماتهم واختباراتهم الشخصية، غير أن التجارب التي كانوا يقومون بها سواء كانت خطأ أم صواباً، كانت ترد إلى المناطق الأخرى ويجري تبليغها للرجال كما يجري إلقاؤها في المحاضرات أو الدروس في مراكز التدريب.

المواصلات

إن من الامور الحيوية أن تكون هناك مواصلات جيدة، تربط بين رجال المقاومة الشعبية في مناطقهم المختلفة وبين قياداتهم ولما كان رجال المقاومة -في معظم الاحوال- لا يستطيعون استخدام طرق المواصلات المعروفة للعدو فان عليهم أن يبتكروا لأنفسهم طرقاً غير معروفة، وكلما ادركوا أن العدو قد اكتشف هذه الطرق وبدأ في محاصرتها كان عليهم أن ينتقلوا إلى طرق أخرى وهكذا، وليس هناك شيء يمكن أن يحقق هذه الغاية أكثر من دراسة الأرض. ان قائد العصابات إذا لم يستطع إلا أن يستخدم الطرق المعروفة ووقف عاجزاً عن ابتكار غيرها يكون قد سلم بالهزيمة. وما يقال عن الطرق يقال عن وسائل النقل، إذ ينبغي أن يعرف رجال العصابات أن استخدام القطارات والسيارات ليس مأموناً في جميع الحالات، وأن أوقاتاً يمكن أن تأتي يصبح فيها استخدام هذه الوسائل عملاً يتسم بالخطورة، وعليهم أن يتعودوا على ركوب الخيل وغيرها من دواب النقل، كما عليهم ان يتعرفوا على

الدروب والطرق غير المعروفة، وان يتعودوا السير عليها ليلاً ونهاراً، كما أن مجاري الانهر والترع الصغيرة والبحيرات -إذا وجدت- طرق مواصلات جيدة وعلى قادة المجموعات العصابية أن يدربوا رجالهم على استخدام زوارق الصيد، كما أن عليهم تحديد النقط الواقعة على هذه المعابر، والتي يمكن أن يوجد فيها عملاء أمناء لتسهيل عمليات التفريغ والتخزين وغير ذلك.

لقد استطعنا لمدة محدودة أن نستخدم قطارات الركاب والبضائع والسيارات العاملة داخل القطر ومنطقة القناة، غير أن العدو لم يلبث أن فطن لهذا الأمر، فأقام مراكز حراسة لتفتيش هذه القطارات والسيارات ومصادرة ما عسى ان يكون فيها من الاسلحة والعتاد، ولو لم نكن قد اعددنا لهذا الامر عدته لربما توقفت حركتنا في المناطق الداخلية تماماً، فبدأنا نرسل سيارات الجيب عبر الطرق الصحراوية، وحين عرف العدو هذه الطرق وبدأ يرسل دوريات سيارة كانت هذه الدوريات المعادية نفسها اغراضاً صالحة نعمل ضدها.

ولقد أقمنا من جانبنا مراكز مراقبة على مداخل هذه الطرق، وأصبحت سياراتنا لا تتحرك إلا إذا وثقنا من خلو هذه الطرق من جنود العدو، وذلك عن طريق المعلومات التي نتلقاها من هذه المراكز. وحين تحولت هذه الصحراوات إلى مناطق عمليات وأصبح من العسير عبورها بواسطة السيارات أو قوافل الجمال التي استخدمناها أيضاً، بدأنا نستعمل مصرفاً مائياً كبيراً يدعى «بحر البقر» وهو مجرى مائي يخرج من الشرقية ويصب في بحيرة المنزلة، وصرنا نجلب الامدادات عن هذا الطريق بالزوارق، وكذلك استخدمنا بحيرة المنزلة نفسها في الوصول إلى بور سعيد حين حاصرها العدو، ولذلك يمكن القول ان العدو لم ينجح رغم المحاولات الجبارة التي بذلها في منعنا من الوصول إلى مناطقنا الداخلية إلا بالنسبة لمدينة السويس، لاعتبارات كانت خارجة عن ارادتنا وسوف يأتي ذكرها بعد حين، أما الاتصال المباشر بين جماعاتنا فقد كان يتم بواسطة التليفونات حسب «شفرة» خاصة، وحين استطعنا الحصول على اجهزة لاسلكية تبرع لنا بها مفتي فلسطين «الحاج أمين الحسيني» أخذنا ندرب بعض رجالنا عليها واستخدمناها ولكن في حالات قليلة، إذ تبين لنا بعد ذلك أن العدو كان قادراً على اكتشافها وخاصة في المدن التي تقع تحت رقابته المباشرة.

٧ ـ نماذج تطبيقية

أود من القارئ الكريم أن يذكر حين يقرأ هذا الفصل، أننا أوردنا في بعض الحوادث التي اعتبرناها عناوين لعشرات الحوادث المماثلة فقد وجدنا ـ ولا شك أن القارئ معنا في ذلك ـ أن الحوادث التي وقعت كانت متشابهة بحيث يصبح ذكرها جميعاً تكراراً يؤدي إلى الملل، وقد راعينا أيضاً في ذكر هذه الحوادث أن تكون نماذج لشتى العمليات المتشابهة، مما يدفعنا أن نذكر حوادث قد تبدوا عديمة القيمة من الناحية العملية، ولكننا أردنا بذكرها أن يصاحب القارئ تلك المعركة من بدايتها، وأن يعيش في تطوراتها المختلفة وهي تتقلب بين درجات الضعف والقوة، وبين العمل البدائي المرتجل والعمل المنظم الواسع، وبين حالة يكون العدو فيها في درجة من التنبه لا نملك معها إلا أن نقطع أنبوباً من الماء أوسلك تلفون، وبين حالة نستطيع فيها أن نصطدم بكتيبة كاملة من المشاة تساندها الدبابات والمدفعية.

قلوب أقوى من الدروع

في تلك الايام المبكرة للحركة حين لم نكن نملك من السلاح والعتاد الا بنادق صدئة قليلة العدد، وذخائر مضى على تخزينها في الاراضي الرطبة سنين طويلة، كان رجالنا يخرجون لملاقاة العدو، وربما يسيرون أميالاً كثيرة قبل ان يصلوا إلى نقطة تطل على خطوط مواصلاته. وهناك يبحثون عن حفرة في الارض يختبئون فيها، أو شجرة مرتفعة يصعدون عليها، في انتظار مرور الدبابات والمصفحات، ولا يستطيع ان يتصور معنى هذا العمل والمتاعب التي تصاحبه إلا اولئك الذين مارسوه فعلاً، على ان اشد ما في هذه المرحلة وأكثر جوانبها مدعاة للاسف والمرارة ان تلقي ما في يدك من القنابل على الدبابة بعد هذه الرحلة الشاقة، أو تقفز فوق ظهر المصفحة وتطلق مدفعك الرشاش على من فيها، ثم يتبين لك ان قنابلك ليست كلها صالحة، وان مدفعك الرشاش لا يطلق إلا طلقات معدودة ثم يتوقف عن العمل لأن ذخيرته تالفة بفعل التخزين الطويل، لقد حدث مثل ذلك في حالات قليلة في ذلك الوقت المبكر، واليكم هذه العملية نموذجاً لها:

أصدر فوزي فارس، قائدنا في القنطرة، أوامره إلى جماعة صغيرة كان بين رجالها عصام الشربيني وفتحي البوز، -والاول هو الذي كتب القصة في تقرير بعث به الينا- لتهاجم دورية مصفحة دأب العدو على اخراجها في منطقة جنوبي القنطرة، وقد تسلل هؤلاء الرجال في جنح الظلام وداروا دورة طويلة، وكان عليهم ان يسبحوا في ترعة عميقة تعترض طريقهم قبل ان يصلوا إلى النقطة التي اختاروها لعمليتهم، ولم يكن في تلك النقطة إلا أشجاراً عالية قليلة مغروسة في صف واحد على جانب الطريق، فلم يجدوا خيراً من تسلق الاشجار والاختباء بين أغصانها، وهكذا تفرقت الجماعة بين شجرتين متجاورتين، ولعلهم استمروا في مقامهم ذاك أربع ساعات قبل أن يروا سيارتين مصفحتين تقبلان في بطء وتتقدمان نحوهم، وحين حاذت سيارات العدو الكمين، قذف عصام الشربيني قنبلة يدوية سقطت في داخل السيارة ولكنها لم تنفجر، فصوب رشاشه على من فيها فلم ينطلق إلا طلقات قليلة ثم توقف الرشاش في يده. وكانت السيارة في تلك اللحظة الحرجة قد تجاوزت موقعه قليلاً وأصبحت أمام الشجرة الثانية، ومن حسن الحظ ان القنبلة التي القاها فتحي البوز كانت صالحة، فانفجرت في داخل السيارة وأصابت جميع من فيها ولم يطلق مدفعه الرشاش هو الآخر إلا طلقات قليلة قبل ان يتوقف تماماً، ولكنها كانت كافية ليقفزوا من فوق الاشجار في خفة القرود ويولوا هاربين، ويعبروا الترعة من جديد عائدين إلى منطقتهم. وفي الصباح تبين ان المصفحة التي بقيت سليمة اخذت تضرب رؤوس الاشجار بنيران كاسحة حتى بدت أغصانها عارية من الورق وكأنها في الخريف!!

وقد دفعتنا هذه الحادثة وحوادث مشابهة قليلة وقعت في نفس الليلة، إلى التنبيه على جميع القادة بضرورة التأكد من الذخيرة قبل استعمالها، كما دفعنا أيضاً إلى الاسراع في استنباط وسائل جديدة للامداد بالذخيرة الصالحة. وجاء في رسالة وجهناها استناداً إلى هذه التجربة ان اقتراب رجالنا من مواصلات العدو على هذه الصورة أمر يجب أن يشجعوا عليه، ولكن هذا النوع من العمليات الجريئة يجب أن يسبقه الوثوق من الأسلحة والذخائر المستعملة فيها.

القاء القنابل والزجاجات الحارقة على السيارات

مئات الحوادث تلك التي ألقيت فيها القنابل والزجاجات الحارقة على السيارات ناقلات الجنود والشاحنات، وفي الفترة الأولى من الحركة حين كانت طرق العدو تخترق

المدن وتسير بمحاذاة المباني، كان القاء القنابل من وراء النوافذ أو زوايا الشوارع أو البساتين أمراً سهلاً يكبد العدو خسائر دون أن يكون هناك الا احتمالات قليلة لاصابة رجالنا، وفي الاسماعيلية خصص يوسف طلعت مجموعة من رجاله برعت في هذا النوع من الاعمال براعة فائقة، وكان يساعدهم على النجاح ان سيارات البريطانيين كانت مضطرة إلى اختراق شوارع المدينة في تحركها بين المعسكر الكبير والمعسكرات الاخرى، وكان من الامور المألوفة ان تنصت المدينة كلها إلى صوت انفجارات شديدة تنبعث من هذه الناحية أو تلك، ثم يتبينون ان قاذفي القنابل قد شغلوا في الليل في رمي السيارات، وبديهي ان العدو لم يكن يترك الحوادث تمر دون عمل مضاد، فكان يعزل الاحياء التي تقع فيها هذه الاعمال ويمضي في تفتيشها وكان الاهالي يتعرضون لبعض المضايقات ولكن مضايقات العدو كانت أكبر بلا شك، الأمر الذي لم يجد معه سوى ان يحظر المدينة على جنوده وسياراته، و يبتكر طرقاً أخرى يسير فيها بعيداً عن الشوارع.

وقد تشكلت جماعات أخرى لهذا الغرض في كل من السويس وبور سعيد، وكانت نتائجها أيضاً هي إخلاء المدن واعتبارها مناطق محظورة بالنسبة للجنود، ولكن ينبغي ان نذكر ان العدو لم يسلم بهذه النتيجة بسهولة إلا بعد ان بذل محاولات مضنية لابادة رجال المقاومة والعزل بينهم وبين المدنيين.

العمل ضد مخازن الذخيرة

كان من بين الأهداف الهامة في نظرنا نسف مخازن الذخيرة البريطانية في أبي سلطان بجوار الاسماعيلية، وحين طلبنا من يوسف طلعت ان يحضر لهذه العملية، ذكر ان الانجليز يتوقعون مهاجمتها ولذلك اسرفوا في حراستها بصورة غير مألوفة من قبل وبينما كانوا في الماضي يحرسونها حراسة عادية و يكتفون بالاسلاك الشائكة من حولها وبعض الحراس، قاموا أخيراً بتنظيم دوريات من السيارات المصفحة تجوب المنطقة وخاصة في الليل، ومع ذلك قال يوسف طلعت انه سيبذل جهده!!

وكان واضحاً ان العملية تحتاج إلى نوع غير عادي من الشباب المجاهدين، وقد وقع الاختيار على مجموعة من الاخوان بقيادة احد الضباط المتطوعين السابقين.

كما اتضح أيضاً القيمة الكبرى التي يمكن أن تعطيها المناطق المجاورة إذا سبق الاتصال

بها وكسب اهلها، ذلك ان أبي سلطان كانت تبعد عن الاسماعيلية مسافة طويلة تتخللها معسكرات كثيرة للعدو، وكان بجوار المنطقة مساحة واسعة من الأرض المزروعة يملك احد الاخوان بعضاً منها.

ولعل بعض الفلاحين البسطاء قد حسدوا صاحب المزرعة المجاورة لهم حين رأوا في صبيحة أحد الأيام وجوهاً غريبة قال صاحب المزرعة عنهم انهم عمال جدد جلبهم خصيصاً لمعاونته في مزرعته، وكان هؤلاء العمال عند حسن الظن بهم فقد كانوا يخرجون في الصباح مبكرين للعمل ولا يعودون الا متأخرين، غير انه لوحظ انهم يقتربون أكثر من اللازم من اسلاك المعسكرات،وقليل من الفلاحين هم الذين تساءلوا عن السبب، اما الباقون فقد ظنوا ان جارهم الفلاح ربما ينوي تعمير بعض الاراضي البور في تلك المنطقة. وكان يوسف طلعت قد استطاع أن يسرب الاسلحة والمفرقعات اللازمة للعملية عن طريق القطارات البريطانية التي تعمل في المنطقة لأن أحد رجاله المخلصين يعمل وقاداً في أحد القطارات.

ولقد استطاع «خطاب» قائد المجموعة بعد ان رصد حركات الدوريات السيارة عدة أيام بلياليها، ان يعرف مواعيدها بالضبط، وان يعرف أيضاً نقط الحراسة وأوقات تبديل الجنود، وقد انتظر اياماً أخرى حتى غاب القمر واصبحت الامسيات حالكة الظلام، وفي الليلة المقررة للعملية كان هناك سبعة رجال يلبسون الملابس الكاكي، وفي وسط كل واحد منهم خنجر مرهف وعلى كتفه مدفع رشاش، وعلى ظهر اربعة منهم لفافات كبيرة يتحركون ببطء تحت ثقلها الكبير، وفي حفرة يستعملها الانجليز لالقاء الفضلات ولا يفصلها عن الاسلاك الا أمتار قليلة القوا احمالهم وانبطحوا على الارض، وبعد قليل اقبلت سيارتان غمرتا المنطقة بالضوء المنبعث من مصابيحها الكشافة وتوقفتا قليلاً عند الحفرة كأنها استرابتا في شيء ثم عاودتا السير من جديد، وكانت هذه الدورية السيارة.

وبعد أن عاد الظلام من جديد همس «خطاب» في اذنيّ اثنين من زملائه «هيا بنا! فلن تعود السيارات قبل نصف ساعة أخرى» وتقدم اثنان إلى الامام ومعهما مقص للاسلاك الشائكة، وقبل نصف ساعة عاد الاثنان يقولان انهما نجحا في فتح ثغرة عبر الاسلاك الشائكة ثم اخذا اماكنهما من جديد في الحفرة القذرة.

وبعد أقل من عشر دقائق ظهرت السيارتان مرة أخرى وركز الرجال عيونهم على

الاسلاك الشائكة امامهم واستطاعوا ان يروا الثغرة جيداً حين انعكس عليها ضوء السيارات البريطانية، وامسكوا بأنفاسهم وقلوبهم معاً ولكن الضوء لم يتوقف واستمر في انسيابه، ولم يفطن جنود العدو للثغرة ومضت السيارات في دورتها المعتادة وقبل ان تتوارى اضواؤها تماماً، كان خطاب وزملاؤه يحملون الغامهم و يسرعون في التسلل عبر الأسلاك، وحين اقتربوا من المخازن جلسوا مرة أخرى وانصتوا بانتباه شديد وكان الجندي الانجليزي المكلف بنوبة الحراسة يغدوا و يروح حول أكوام ضخمة من الصناديق المغطاة بالمشمع وخطواته الغليظة المنتظمة تسمع بوضوح في سكون الليل، وكانت خطوات حارس آخر تسمع عن بعد من الناحية الأخرى.

وعندما تجاوزهم الحارس في دورته الرتيبة قاموا من أماكنهم في خفة وانطلق كل اثنين من ناحية يضعون الغامهم بين الصناديق و يشعلونها، وقبل ان يتجمعوا من جديد رآهم أحد الجنود فصاح بهم يأمرهم بالوقوف ولكنهم استمروا في تراجعهم السريع فأطلق عليهم نار بندقيته وكان ذلك كافياً ليخرج الجنود الانجليز من مخابئهم وخيامهم و يطلقون النار في جميع الاتجاهات، وأخذ رجالنا من ناحيتهم يصوبون رشاشاتهم في اتجاه الخيام والحراس ولم يكن أمامهم إلا وقت ضيق جداً للانسحاب، فأخذوا يطلقون النار ثم يتراجعون، وبعد جهد استطاعوا الوصول الى الثغرة التي فتحوها وسلكوا منها إلى خارج المعسكرات بينما كان سيل من النيران يدوي فوق رؤوسهم و يتجاوزهم مسافات للامام، واستمروا في طريقهم والنار تلاحقهم، وحين ابتعدوا مسافة كافية ارتموا على الأرض وراء الحفر واخذوا ينظرون إلى الليل المحيط بالمعسكر، تمزقه خيوط متشابكة من اللهب ينبعث من رشاشات الجنود الذين مضوا يطلقون النار بجنون.

وبعد لحظات اخرى، انشق الليل عن ثلاثة براكين صفراء، اعقبها انفجارات هائلة، ثم توالت الانفجارات، واستطاع الرجال في تقهقرهم ان يروا وراءهم ألسنة اللهب تضيء صفحة الليل، والانفجارات تتوالى في ضوئه، ولم يناموا في تلك الليلة بل ألقوا اسلحتهم في مخزن معد بعناية في صفحة الترعة، وداروا دورة طويلة في الصحراء قبل ان يصلوا إلى منطقة بعيدة فيها مزرعة أخرى ورجال أمناء ينتظرون وصولهم بلهفة.

وفي اليوم التالي عادوا إلى الاسماعيلية وقت أن كانت سيارات الجيش البريطاني

تحاصر المناطق المجاورة لأبي سلطان وتجهد في تفتيشها ثم تعود خائبة دون جدوى.

وقد اعترف بلاغ بريطاني صدر بعد ذلك، ان كمية كبرى من القنابل والذخائر الصغيرة قد انفجرت، ولم يعترف إلا بقتل خمسة جنود، ولكن عمال المطابخ في تلك المعسكرات أكدوا ان القتلى قد تجاوزوا العشرين قتيلاً.

تدمير الأنابيب وأسلاك التلفون

إن مضخات المياه والانابيب، وأعمدة التلفون، والاسلاك، تعتبر أشياء حيوية بالنسبة لجيش العدو ولا يستطيع الاستغناء عنها. وإذا حدث ان انقطع الماء عن معسكر به مئات الجنود أو تعطلت اجهزة التلفون، فان ذلك يسبب مضايقة لا حد لها، ويجب أن نعرف أن الجيش لن يصبر طويلاً على انقطاع الماء أو التلفون، بل سيبادر إلى تسيير دوريات على طول الخطوط، ليعرف مكان العطل، ثم يبعث بالمهندسين والعمال لاصلاحه.

وقد تجد من يقول لك: ما فائدة هذا العمل إذا كان العدو سيصلحه غداً؟ واذا كنت على استعداد لأن تقتنع بمثل هذا القول فانك لن تستطيع أن تفعل شيئاً بعد ذلك.

إذا أصلح العدو أنبوب الماء أو التلفون في الصباح، فيجب ان تكون مستعداً لقطعه مرة أخرى في المساء، وإذا عاود إصلاحه ثانية، بادرت إلى قطعه مرة أخرى، وهكذا ...

وإذا كانت لديك القدرة على الابتكار فانك ستختار لقطع الانبوب أو السلك مكاناً ملائماً، وربما كان المكان قائماً على مقربة من ارض وعرة، أو بستان يمكن ان يختبىء فيه بعض رجالك القناصة، فاذا جاء العدو ليصلح الانابيب اطلق الرجال عليه الرصاص، فقتلوا بعض الجنود! ولعلك تضع أيضاً بجانب السلك المقطوع بعض ألغام الضغط الصغيرة، أو القنابل اليدوية المشدودة بسلك رفيع، فاذا جاء المهندسون والعمال انفجرت فيهم.

ويجب أن تعلم أن العدو حذر للغاية وهو لن يسلم مع ذلك كله بالهزيمة، وربما يلجأ إلى وضع حراسات على هذه الخطوط أو دوريات سيارة، فاذا فعل ذلك فهل تراه يكون قد انتصر؟

أنا شخصياً أقول لا، ان هذا العمل يكبده مجهودات كبيرة هى فى حد ذاتها انتصار لك، وإذا كانت لديك قوات تسمح بالتوسع في العمليات، فإن هذه الحراسات والد ور يات أيضاً يمكن أن تكون أهدافاً طيبة لرجالك.

فاذا انت فعلت ذلك في منطقتك، وفعل زملاؤك الآخرون مثله في مناطقهم أيضاً، فانكم تسببون للعدو مضايقات عظيمة دون ان تتعرضوا لأي خسارة. وهذا ما فعله رجال الاخوان في القناة واليك المثال:

في المساء خرج أر بعة من رجالنا من القنطرة الغر بية، وتوجه اثنان منهم إلى انابيب المياه، فقطعوها بالفؤوس ونزعوها إلى مسافة طو يلة، ثم قذفوا بها في الترعة، وتركوا المياه الغز يرة تنساب إلى الترعة أيضاً و يلاحظ انهم لم يستخدموا المفرقعات، لأن المفرقعات تحدث دو ياً ينبه الانجليز إلى النسف، ويحدد لهم مكانه فيسارعوا إلى الاصلاح، بحيث تكون المضايقة أقل!

وتوجه اثنان آخران، إلى أسلاك التليفونات الارضية (الكابلات)، ورغم أنها مدفونة إلى عمق كبير، فقد أخذوا يحفرون عليها ثم قطعوها أيضاً بالفؤوس، وقد اختاروا منطقة تقع على مقر بة من بعض الترع والمصارف، ثم عادوا إلى أماكنهم.

وفي الصباح كان ثلاثة من رجالنا القناصة يحومون على مقر بة من المكان، وهم يلبسون ملابس الفلاحين في المنطقة، بينما كانت سيارة جيب صغير تنتظرهم غير بعيد وراء بعض الأشجار. واستمروا على هذه الحالة إلى ما بعد الظهر، وقبل الغروب جاءت سيارة جيب عسكر ية تسير على خطوط التليفونات حتى صادفت مكان القطع، فتوقفت عنده، ونزل ثلاثة جنود بر يطانيين للعمل في إصلاح الخط، وحينذاك تسلل القناصة الثلاثة إلى حافة المصارف، وتناولوا بنادقهم التي كانوا قد خبأوها في الاعشاب، وصوبوا جيداً ثم أطلقوا الرصاص: ووقع جندي بر يطاني، وجرح الثاني، بينما اخذ الثالث يطلق عليهم النار من بندقيته، حتى أدركوا سيارتهم وانطلقوا بها.

وفي السيارة رأوا دماءاً تنضح على سروال أحدهم، فشقوا السروال وتبين لهم ان رفيقهم «حسن الجمل» مصاب برصاصة في فخذه!

وفي السويس تكررت أمثال هذه العملية ضد أنابيب المياه وكان الرجال يتسللون كل يوم تقريباً ليتلفوا هذه الأنابيب، مرة بالمفرقعات، ومرة بالفؤوس، وحين يأتي العدو لإصلاحها يكونون مستعدين لإطلاق النار، أما في منطقة الاسماعيلية فقد كان يوسف طلعت يعد الشراك الخداعية، وهي شراك لم تكن تتكرر على صورة واحدة مرتين، فأحياناً لغم ضغط واحياناً قنبلة يدوية مدفونة في الارض، وأحياناً كمية مفرقعات معبأة بعناية في طرف الجزء الفارغ من أنبوب الماء المنسوف ومتصلة بأسلاك كهربائية مدفونة في الارض الى مسافة كافية، وهناك في داخل حقل من الحقول يوجد شاب يجلس الى الجهاز المفجر فاذا جاء جنود العدو ضغط على الجهاز فينفجر اللغم و يقتل الجميع ثم يولي هارباً ... وهكذا ...!

نسف القطارات!

تعتبر خطوط السكك الحديدية اهدافاً جيدة لرجال المقاومة السرية وهي على اهميتها القصوى بالنسبة للعدو من اسهل الاهداف أيضاً، فان اخراج قطار عن قضبان السكك الحديدية ربما لا يكلفك أكثر من ان تنزع بعض هذه القضبان من اماكنها ليتعثر القطار وتتصادم عرباته ثم ينقلب بعضها فيموت الكثيرون، وربما لا تتصور مقدار الاذى الذي تلحقه بالعدو وانت تقوم بهذه المهمة السهلة -نزع بعض القضبان- إنها تؤدي الى قتل بعض الجنود، ثم الى عرقلة السير على هذه الطريق بضعة أيام، وتؤدي كذلك بالعدو الى حراسة هذه السكك الطويلة، وكل أمر من هذه الأمور يعتبر مشكلة معقدة لجيش نظامي. أما اذا كانت لديك القدرة على صناعة الالغام ووضعها تحت القطارات، فان الضرر يكون اكثر من ذلك بكثير، واذا استطعت ان تفعل ذلك اكثر من مرة، واستطاع زملاء لك ان يفعلوه في مناطق اخرى مرات كثيرة، فان العدو يقع في ارتباك ليس له حدود، ومرات كثيرة هي تلك التي نسف فيها رجال الاخوان قطارات العدو وهي تنقل الجنود او البضائع من الموانيء، واليك عملية واحدة قام بها شاب واحد!

سبق هذه العملية عمليات مماثلة ادت الى نسف بعض القطارات البريطانية، فلجأ

الانجليز الى خطة خبيثة هي تسيير قطارات الركاب المصرية في المقدمة، ثم ارسال قطاراتهم وراءها، فاذا كانت هناك الغام تحت الخطوط انفجرت في القطارات المدنية. وكنا قبل هذا الاجراء نضع انواعاً من الغام الضغط تحت القضبان فتنفجر تلقائياً بمجرد مرور أي ثقل فوقها، غير أن هذا التدبير البريطاني جعلنا نتردد في استخدام هذه الوسائل، مخافة أن تؤذي مواطنينا، وتحتم علينا أن نلجأ الى وسيلة اخرى هي تفجير الالغام حين نتأكد من مرور قطار بريطاني عليها، وواضح ان هذه الوسيلة تقتضي تعريض رجالنا للخطر، ولكن لم يكن أمامنا خيار!

كانت الخطوط الحديدية بجوار القنطرة تمر بين طريقين للسيارات، هما:

طريق المعاهدة، وطريق القناة، وكان الانجليز زيادة في الحيطة يسيرون دوريات مصفحة تسير بمحاذاة القطار لحراسته بعد ان تكررت عمليات النسف وكان على جماعتنا في القنطرة ان تقوم بنسف قطار بريطاني، بعد ان ابلغهم مندوبوهم في ميناء بور سعيد، أن هذا القطار يتحرك غداً في اتجاه الاسماعيلية، وعليه حمولة من الدبابات والبترول كما أن عربتين للركاب الحقتا به، لنقل سرية من الجنود، عدا عربة أخرى في المؤخرة تحمل عشرة جنود مسلحين لحراسة القطار. وأمام هذه المعلومات والاحتياطات تقرر القيام بعملية انتحارية، وطلب قائد المجموعة ان يتطوع أحد الاخوان لهذه العملية، فرغبوا جميعاً في القيام بها، حتى وصل الأمر الى مشادة حادة بينهم، وحينذاك اقترح عليهم اجراء قرعة، وقد وقعت القرعة على أكثرهم حماساً للمشروع، وهو عبد الرحمن البنان. واحب الآن ان انقل جزءاً من رسالة بعث بها احد هؤلاء الابطال بعد نجاح العملية:

«في المساء، انطلقنا مجموعة صغيرة من الاخوان الى المكان الذي تخيرناه للعملية واخذ بعضنا يدفن الالغام تحت القضبان، بينما انصرف البعض الآخر الى مد الاسلاك الكهربائية من السكة الحديدية الى المكان الذي سيختبىء فيه زميلنا عبد الرحمن عند القيام بالعملية وكنا قد تخيرنا له هذا المكان نهاراً وهو ليس اكثر من حفرة ارضية صغيرة لا تكفي الا لستر جسده حين يرقد فيها، وقد تحميه من شظايا الانفجار، وكانت لا تبعد عن الخط اكثر من مئتي متر.

والواقع اننا كنا نعتبر «عبد الرحمن» مفقوداً في هذه العملية، وننظر اليه كما ننظر الى

شهيد سيفارقنا بعد ساعات، وكان هو أيضاً يعرف ذلك وقد قضى ليلته يقرأ القرآن، و يصلي بصوت يسيل رقة وعذوبة.

والعجيب ان صاحبنا هذا تمرد على المكان الذي اخترناه له، ووصفه بانه بعيد!! واختار لنفسه حفرة اخرى لا تبعد اكثر من خمسين متراً، وليس له أي ساتر، الا نخلتين صغيرتين، الامر الذي جعلنا نتأكد اكثر من ذي قبل، انه سيقتل دون شك، فاذا كان سيستطيع النجاة من أثر الانفجار،فكيف سينجو من حرس القطار؟! وكيف سينجو بعد ذلك من السيارات التي ستعبر الطريق في تلك اللحظة؟ انه ليس بين نارين ـ كما يقول المثل ـ، ولكن بين عدة نيران مسلطة عليه من كل مكان. ورغم اننا حاولنا ان نثنيه عن عزمه، وان نقنعه باختيار مكان اكثر بعداً، إلا انه أصر على فكرته، وكان يقول لنا: انه ما دام سيتعرض للخطر فليتصرف اذن على أساس انه ميت فعلاً، و يقوم بالعمل الذي يؤدي لنجاح العملية دون ادنى اعتبار لسلامته!

وفي الصباح التالي، ذهب«عبد الرحمن»يتسكع قريباً من مكان العملية وهو يلبس ملابس عمال السكك الحديدية، وقبيل الظهر بدأ القطار يظهر قادماً من جهة بور سعيد، وهو يسير ببطء شديد، وكانت حراسته ـ كما وصفها لنا اخوان بور سعيد تماماً ـ عربتان وراء القاطرة مباشرة، وقد وضعت فيها أكياس الرمل،والجنود يجلسون وراء مدافعهم الرشاشة، وعربة ثالثة في المؤخرة على نفس الصورة، بينما تفرق جنود آخرون على العربات الاخرى، وعندما ظهر القطار، كان عبد الرحمن ينطلق الى المكان المختار و يصل الاسلاك بجهاز التفجير، وحين كانت القاطرة تمر فوق الالغام بحيث اصبحت عربات الحراسة فوقها مباشرة، ضغط صاحبنا على جهاز التفجير، فانفجرت الالغام الثلاثة، وخرجت القاطرة وسبع عربات عن الخطوط، بينما تقطعت الحبال الغليظة التي تشد الدبابات بعربات القطار، فانقلبت الى الارض وسقط الجنود الذين كانوا بالعربات المكشوفة. اما عربات الحراسة فقد نالتها الضربة المباشرة وتناثرت قطعها الخشبية مع أشلاء الجنود.

ولقد كنا نشاهد العملية من مكان مرتفع حين انفجرت الالغام، واخذنا يهنىء بعضنا بعضاً بهذا النجاح، إلا أن الحزن أخذ يعصر قلوبنا حين تذكرنا اننا فقدنا اخاً شجاعاً، وعدنا الى منطقتنا ونحن أشد ما نكون حزناً.

إلا انه في صباح اليوم التالي، رأينا «عبد الرحمن» يدخل علينا في منطقتنا، وعليه آثار التعب، ولم نصدق أعيننا، حتى أخذ يحدثنا. وسرت في المنطقة موجة من الفرح حين تأكدنا أنه لم يصب بأذى، وقد علمنا منه بعد ذلك أنه حين انفجرت الالغام خرج مسرعاً في اتجاه الحقول ولم يره الجنود الذين اصيبوا بالذهول إلا بعد فترة، فأخذوا يسلطون عليه النيران من كل صوب، ولكنه استطاع أن يصل الى ارض يغطيها نبات الفول فألقى بنفسه فيها، ورقد على الأرض، بينما استمر اطلاق النار، ولم يتمكن من القيام من مكانه مخافة ان يراه جنود العدو، فاستمر راقداً خمس ساعات لا يتحرك، وحين جاءت الدوريات وأخذت تفتش المنطقة، قال عبد الرحمن، انه سمع حديث الجنود الانجليز لا يفصلهم عن مخبأه الا أمتار قليلة، حتى خشي ان يمروا من فوقه!! ولكن الله صرف ابصارهم عنه فلم يروه، وحين دخل الليل خرج وسار في اتجاه مضارب البدو اصدقائنا، حيث استبدل ملابسه عندهم وقضى ليلة مريحة!

ومن طريف ما يذكر، أنه في نفس الوقت الذي انفجرت فيه الالغام في القطار كان احد القادة البريطانيين يزور قائد قوة البوليس المصري في القنطرة ليشكره رسمياً على محافظته على الامن في منطقته، وكانت قد مرت فترة لم تقع فيها حوادث ذات بال، وبينما هو يودعه ويصافحه، وقع هذا الانفجار الهائل، ورأى الضابط الانجليزي القطار عن بعد تتدحرج عرباته، فسحب يده وهو يقول: الافضل ان أذهب لأرى ما حدث، بدلاً من أن أشكرك! وركب سيارته مسرعاً والشتائم تتناثر من فمه!!

ولقد استمرت سيارات الاسعاف الانجليزية فترة طويلة وهي تنقل جثث الجنود الانجليز من تحت حطام العربات، كما تعطل هذا الطريق بعد ذلك خمسة عشر يوماً، ولم نخسر نحن أية خسارة تذكر، أللهم الا صياداً عجوزاً وابنه قتلهما الرصاص الطائش الذي أطلقه جنود العدو.

وحين أتم الانجليز اصلاح الخط، نسفته جماعة أخرى من رجالنا بعد هذا المكان بعشرة كيلومترات، وكانت هذه الجماعة من قوة بورسعيد بقيادة «يوسف علي يوسف».

ولقد نسفت القطارات على هذه الصورة، مرات عديدة في السويس، وخاصة بين المدينة وميناء الادبية، وهكذا في أقل من شهرين تعطلت شبكة المواصلات الحديدية

البريطانية تعطيلاً تاماً بفضل جهاد هؤلاء الشباب الذين استهانوا بالموت فكتبت لهم الحياة والنصر معاً.

البطولة مع الخطأ في التل الكبير

لم تكن اول مرة يضع فيها رجالنا الالغام على السكة الحديدية التي تربط التل الكبير بنقطة القناة، فقد سبق لهم ان مارسوا هذه العملية مرات عديدة، وكانت القطارات في كل مرة تخرج عن القضبان و يقع الجرحى والقتلى بين ركابها دون ان يقع بين رجالنا أية خسائر، بل دون ان تقع بينهم و بين قوى العدو اية معركة على الاطلاق!!

وكان العدو كالمعتاد يرسل بعض العمال لإصلاح الخط، فننسفه نحن في اليوم التالي، و يتعاقب الاصلاح من جانبهم، والتدمير من جانبنا كتعاقب الليل والنهار، غير ان الايام الأولى من شهر يناير عام ١٩٥٢ شهدت عملية واسعة بدأت بداية عادية، ثم تطورت تطوراً لم يكن في الحسبان!

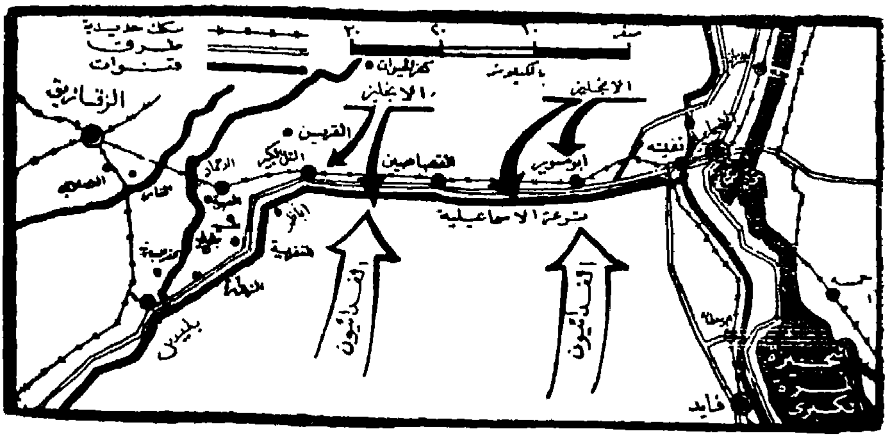
فقد وصلت قبل ذلك الوقت بقليل الى التل الكبير، قوة من طلابنا الجامعيين، بقيادة «حسن عبد الغني» لتعزيز مجموعتنا التي كانت موجودة هناك، وكان هؤلاء الشباب الجدد على درجة عظيمة من الحماس والاندفاع. ورغم ان «حسن عبد الغني» كان احد ضباط المتطوعين البارزين خلال حملة فلسطين، الا ان المجموعة التي عملت تحت قيادته كانت شديدة الجموح، الى درجة لم تفلح معها الحكمة والروية.

في ظهر ذلك اليوم من أيام شهر يناير الاولى، كان هناك بعض الشباب يلبسون الملابس الزرقاء كتلك التي يلبسها عمال السكك الحديدية، و يضعون على رؤوسهم قبعات ضخمة يتقون بها أشعة الشمس، ويحملون على اكتافهم «مقاطف» من الخوص معلقة على أطراف رافعات حديدية من التي يستعملها العمال لإصلاح قضبان السكك الحديدية. ولو كان هناك من يراقبهم لرآهم يتوقفون عند نقطة على الحدود، و يسمع أيضاً صوت اصطدام الرافعات بالقضبان، والعمال يصلحون القضيب و ينتزعون من تحته لوحاً خشبياً رأوه متآكلاً، وبعد نصف ساعة تقريباً تفرقوا عائدين الى البلدة، الا ان احدهم توقف على

مقربة من المزارع، واختار نقطة كثيرة الحفر وجلس فيها، بينما استمر الباقون في سيرهم. وبعد اكثر من ساعتين قضاهما صاحبنا يقرأ في كتاب معه، ظهر خيط من الدخان في الافق ثم ظهر قطار يتهادى على مهل، وحين أصبح محاذياً للمنطقة التي يجلس فيها صاحبنا، حرك هذا يده بقوة ضاغطاً على جهاز تفجير الالغام، فدوى انفجار هائل طغى على صوت القطار، واخذت العربات تلطم بعضها بعضاً بعنف، قبل ان تترنح وتسقط على جانبي الطريق. وفي خفة القطاة كان الشاب الشجاع يسرع عائداً في طريق البلدة، ودوت طلقات نارية في جميع الاتجاهات كان مصدرها حراس القطار، ولم يكترث الفلاحون المنتشرون في المنطقة، فقد تعودوا سماع هذه الانفجارات على السكك الحديدية حتى أصبحت مألوفة لديهم!

وفي اليوم التالي، شوهدت عربة صغيرة تجري على القضبان الحديدية، ثم توقفت عند مكان الانفجار، ونزل منها بعض الجنود البريطانيين ثم يسرعون في نزع القضبان الملتوية واستبدال قضبان أخرى بها، ولو نظر أحدهم عن شماله لرأى الزروع الخضراء تتحرك بشدة، وتنفرج صفحتها في خمس مواضع عن فوهات البنادق، ثم انطلق الرصاص عدة مرات وسقط ثلاثة من الجنود بينما اختبأ الاخرون وراء حافة القضبان واخذوا يطلقون الرصاص. ولم ينسحب رجالنا كما كانت العادة مكتفين بما حدث، وكأنما سرهم أن يروا جنود العدو الشجعان يخفون رؤوسهم وراء الرمال، فأخذوا يصوبون عليهم نيران بنادقهم واستمر تبادل اطلاق النار فترة اطول، وسمع رجالنا الاخرون في البلدة القريبة ما يقوله الفلاحون، من أن اخوانهم محصورون فخفوا الى نجدتهم مهرولين، وانتشروا على خط محاذ لمجرى الترعة، واستمروا في اطلاق النار، وتصادف بعد ذلك مرور سيارة عسكرية بريطانية تحمل بعض جنود البوليس الحربي على الطريق، فترجل جنودها، وأخذوا مواقع قريبة، ثم أخذوا هم أيضاً يطلقون النيران، وفي ذلك الحين كان بعض الشباب المسلحين من سكان القرى المجاورة وبعض الخفراء قد حضروا شاهرين بنادقهم يطلقون منها النيران على السيارة الانجليزية التي اصابتها مئات الطلقات فانفجر خزانها واشتعلت فيها النيران.

ولم يفطن رجالنا وهم منهمكون في اطلاق الرصاص، الى أن السيارات البريطانية كانت تخرج من المعسكر القريب وتندفع الى ساحة المعركة، وتقف غير بعيد، ثم يترجل منها



قطاع التل الكبير

سرية من الجنود ويستعدون لعملية تطويق واسعة بينما كانت قافلة أخرى من السيارات تتحرك من معسكر آخر، وتأتي من الناحية الاخرى.

وكان قائد جماعتنا في التل الكبير غير موجود في تلك اللحظة، إذ كان يحضر اجتماعاً مع زميله قائد المنطقة المجاورة في بلدة ابي حماد القريبة، وحين بلغه النبأ، ركب السيارة وعاد الى منطقته فوجد الحالة كما ذكرت، ولم يكن من السهل ان يسيطر على هذا الموقف أو يصدر أوامره بالتقهقر، فقد كان رجاله مبعثرين على خط طوله ميلان، وكان الفلاحون يطلقون نيرانهم من كل مكان، بينما كان الانجليز يطلقون مدافع الهاون ومدافع الميدان فتتناثر شظاياها هنا وهناك، الامر الذي جعل من المستحيل عليه أن يفعل شيئاً فأخذ يرقب المعركة وقد أسلم أمره لله!!

كان على القوة البريطانية لكي تكمل حلقة التطويق، أن تعبر جسراً على الترعة التي تشكل مانعاً امام المصريين ومن ثم اندفعت نحو الجسر، ولكن حراس الجسر من البوليس المصري أطلقوا عليهم النيران، فرد الجنود الانجليز عليهم ... وهكذا ... دخلت قوات البوليس في المعركة، ورغم أنهم قد بذلوا جهداً عظيماً لمنع العدو من عبور الجسر، إلا أن ضغط القوات الانجليزية ازداد عليهم واجتاحهم، بعد ان سقط منهم بعض الجرحى، وفي ذلك الحين كانت القوة البريطانية قد وصلت الى كتيبة كاملة تؤازرها خمس دبابات وعدد

من السيارات المصفحة، وكان قائد الكتيبة الانجليزي يدير عمليته الناجحة من سيارة كبيرة، وكانت الدلائل تشير الى ان الموقف اصبح ميؤوساً منه، إذ تمكن الانجليز بعد ست ساعات من اجتياح قوتنا ومحاصرة البلدة والمزارع المجاورة. ورغم أن الحصار قد ضاق على شبابنا، واتضح ان لا نجاة لهم الا بالتسليم، إلا انهم استمروا في اطلاق النار واصطياد جنود العدو، حتى نفذت ذخيرتهم تماماً، فحاولوا التسرب من خلال الطوق ولكن الرصاص انهمر عليهم، فاستشهد منهم من مات واستسلم الباقون للأسر.

وفي هذه المعركة مات رجلان من خيرة رجالنا، هما «عمر شاهين» و «أحمد المنيسي» كما مات معهم اخوان لهم من الفلاحين والخفراء النظاميين، أما الباقون فقد ذاقوا ألواناً من العذاب في معسكرات الأسر ظهرت آثارها بادية على أجسادهم بعد ان افرج عنهم الانجليز عند نهاية الحوادث.

في صباح اليوم التالي كانت الصحف المصرية تحمل أنباء معركة التل الكبير في صفحاتها الاولى، مشيدة بالبطولة الرائعة التي أبداها هؤلاء الشباب واعتبرته عملاً رائعاً ان يصبر عشرات من الشباب المسلحين بالبنادق الخفيفة ساعات طويلة امام مجموعة لواء من المشاة البريطانيين تؤازرهم الدبابات والمدفعية، والحق ان بطولة رجالنا في التل الكبير كانت فائقة حقاً، غير أنها لم تمنعنا من اعتبارها عملية خاطئة، وان نحاسب المسئولين عنها على هذا الاساس.

لقد كانت عملية التل الكبير مخالفة صريحة للمبدأ الأساسي الذي قررناه لحركتنا «الضرب السريع والهرب السريع» وقد خسرنا فيها كل مجموعاتنا بين شهداء وجرحى وأسرى، كما سببنا للبلدة خراباً كانت في غنى عنه.

أما الصحف البريطانية فقد عدته دليلاً جديداً على قوة المقاومة المصرية ومدى المتاعب الهائلة التي يعانيها الجيش البريطاني، فقالت جريدة الديلي ميرور[إننا لا نستطيع بعد الآن أن نقول عن قوات التحرير المصرية أنها إحدى الدعابات المضحكة، لقد وصلت المعركة إلى طور جديد واستمر القتال يوم السبت الماضي اليوم بأكمله، وظل المصريون يحاربون لواء «الكاميرون» و «الهايلاندرز» باستماتة عجيبة].

وقالت صحيفة «نيوز كرونيكل»: «إن المعركة إحدى المعارك الكبيرة التي ثبت فيها

المصر يون ولم يركنوا إلى الفرار وقد علق عليها أحد ضباطنا بقوله: إنها كانت أعنف من أي معركة خاضتها قواتنا أمام الصهيونيين في فلسطين».

ذلك كان رأي الصحف المصرية والصحف البريطانية وهو يختلف عن رأينا نحن، فقد اعتبرناها عملية خاطئة، أما القيادة البريطانية فقد اعتبرتها عملية ناجحة من وجهة نظرها، وظهر بلاغ بريطاني في اليوم التالي يقول: «ان هذه المعركة دلت على ان الارهابيين بدأوا يظهرون امامنا في معارك مكشوفة الأمر الذي يضاعف من أملنا في ابادتهم بسرعة!!».

شهيد

لا أدري لماذا ترى أحد الوجوه احياناً فيظل عالقا في ذهنك بشكل بارز، كأنه عنوان لقصة مثيرة لم تكمل بعد فصولها! وقد ترى هذا الوجه وسط مجموعة كبيرة من الناس لا يتميز عنها بشيء، بل ربما كان فيهم من يزيد عنه بالصيت أو الدرجة العلمية أو الماضي الطويل، ومع ذلك لا يبقى في ذاكرتك الا هذا الوجه وحده دون الناس جميعاً، وتظل تنتظر القصة تحت هذا العنوان البارز.

لقد مرت بي هذه التجربة مرات عديدة خلال حملة فلسطين، وكانت هذه الوجوه دائماً عناوين لقصص من سير البطولة والإستشهاد، حتى تكرر مني أكثر من مرة أن أشير على بعض أصحاب هذه الوجوه، وأقول مازحاً: هذا شهيد! وتصدق الأيام ظني بعد قليل، حتى أصبح الإخوان يخافون من نظرتي تلك و يرونها فألاً غير مرغوب فيه!

إن أوصافاً معينة يلتقي فيها أصحاب هذه الوجوه التي مرت بي: إشراق واضح لا تخطئه العين، وصفاء روحي تحس به، وعكوف على العبادة، كأن صاحبها مقبل على لقاء قريب، وحركات سريعة نشطة كأن قوة داخلية تحركه، تريد أن تشده إلى أعلى وتنطلق به بعيداً.

لقد رأيت هذه الشارات كلها في عمر شاهين، يوم زرت مجموعة الإخوان الجامعيين لأحيي أفرادها عندما وصلت الى أحد معسكرات التدريب في الشرقية، وكانت المجموعة تستعد لتناول طعام الغداء، ولفت نظري شاب حديث السن وسيم الخلقة يقفز من مكان إلى

مكان وفي فمه صفارة و يصدر أوامره، ثم يطوف على إخوانه ليستمع إلى مطالبهم ثم يمزح مع هذا و يربت على كتف ذاك، وسألت احد الإخوان ولعله حسن دوح، عن اسمه فقال عمر شاهين، فقلت له هامساً ما اظن صاحبك هذا إلا شهيدا! وكانت هذه هي المرة الاولى والأخيرة التي رأيت فيها هذا الشهيد الكريم قبل أن يقع صريعاً في معركة التل الكبير.

احراق مخازن البترول

إن احراق البترول يعتبر من الاعمال السهلة مع ما فيه من خسارة عظيمة لجيش العدو، وكلما استطاع رجالنا ان يتلفوا مخازن البترول، كان ذلك سبباً في اضعاف الجهاز الآلي للعدو، وتضييق حركاته. ومن بين الأعمال التي تعتبر نموذجاً للعمل ضد هذه الأهداف احراق مخازن البترول في سفح جبل عتاقة بالسويس.

فقد اختار العدو هذه المنطقة المنعزلة في الصحراء وبنى فيها مستودعات في باطن الأرض لخزن السوائل النفطية بأنواعها. وكانت ناقلات النفط ترسو في خليج السويس قريباً من المنطقة حيث تقوم السيارات بنقل كميات كبيرة منها الى هذه المخازن التي اعتبرت بحق المخازن الرئيسية للبترول في منطقة القناة، ولم تكن جماعتنا في السويس تجهل اهمية هذه المخازن وأثرها، فقررت احراقها ورأت ان تستفيد من وجود العمال المصريين الذين يعملون فيها، ولم يكونوا جميعاً قد تركوا اعمالهم بعد، وكلفت احد رجالها من هؤلاء العمال بهذه المهمة.

وفي اليوم المقرر لتنفيذ العملية استأذن هذا العامل رئيسه الانجليزي في ترك العمل قبل الموعد المحدد بساعتين، لأنه يشعر بألم حاد في معدته، فسمح له، وبدلاً من أن يخرج من الباب تسلل الى كومة من الصناديق الفارغة واختبأ في داخلها حتى انتهى وقت العمل وخرج جميع العمال عائدين الى بيوتهم، ثم خرج الانجليز بعدهم، ولم يبق الا حراس المخازن، الذين اخذوا يطوفون حول الاسلاك الشائكة. وانتظر صاحبنا ساعات اخرى حتى انتصف الليل، وبدأ الحراس أيضاً يغالبون النعاس، فانسل من مكانه بخفة ومضى الى مكان قريب حيث أخذ لوحين من الخشب ونقلها الى نقطة بجانب الأسلاك الشائكة ثم تركها وعاد الى المخازن. وأخذ يجمع بعض قطع الخيش و يصنع منها حبلاً طويلاً، ثم يبلله بالبترول

والزيت ويلقي بطرفه بجانب الصفائح التي تكدست في صفوف طويلة، كما نقل بعض هذه الصفائح، وأحدث بها ثقوباً وترك محتوياتها تتدفق بجانب الخزانات الضخمة. ولما اطمأن الى عمله اشعل اعواداً من الثقاب والقاها على الحبل المفتول، ورأى النار تسري بسرعة في الحبل فمضى مسرعاً وتناول لوحي الخشب والقى بهما على الأسلاك الشائكة. واستمر ثم تراجع الى الوراء وتسلق عليهما بكل ما أوتي من قوة، ثم قذف بنفسه بعيداً فوقع خارج الأسلاك الشائكة. واستمر يعدو ثم توقف بعد أن ابتعد مسافة كافية، فسمع الحراس يلغطون بعد أن سمعوا حركته وسلط نور كشاف ينبعث من أحد أبراج الحراسة وأخذ يبحث حوله كأنه عين وحش خرافي تبحث عن فريستها حتى سقط عليه فلم يتحرك واستمر الضوء مسلطاً عليه. ثم ساد الظلام من جديد، ونظر فاذا الأنوار الكاشفة مسلطة على مكان في المخازن تندلع منه السنة اللهب، ثم دوت انفجارات خافتة متقطعة، وعرف ان صفائح البترول بدأت تنفجر وكان اللهب يتضاعف بعد كل انفجار، وحين قام من مكانه وواصل سيره نظر خلفه فإذا صفحة الافق تبدو وراءه مشتعلة، وكتل من اللهب تتصاعد مع كل انفجار جديد. ولقد استمرت الانفجارات يومين كاملين وعبثاً حاول الانجليز السيطرة على النيران، حتى أكلت المخازن جميعها، وأتلفت مخازن البضائع. ولقد استطاع العدو أن يعيد بناء هذه المخازن بعد شهرين من الزمن وأن يعاود تفريغ البترول فيها ولكن خسارته كانت عظيمة على كل حال.

ولم يستطع رجالنا بعد ذلك أن يقتربوا من هذه المخازن بعد ان احتاط العدو في حراستها احتياطاً قوياً، فأخذوا يتسللون الى المخازن الفرعية ويحرقونها، كما اخذوا يضعون الألغام الزمنية في مضخات البترول التي أقامها العدو في مناطق كثيرة لتزويد قوافله العسكرية بين المعسكرات.

مهاجمة بعض المطارات

إن الطائرات هدف كبير الإغراء بالنسبة لرجل العصابة، وليس سبب ذلك انها سلاح كثير التكاليف عظيم القيمة بالنسبة للعدو فحسب ولكنه - اي الطائرة - خصم تقليدي لدود لرجال العصابات، وقد قاسينا منه الشيء الكثير، إن بنادق الأعداء لا تستطيع أن تصيبك

إذا اتخذت ساتراً جيداً وراء حفرة من الأرض، واحتمالات نجاحك من قذائف المدفعية مهما كانت احجامهااحتمالات قوية، اذا دخلت منطقة وعرة، أو اختفيت وراء بستان من الأشجار، ولكن هذا السلاح اللعين «الطائرة»، يستطيع أن يصلك في أي مكان، ويحلق فوق رأسك ثم يحمل لك معه قذيفة البندقية أو القنبلة في أي منطقة تكون فيها، ولذلك وجب أن نضرب هذا العدو العنيد كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا، والمفروض أننا لا نملك طائرات تطارد طائرات العدو، وليست لدينا مدافع مضادة للطائرات، وإذن فليس أمامنا إلا أن نهاجم هذاالعدو وهو يغط في نومه على أراضي المطارات حيث يكون في أضعف حالاته. وهذه الآلة الجبارة رغم قوتها العظيمة ومداها البعيد، يمكن احباط فعاليتها بأبسط الوسائل. دفعة واحدة من مدفع رشاش على غرفةالآلات في المقدمة،أو قنبلة يدوية على هذه الغرفة إذا استطعت أن تقترب أكثرمن ذلك، ولكن ينبغي أن تدرك ان العدو النظامي يعلم أيضاً هذه الحقائق كلها، ولذلك يحيط المطارات -عادة- بحراسات قوية أكثر من أي مكان آخر...

لقد راودنا هذا التفكير، وتعددت محاولاتنا ضد هذه المطارات، ولكن هذه المحاولات كلها -نعم كلها- لم تلاق النجاح الذي اردناه بسبب هذه الحراسات القوية، ولكنا مع هذا استطعنا ان نحدث ببعض المطارات بعض الرضوض وهاك نموذجاً لها:

خرجت جماعة من قواتنا في الإسماعيلية وهدفها مطار «الديفرسوار» وكان قد سبق لها استكشاف هذا المطار في النهار، وعلى ضوء هذا الاستكشاف وضعت خطة جيدة وسار العمل كما هو مرسوم، فتقدمت الجماعة ليلاً واستطاع بعض أفرادها ان يتسللوا في أرض منتخبة، حتى وصلوا إلى الأسلاك الشائكة. وكانت أنوار الكشافات الضخمة تسير مع الأسلاك مما حدا بهم إلى الزحف على بطونهم والتوقف تماماً حين تقترب منهم دوائر الضوء الكبيرة، وكان هدفهم أن يكسبوا أكبر وقت ممكن قبل إطلاق النيران عسى ان يتمكنوا من فتح ثغرة في الأسلاك، وقد نجحوا فعلاً، ولكن بعد مضي وقت طويل، وحين تم لهم ذلك، اتخذوا مواقع على جانبي الفتحة، وقذف أحدهم حجراً على زملائه الآخرين، فتقدموا وليس معهم إلا المدافع الرشاشة والقنابل اليدوية، وعبروا الأسلاك. وكان هناك بناء صغير نظروا من نافذته، فإذا هو غرفة الأجهزة اللاسلكية، وتوقف أحدهم، بينما انطلق الباقون في

اتجاه حظائر الطائرات، وفجأة رأوا أنفسهم داخل دائرة من الضوء كادت ان تتجاوزهم، ولكنها سرعان ما عادت تحيط بهم مرة ثانية وتتوقف فوقهم، لقد انكشف الأمر ورآهم الحراس، فصرخوا يطلبون كلمة السر، وجاء سيل من النيران وراءها، حين عجزوا عن الرد فارتدوا للوراء مسرعين يحتمون بجوار الغرفة، واطلقوا النيران وقذفوا بعض القنابل في اتجاه خطي الطائرات، ولكنها كانت بعيدة والأرجح أنها لم تتأثر، وقذفوا قنابلهم على المحطة اللاسلكية، فدمروا اجهزتها، وأطلق أحدهم طلقة سبحت مع سيل الضوءالمنبعث من الكشاف وهشمت زجاجه فساد الظلام من جديد وكانت فرصتهم الوحيدة للنجاة فعبروا الثغرة واستمروا في سيرهم هاربين.

هل أصيبت الطائرات؟ هل قتل بعض الجنود؟ لا احد يدري. إن البلاغ البريطاني لم يذكر شيئاً من ذلك وإن اعترف ان محطة اللاسلكي أصيبت ببعض الأضرار.

محاولة جريئة اخرى.

لم تنقطع المحاولات ضد المطارات، وكانت معظم الحوادث تؤدي الى نتائج كتلك التي ذكرت الآن، ولكن الإخوان لم يقنعوا بذلك، فصمموا على القيام بغارة كبيرة على احد المطارات الهامة في «كسفريت» بالقرب من السويس. ورغم أن هذه العملية لم تؤد لشيء ولا حتى للنتائج المحدودة التي أدت لها العمليات الصغيرة الا انها تصلح مثالاً جيداً على أن عزمات الرجال الأشداء لا يقف أمامها شيء، وان الطبيعة بصحراواتها الشاسعة المقفرة الخالية من الانسان والنبات لا يمكن أن تصمد أمام عناد المؤمنين.

لقد وضع الصاغ الإحتياط محمود عبده ــ وهو الذي تسلم القيادة العامة للحركة في ظروف سأذكرها بعد قليل ــ وضع خطة لعملية جريئة اراد بها نسف هذا المطار نسفاً كاملاً، وقد اختار هذا المطار بالذات لعمليته تلك، لأنه يقع في داخل المعسكرات وقريباً من منطقة صحراوية قاحلة لا يسكنها انسان الى مساحات شاسعة، وقد رتب محمود عبده خطته على أساس أن هذا المطار لن يكون محروساً بنفس القوة التي تحرس بها المطارات القريبة من الخطر، ولن يتصور الإنجليز أن إنساناً يستطيع ان يعبر هذه الصحراء المهلكة!!

غير ان مجموعة من رجالنا بقيادة «لبيب الترجمان» عبرت هذه المفازة ومعها أسلحتها ومفرقعاتها ومؤونتها عبرتها سيراً على الأقدام ومن طرق جبلية لا تسير عليها إلا جمال البدو في رحلات متباعدة، وحين اقتربوا من نهاية الصحراء وبدا السهل الذي يقع بين المطار مكشوفاً أمامهم، كمنوا نهارهم بين الحفر حتى جاء الليل وكان يمكن أن تتم هذه المغامرة الجريئة، لولا أن لعبت الصدفة دورها السيء — وكثيراً ما تلعب هذا الدور رغم التحضير والمتاعب — فحين اقتربوا من المطارات ظهرت وراءهم دورية سيارة ويبدو أنها لمحتهم قبل أن يتواروا عنها، فتقدمت نحوهم وتبادلت معهم بعض النيران، ولكنهم استطاعوا أن يفلتوا الى الصحراء مرة أخرى، وكان واضحاً من تجاربهم السابقة ماذا سيحدث بعد ذلك حين يطلع النهار وتأتي سيارات العدو للملاحقة والتفتيش، وتطلق الطائرات على منخفض لتفتش هي الأخرى، فعادوا مسرعين في طريق العودة ولم تطلع عليهم شمس اليوم التالي حتى كانوا يختفون في مضارب البدو بعيداً جداً، وهكذا فشلت العملية قبل أن تحقق غايتها، **ولكن بقيت منها قصة رائعة ستظل خالدة: وهي أن رجالاً قلائل تغلبوا بعزماتهم على ما يتصوره بعض الناس من المستحيلات!! ولعلها تصور أكثر من أي حادثة أخرى روح الإستماتة والتصميم التي كانت تحمل شباب الاخوان على الاستهانة بالموت وتسوقهم إلى ميدان التضحية!!**

أعمال «الاستدراج»

إن استدراج العدو خارج معسكراته إلى معركة نكون نحن قد أعددنا لها العدة مسبقاً، من الأمور التي يجب أن تنال عناية كبرى من قادة العمليات العصابية.

والاستدراج يمكن أن يأتي تلقائياً، كرد فعل مباشر من العدو، دون أن تبذل فيه أي جهد. ذلك لأن العدو النظامي ربما يطاردك إذا أنت قمت بالإغارة عليه، وهذه العملية «المطاردة»، من وجهة نظر العدو يمكن ان تكون هي «الاستدراج» من وجهة نظرك أنت، والفرق في الحالتين أن المطاردة هي عملية يشنها العدو وراءك حين تبدأ في التقهقر، بينما الاستدراج عملية تقوم بها أنت لتشده اليك إلى أرض منتخبة ثم تضربه هناك. والتحضير

الجيد منك هو الذي يتحكم في هذه العملية، و يعطي لها صورتها النهائية، فاذا أنت هربت من وجه العدو المطارد إلى أرض منتخبة وأخفيت فيها بعض القناصة، أو مدفع هاون، أو استدرجته إلى كمين معد بعناية، أو إلى طريق تخفي فيه حقل ألغام، فتلك عملية «إستدراج» ناجحة. أما إذا هربت من وجهه دون تحضير سابق، واستطاع هو أن يواصل اللحاق بك، فتلك هي عملية المطاردة الناجحة.

ولقد قمنا نحن بهذا النوع من العمليات في مرات كثيرة، قمنا بها -أو في صورة من صورها- حين اضطررنا العدو إلى ترك المعسكرات، وتنظيم حراسات ود وريات على طول خطوط السكك الحديدية، وانابيب المياه، واسلاك التليفونات، ثم أخذنا نهاجم هذه القوات المنتشرة، وقمنا بها في صورة أخرى حين ألزمناه بوضع نقط ثابتة على طرق المواصلات ليمنع تسرب رجالنا إلى المنطقة. على أن اروع ما عملناه في هذا الباب حين اضطررنا قوته الآلية إلى محاولة اللحاق بنا في الأراضي الرملية، وهو فصل سيأتي دوره عند الحديث عن البدو والبادية!

محاولة لاغتيال القادة

كان رجالنا يعرفون أن اغتيال قادة العدو يحدث من الذعر بين صفوفهم أكثر مما تحدثه الهجمات الأخرى، ولذلك وضعوا في برنامجهم اغتيال بعض القادة المرموقين. ورغم اننا نجحنا في قتل بعض صغار الضباط في العمليات، الا اننا رغم المحاولات الكثيرة لم ننجح في اغتيال أحد من القادة الكبار، من وزن «جرين اكر» أو «اكسهام» واليك إحدى هذه المحاولات...

تعود البريجادير «اكسهام» قائد قوات العدو في المنطقة الوسطى، «الاسماعيلية»، -وهو من أنشط قادة العدو وأكثرهم جرأة- تعود ان يخرج في أحيان كثيرة بلا حراس إلا سائقه الخاص، للتفتيش على قواته المنتشرة على الخطوط بين حين وآخر، وكان رجالنا يراقبون حركاته باهتمام شديد، وقد أخذوا يترصدون له في أكثر من موضع، حتى ظفروا بسيارته في أواخر ديسمبر تسير على طريق الاسماعيلية بالقرب من «نفيشة»، فألقوا في

جزئها الخلفي قنبلة يدوية انفجرت في الداخل وهشمت السيارة وأصابت سائقها إصابات بالغة، وسرى الخبر ان الجنرال الكبير قد قتل!! ولكنه في صباح اليوم التالي شوهد يدخل على محافظ الاسماعيلية، و يتقدم احتجاجاً شديداً على ضرب سيارته .... ذلك لأنه لم يكن موجوداً في السيارة في ذلك اليوم وجاءت الضربة من نصيب «ألن» سائقه المسكين!!

نسف الجنود بحيل مبتكرة

في الاسماعيلية نظم رجال المقاومة هناك بعض عمليات كانت تعتمد على الحيلة والابتكار، فحين كان الانجليز يحاصرون الأحياء العربية ولا يسمحون لأحد كائناً من كان بالاقتراب منهم إلا وأطلقوا عليه النيران، وضح لرجالنا أن الوصول اليهم شيء مستحيل، وان اطلاق النار من النوافذ القريبة يعرض السكان المدنيين لأشد الاخطار، وكان ان لجأوا إلى حيلة طريفة...

كان الجنود الانجليز يقفون وراء بوابة الجمرك في الاسماعيلية وبجانبهم سيارتهم وكانوا منهمكين في حديث ضاحك حين رأوا عربة صغيرة محملة بثمار البرتقال يدفعها شاب ذو ثياب رثة تدل على فقر شديد، وهو ينادي على برتقاله الجيد، وحين اقترب منهم نادى عليهم إذا كانوا يرغبون في شراء بعض البرتقال، فطلبوا منه أن يقترب منهم وأخذ كل واحد منهم ينتقي لنفسه بعض الثمار، ثم ناولوه النقود فاعتذر بأنه ليس لديه نقد صغير، ورجاهم ان ينتظروا قليلاً حتى يحضر لهم الباقي، تاركاً لهم عربته، راجياً منهم ان يحافظوا عليها. ولما كانت كمية البرتقال كثيرة بحيث يستحيل أن يهرب بالمال الباقي معه، ولعلهم أرادوا ان يظفروا بثمار زائدة عن حقهم في غيبة صاحبها، فقد تركوه وأخذوا يأكلون برتقالاتهم و يواصلون سمرهم، وحين تأخر صاحبنا عن العودة بدأوا ينظرون في ساعاتهم في ملل ظاهر، وفجأة دوى انفجار هائل مزق الجماعة من الجنود شر ممزق، وهز أركان المدينة. وحين جاء البوليس الحربي على الاثر استطاع ان يعرف السبب حين رأى العربة وحمولتها من البرتقال تتناثر مع أشلاء الجنود!!

٨ ـ الجيش المصري والمعركة

أصبح من الامور المؤكدة ان العصابات لا تستطيع ان تحسم بمفردها حرباً ثورية، ولكنها تستطيع ان تقدم عوناً فعالاً لجيش نظامي وطني يعمل على سحق العدو واحتلال الأرض التي يقف فوقها. وإذا ما وجدت القوتان أعني العصابات والجيش النظامي الوطني الذي تعمل لحسابه، فان نصيب العصابات يكون في القيام بعمليات تهدف إلى خلخلة قوى العدو وإشاعة الذعر والاضطراب في صفوفه، تمهيداً لضربة كاسحة يقوم بها الجيش، او اشغال العدو في منطقة ما لدفعه إلى جلب قوات لهذه المنطقة بينما يكون الجيش النظامي يعد نفسه للهجوم على عدوه في منطقة أخرى.

وبديهي انه لا يمكن للقوتين ان يحققا النتيجة المطلوبة إلا إذا عملا وفق خطة موحدة وتوفرت لهما درجة كافية من التنسيق والانسجام.

ولقد عبر الزعيم الصيني الشيوعي ماو تسي تونغ عن هذه الحقيقة تعبيراً جيداً حين قال «ان الجيش النظامي الوطني ورجال العصابات كاليدين للجسد الواحد وعليهما ان يعملا معاً إذا أرادا التوصل إلى نتيجة حاسمة» ولقد كنا نحن نحس بفراغ كبير ونشعر ان حركتنا المسلحة تسير عرجاء وتضرب بيد واحدة حين كنا نصارع العدو وكان جيشنا النظامي يقف موقف المتفرج، بل لقد كان الأمر أخطر من ذلك إذ كنا نضع في حسابنا ان هذا الجيش ربما ضربنا من الخلف إذا صدرت إليه أوامر القصر الملكي بذلك، فهل كان السبب هو خيانة ضباط الجيش المصري وجنوده وانعزالهم عن الحركة الوطنية؟ ام كان سببه هيمنة الانجليز والسراي على مقدرات هذا الجيش؟ لنعد إلى هذه القضية من بدايتها...

الجيش بين الانجليز والشعب والملك

إذا استرجعنا تاريخ الحملة البريطانية العدوانية على مصر فإننا نجد ان الانجليز نزلوا مصر -أو هكذا تذرعوا- بحجة حماية العرش الخديوي من ثورة عسكرية تزعمها ضباط الجيش، وان هذا السبب أدى إلى قيام حلافة قوية بين الانجليز والخديوي توفيق لتحطيم الجيش واستئصال الروح الثورية من بين صفوفه. ولقد كان الانجليز ينظرون للجيش حتى آخر يوم نظرتهم إلى خصم مغلوب ينبغي ان يراقب جيداً ليبقى مقلم الاظفار، وقد كانت هذه هي أيضاً نظرة الخديويين إلى الجيش. إلا أن هذا التحالف بين الانجليز والعرش لم يلبث ان ضعف بمضي الزمن، وحين تغيرت الظروف وتضاربت المصالح اختط كل فريق لنفسه خطة تجاه الجيش تحقق مصلحته، فبينما كانت سياسة الانجليز تهدف إلى اضعاف الجيش والسيطرة عليه بحرمانه من الاسلحة والتدريب وتجميده عن ملاحقة التطور المستمر في الفنون العسكرية واخضاعه لقادة من الانجليز يتحكمون فيه، أو بعثات تدريبية فنية لا تمارس السلطة في ظاهر الأمور ولكنها في الحقيقة تهيمن على كل صغيرة وكبيرة، ولقد أدت هذه السياسة إلى النتيجة المرجوة وهي الوصول بالجيش إلى درجة سيئة من الكفاية والمقدرة ظهرت ثمارها الوخيمة حين قدر لهذا الجيش ان يصطدم بالعصابات الصهيونية في أرض فلسطين، نقول بينما كانت هذه هي سياسة العدو تجاه الجيش الوطني، كانت سياسة القصر تختلف بعض الشيء في الوسائل ولكنها تؤدي في النهاية إلى النتيجة ذاتها!

كان القصر وخاصة أيام فاروق لا يكره ان يكون صاحب جيش قوي يحميه من الشعب وينفذ به الاحلام التي كانت تدور في رأسه، ولكنه كان يحرص من ناحية أخرى على أن يتولى القيادات الكبرى في الجيش ضباط موثوقون عند صاحب التاج وأكبر ميزتهم انهم يحسنون التملق اليه ولا يخرجون عن ارادته قيد شعرة. أما الخبرة والدراية فأمور تأتي في المرتبة الثانية أو الثالثة من الأهمية. ولقد أدت هذه السياسة فعلاً إلى عزل الجيش عن الحركة الوطنية بل إلى التسلط عليها ومحاربتها حين كانت هذه الحركة تصطدم مع مصلحة العرش وصاحبه -وكثيراً ما كانت تصطدم!

ولم يكن فاروق يجهل ان الوعي الوطني يزداد بين صغار الضباط، وان الحركات الشعبية الوطنية قد أخذت طريقها إلى صفوف الجيش فأخذ يكثر من الجواسيس بين الضباط، كما استخدم وسائل البطش ضد الوطنيين منهم، وحين شعر ان هذه الوسائل لم تعد تجديه في وقف تسرب الروح الوطنية في الجيش عمد إلى تشكيل عصابة أطلق عليها اسم «الحرس الحديدي» لارهاب الضباط الوطنيين واغتيالهم عند اللزوم، وإذا كانت سياسة الانجليز قد أدت في مداها البعيد إلى التجارب الفاشلة التي تعرض لها الجيش في فلسطين، فان سياسة الملك فاروق قد أسهمت هي الأخرى في هذه النتيجة!

غير ان هذه الوسائل كلها -كما ثبت فيما بعد- لم تمنع تسرب الوعي الوطني الذي أخذ يتعاظم في الخفاء ويطفو على السطح في بعض الأحيان، على صور حركات تمردية اصلاحية ظهرت على هيئة الحركة التطهيرية التي تزعمها «الفريق عزيز المصري» ونفر من صغار الضباط، وكان هدفها التخلص من النفوذ الانجليزي واتاحة فرص التدريب والقيادة امام الضباط المصريين، وظهرت مرة أخرى على صورة تمرد كبير، قاده البكباشي «رشاد مهنا» أدى إلى تحقيق بعض مطالب الضباط في استبدال ضابط آخر يرضى عنه الجيش برئيس الأركان حينذاك اللواء إبراهيم عطا الله ، ثم اخيرا في الحركة العسكرية الكبرى التي قادها اللواء محمد نجيب في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والتي أدت إلى طرد فاروق، واسدال الستار على الملكية الفاسدة واعلان الجمهورية المصرية لأول مرة. وإذا كان المراقبون لتاريخ مصر خلال السنوات العشر الأخيرة يعتقدون ان تسرب الحركة الوطنية لصفوف الجيش كان عاملاً حاسماً في توحيد قوى الشعب والجيش وبالتالي في قيام حركة ٢٣ يوليو العسكرية، فإن جهود الاخوان المسلمين لتحقيق هذه الغاية ليست من الأمور التي يمكن نكرانها إذا أريد رواية تاريخ هذه الحقبة الأخيرة بتجرد وإنصاف.

لقد بذل الأخوان المسلمون جهوداً كبيرة لكسب هذا الجيش إلى صفوف الشعب في نضاله الوطني، جهوداً بذلها جبابرة مات بعضهم في منتصف الطريق، بينما لا يزال بعضهم يتذوق الآن ثمار هذه الجهود حلوها ومرها!

وإذا ذكر هذا الرعيل من المجاهدين، فينبغي ان يوضع على رأس القائمة ضابط كفء بذل عمره كله ينتظر هذا الامل ويشقى في سبيله ولكنه مات قبل قيام حركة ٢٣ يوليو

بعام واحد، ذلك هو الصاغ «محمود لبيب» الذي شغل منصب الوكيل العام للإخو
المسلمين لشؤون الجيش!

***

تلك كانت حالة الجيش المصري حين انفجرت معركة القناة: جيش ضعيف تنقصه الخبرة كما ينقصه السلاح، ولما يمض على خروجه من فلسطين منهزماً إلا اقل من ثلا أعوام، وقيادته العليا ألعوبة في يد ملك طائش يكره المعركة القائمة كما يكرهها الانجليز سد بسواء، والضباط الوطنيون فيه قلة متسترة تتحرك في نطاق من جواسيس القصر وارصاد ولا تستطيع ان تفعل شيئاً ذا بال. لقد كان أمراً منطقياً ان يبقى الجيش في مجموعه بمع عن المعركة، غير ان القلة الوطنية من الضباط بذلت معنا مجهوداً لا سبيل إلى انكاره و مجهود ان يكن بدا لهم في حينه ضئيلاً فقد كان بالنسبة الينا عظيم الأهمية، بل توقف ع في بعض الأحيان نجاح عملياتنا إلى حد كبير.

وعلى الرغم من اعتزال الجيش المصري للمعركة وابتعاده عنها فان الانجليز لم يترـ وشأنه، ولم يكفوا عن ارهاقه بالمضايقات!

احتلال الفردان

لم تظهر ثمار السياسة الارتجالية التي اتبعتها الحكومة في أقبح صورها كما ظهرت حـ برزت مشكلة القوات المصرية التي كانت مرابطة في سيناء وقطاع غزة في ذلك الحير فقد ثبت ان الحكومة لم تضع خطة لتموين هذه القوات الكبيرة كما لم تستشر قادة الجيش حين أقدمت على إلغاء المعاهدة وربما لو فعلت لاشاروا عليها بتخزين كميات كبيرة ، التموين لحساب هذه القوات ولحساب قرابة نصف مليون من السكان المدنيين في تلـ المناطق مما أدى إلى وقوعهم جميعاً فريسة الحصار حين رأت القيادة البريطانية ان تبـ خطتها في مضايقة الجيش.

لقد كانت القوات الرئيسية للجيش المصري ترابط على الحدود المصرية في سيناء وشـ غزة وكانت تعتمد في تموينها على ما يصل من وادي النيل، ولم يكن يربطها بقواعد

التموينية -فيما عدا ناقلات صغيرة في مناطق مختلفة على مجرى القناة- إلا شريط السكك الحديدية الذي يعبر القناة فوق جسر الفردان القائم بين الاسماعيلية والقنطرة، وحين احتل الانجليز هذا الجسر وطردوا القوة المصرية التي كانت قائمة على حراسته وأوقفوا سير القطارات أياماً معدودة ظهرت نتيجة الارتجال في أسوأ اشكالها ووقعت حالة قريبة من المجاعة بين القوات المصرية والمدنيين في شرق القناة، ورغم ان الانجليز قد استأنفوا السماح للقطارات بالسير إلا انهم عادوا ومنعوها مرة أخرى ثم أخذوا يوقفونها ويجرون عليها تفتيشاً دقيقاً قبل ان يسمحوا لها باستئناف سيرها، الأمر الذي أدى إلى اضطراب تموين الجيش كما أشرنا من قبل.

وقد دلت تحرياتنا بعد ذلك ان الانجليز هدفوا من هذه الحركة الى غرضين: اولهما اتخاذ مصير القوات المصرية في فلسطين قضية للضغط والمساومة، وثانيها التفتيش عن الاسلحة والذخائر وعناصر المقاومة التي كانت تتسرب من شبه جزيرة سيناء ومن مديرية الشرقية الى داخل منطقة القناة، وقد ادت هذه الحركة فعلا الى تحقيق الغرض الاول الى حد ما، ولكنها نجحت نجاحا تاما في منع تسرب رجالنا الى منطقة القناة عن هذا الطريق وان كانت قد فشلت في منع تدفقهم حين ابتكروا طرقا اخرى للتسرب الى المنطقة!

* * *

في ليلة السابع عشر من اكتوبر عام ١٩٥١ كانت الفصيلة المصرية المرابطة على جسر الفردان تقوم كالمعتاد بأعمال الحراسة وكان بعض الجنود يحرسون الجسر من الناحيتين حين كان قائدهم اليوزباشي «الشهاوي» وزملاؤهم الآخرون ينالون نصيبهم من الراحة في الخيام القريبة، ولم يكن في الجو ما ينبيء عن وقوع معركة، فقد كان الجيش -كما قلنا- بعيداً عن الحركة غير مشترك فيها بقليل او كثير، وكانت المعسكرات الانجليزية في المنطقة تبدوا هادئة، رغم ان أضواء بعض السيارات كانت تتحرك من المعسكرات وكان دوي انفجارات يسمع عن بعد يصحبه طلقات كاشفة وأصوات مدافع رشاشة غير واضحة، ذلك ان جماعة من رجالنا كانت تهاجم في تلك الساعة وحدة بريطانية عند جسر «الحلفاية»!

وحين قاربت الساعة الثالثة عند الفجر سمع الجندي الحارس أمامه حفيفاً خافتاً، وحين ركز انتباهه رأى شبحاً يقترب مشهراً سلاحه، ولما نادى «قف من أنت» كان

الجواب دفعة من رشاش «برن». وسقط الجندي المصري، وحين أفاق جنود الحراسة المصرية من المفاجأة المروعة رأوا عشرات الزوارق المسلحة تتقدم في القناة، وتبين لهم بعد فوات الأوان ان نطاقاً من الجند المسلحين بالرشاشات يحيط بهم من كل جانب.

ورغم ان الجنود المصريين لم يطلقوا النار بعد ذلك فقد استمرت القوات البريطانية تغطي المنطقة بنيران كاسحة، ووقع جندي مصري آخر، كما سقط بعض الجرحى فوق ارض المعركة، وقد حققت المباغتة اثرها الفعال، فاستسلم الجنود المصريون للاسر بعد أن القوا أسلحتهم، وبذلك سقط جسر الفردان، وامسك العدو بالمفتاح الوحيد الذي يؤدي إلى شبه جزيرة سيناء، ويتحكم في القوات الموجودة هناك.

بعد عشرة أيام ذهبنا -يوسف طلعت وأنا- بعد أن ارتدينا ملابس العمال مع مهندس من رجالنا الموثوقين، كان يعمل حينذاك رئيساً لمشروع حكومي قريب من الفردان واستطعنا ان نرقب المنطقة بسهولة. لقد احالها الانجليز إلى قلعة محصنة، الخنادق تتلوى حول الجسر من الناحيتين ودشم الخرسانة المسلحة تبرز منها المدافع الرشاشة الكثيرة، وحول كل ذلك نطاقات مزدوجة من الاسلاك الشائكة

لقد قمنا بعد ذلك بغارات ازعاجية ضد قوة الفردان، ولكننا لم نستطع التسرب عبر الحراسات القوية التي أقامها العدو، فاتجهنا إلى زرع الألغام على الطرق المؤدية اليها، وقد أدت هذه الاعمال إلى مضاعفة القوة البريطانية بعد ذلك، إلى ان تمكن الاميرالاي سعد الدين عبد صبور، القائد المصري لمنطقة الدلتا، من التفاوض مع الجنرال ارسكين لاجلاء هذه القوة بعد أن تعهد له بفرض رقابة عسكرية على القطارات ومنع تسرب احد من «المخربين»!

ويبدو ان الانجليز وافقوا على تسليم المنطقة مرة أخرى للمصريين تحت تأثير عدد من العوامل، منها أن القوة البريطانية المعزولة هناك كانت معرضة دائما للهجمات من جانب رجالنا، ومنها انهم كانوا لا يريدون ان تسوء علاقاتهم بالجيش المصري إلى درجة يضطر معها إلى التدخل اليائس في المعركة الدائرة دفاعاً عن كيانه، لا سيا أنهم كانوا قد شعروا ان صغار الضباط المصريين أخذوا يضغطون على قيادتهم للسماح لهم بقتال العدو، ومنها أيضاً ان الانجليز استعاضوا عن هذه النقطة الثابتة بنقاط تفتيشية أخرى على طول خط

السكك الحديدية بالقرب من المعسكرات، وكان لهذه النقط حق تفتيش القطارات في أي وقت تشاء، وبذلك عاد الجيش المصري تدريجياً للفردان، وان كانت الاجراءات المصرية البريطانية المشتركة لم تسمح لنا باستعماله مرة أخرى!

محاصرة تشكيلاتنا في السويس

لقد فشلت قيادة العدو في أن تمنع رجالنا من الوصول إلى مناطق معينة في ميدان المعركة كالاسماعيلية والقنطرة وبور سعيد. ورغم انها فرضت حصاراً محكماً في بعض الحالات باحتلالها الطرق ومداخل المدن إلا انها فشلت تماماً في منعنا من الوصول إلى قلب هذه المناطق، ذلك لأن هناك معابر طبيعية صحراوية ومائية يصعب السيطرة عليها تصل هذه المناطق بداخل القطر، وحين دخل العدو معنا في مسابقة للسيطرة على هذه المعابر، وبعث بقوات آلية تجوب الصحراوات أو تقف على شواطىء البحيرات، كنا نتخذ من هذه القوات أهدافاً لغاراتنا. كما كنا في الوقت نفسه نتحول إلى وسائل أخرى للعبور، لقد كانت لعبة مسلية شديدة الامتاع، تلك التي لعبناها مع قوات العدو في صحراء الصالحية، وشواطىء المنزلة وكان هو الذي يخسر في كل الحالات. لقد كان أمراً سهلاً بالنسبة لقيادتنا ان تحرك تشكيلات قليلة خفيفة الحركة من مكان الى آخر يبعد عنه عشرات الاميال، وهم يركبون في سيارات الجيب أحياناً أو في زوارق صيد صغيرة أو على الخيل والجمال أحياناً أخرى، واحياناً سيراً على الاقدام إذا تعذرت هذه الوسائل ولم يكن تحريك قوات الجيش البريطاني المصفحة وراء هذا العدو المتبخر كالماء المتجدد كالسراب، يسير بنفس السهولة، وتلك أهم الفروق بين العصابات والجيش النظامي. ان الأمر كان لعبة ممتعة بالنسبة لنا، ولكننا طالما شعرنا انه كان عبئاً ثقيلاً على قيادة عدونا.

غير ان هذه الصورة كانت عكسية تماماً في منطقة واحدة، هي منطقة السويس، فان هذه المدينة التي كانت تقع على الطرف الآخر من القناة، ووراء عدد لا يحصى من المعسكرات ونقط الحراسة التي أقامها العدو للمراقبة والتفتيش، والتي كانت تكتنفها صحراء عظيمة الاتساع لا يسهل عبورها، هذه المدينة كان تموينها بالاسلحة والذخائر

مشكلة معقدة بالنسبة لنا، ولا يعني ذلك اننا لم نحاول عبور الصحراء والتغلب على مخاوفها، بل لقد عبرناها فعلاً، في مناسبة متأخرة، ولكن بعد الجهد المضني الذي بذله رجالنا سيراً على الأقدام لم يتمكنوا من اختراق نطاق المعسكرات المنتشرة المتقاربة، والدوريات السيارة النشطة التي كانت تجوب المنطقة بكثرة، ولولا ان تراجع رجالنا بخفة في وقت ملائم لحصدتهم دوريات العدو عن آخرهم، ولذلك شعرنا حين اكمل العدو حلقة الحصار حول السويس -وشن حملات التفتيش على الشوارع- ان رجالنا هناك يعانون نقصاً في الذخيرة والمفرقعات لدرجة كادت تعرضهم للتوقف التام لولا ان ساقت العناية الإلهية رجلا لم يكن في الحسبان!

عبد المنعم عبد الرؤوف في السويس

حين وردت الاخبار بالحالة التي تعانيها جماعاتنا في منطقة السويس، وفشلت كل المحاولات التي بذلناها لاختراق النطاق البريطاني، كان لا بد ان نفكر في وسيلة أخرى لتموينهم. وكنا نعلم ان الكتيبة العاشرة المصرية ترابط على البر الشرقي للقناة المواجه لمدينة السويس «الشط»، ولذلك فكرنا بادىء الأمر ان نتعرف على بعض الضباط الوطنيين فيها ونطلب منهم تموين جماعاتنا بالذخيرة والاسلحة من هذه الكتيبة القريبة منهم. وبعثنا إلى القاهرة نطلب قائمة باسماء ضباط الكتيبة وصف ضباطها وجمع المعلومات اللازمة عنهم، وبعد اسبوع جاءتني رسالة تحمل مفاجأة مفرحة بالنسبة الي، ان البكباشي عبد المنعم عبد الرؤوف -قائد اللواء الجوي فيما بعد- ضابط في الكتيبة بل هو القائد الثاني لها، واذن فقد لاح لي ان مسألة استغلال هذه الكتيبة في تموين رجالنا باتت أمراً مفروغاً منه.

ولكن تبين لي بعد ذلك ان الأمر لم يكن كما توقعت تماماً لأن وجود ضابط واحد يتعاون مع حركتنا في كتيبة ما لا يعني ان امكانيات الكتيبة كلها أصبحت مسخرة لنا. ولقد ذهبت بعد ذلك إلى السويس في محاولة لتحقيق هذه الغاية.

كان عبد المنعم عبد الرؤوف اكثر من مجرد ضابط في الجيش المصري، كان يمثل مجموعة الضباط التي اغترفت من الفيض الوطني الملتهب خارج صفوف الجيش، وجعلت

رسالتها ان تجمع الضباط حول الأهداف الوطنية. وكان عبد المنعم بحق رائداً من اوائل الرواد الذين حملوا الفكرة الاسلامية إلى داخل الجيش وجمعوا الضباط حولها، ولم يكن الضباط يجهلون عنه اتجاهاته الوطنية، فقد سبق له ان قام بمغامرة تستحق الاعجاب حين حاول هو وزميله حسين ذو الفقار نقل الفريق عزيز المصري ليلتحق بقوات الثورة العراقية ومعاونتها ضد الانجليز قبل ان تهوي بهم الطائرة، ولم ينجوا من الموت إلا باعجوبة عندما وقعت طائرتهم على أغصان اشجار متشابكة فخفف ذلك من اصطدامها بالأرض. ولقد سجن عبد المنعم مدة طويلة وطرد من الجيش ولم يرد له اعتباره و يرجع إلى الجيش إلا حين تقلص النفوذ البريطاني عن مصر، ولكنه استمر في رسالته، ولم تقع حركة وطنية بعد ذلك الا كان مساهماً بنصيبه فيها كبر أو صغر.

لقد جمعتني مع عبد المنعم عبد الرؤوف ظروف كثيرة، وتوطدت بيني وبينه علاقة اكثر من الصداقة حين عملنا سوياً في قوات المتطوعين في فلسطين وحين تعاونا بعد ذلك في تنظيم الضباط الوطنيين في الجيش، ولذلك كنت واثقاً ان وجوده على مقربة من السويس في كتيبة سيكون عاملاً مهماً في انعاش حركتنا في هذه المنطقة.

ولقد أخذت استذكر الظروف التي عرفت فيها هذا الضابط الوطني وانا اعبر مجرى القناة قبيل الغروب، في زورق صغير من السويس إلى الضفة الشرقية ومعي ابن عم لي كان يعمل مدرساً في احدى مدارس المدينة، وكنا قد اتصلنا به في مكتبه واخبرناه عن رغبتنا في الاجتماع به، فحدد لنا هذا الوقت ليقابلنا فيه على شاطىء القناة، وفي اللحظة التي اصطدم بها الزورق بالقاعدة الخشبية المثبتة على الشاطىء كان عبد المنعم يترجل من سيارة الجيب و يأخذنا بالاحضان...

وفي الطريق إلى معسكر الكتيبة اخذت احدثه عن الأحوال الجارية وأعين له الغاية من زيارتي هذه وهو ينصت باهتمام، ثم ابدى أسفه ان ضباط كتيبته ليسوا على مثل رأيه، وانه سيكون من الخطر مفاتحتهم في أي أمر ولكنه سيحاول ان يعمل جهده في معاونتنا.

وفي الصباح كنا نتجول في سيارة عسكرية مصرية على شاطىء القناة ونرقب النقط التي كان الانجليز قد احتلوها حديثاً في نطاق خطتهم الرامية إلى مضايقة وحدات الجيش المصري، وكان عبد المنعم يشرح لي أهمية هذه المنطقة والاسباب التي أدت بالجيش المصري

إلى ارسال كتيبة اليها.

ان لمنطقة الشط أهمية عظيمة، فهي ملتقى كثير من الطرق البرية التي تعتبر منافذ للجزء الجنوبي من شبه جزيرة سيناء والبحر الاحمر ومنها يمر درب الاربعين ذو الشهرة التاريخية الذي كانت قوافل الحجاج والتجار تسلكه في رحلاتها المرهقة من شمال افريقيا ومصر والسودان في طريقها الى الشام والعراق والحجاز، كما يقع على الطريق المؤدي إلى مصافي تكرير الزيت على الضفة الشرقية وإلى آبار البترول في وسط جزيرة سيناء. وكان من رأي عبد المنعم ان نذهب لرؤية «ممر متلا» الواقع على بعد ثلاثين كيلومتراً الى الشرق من الشط وهو ممر ضيق محصور بين سلسلة من الجبال الوعرة و يعتبر المدخل الجنوبي الغربي لشبه جزيرة سيناء، وكانت فكرة عبد المنعم تتلخص في ان علينا ان ننظم عصابات في هذه المنطقة الوعرة وتزويدها بالكفاية من التموين على ان تكون مهمتها هي عرقلة أي هجوم تقوم به القوات اليهودية إذا ما نجحت في اختراق الدفاعات المصرية على حدود سيناء، من هذا الاتجاه ومشاكسة القوافل البريطانية التي كانت كثيراً ما تعبر هذه الطرق في جولات تدريبية في سيناء، وقد رغبت في القيام بهذه الزيارة ودرس هذا المقترح غير ان الظروف لم تسمح بذلك في تلك الزيارة الخاطفة.

وحين اقتربنا من شاطىء القناة رأيت الجنود البريطانيين يحتلون «معدية الشط» وهي ناقلة بحرية صغيرة تعمل بين ضفتي القناة وقد احتلها البريطانيون قبل ذلك بوقت قصير كما احتلوا جسر الفردان والمعديات الأخرى، وكان هدفهم من ذلك ـ كما لخصه عبد المنعم ـ هو عزل الكتيبة المصرية العاشرة ووضعها تحت رحمة القوات البريطانية ومنع قوى المقاومة من استغلالها في نقل الاسلحة والذخائر. وقد اقترح عبد المنعم استرداد المعدية بالقوة ولكن أوامر قيادة اللواء في الاسماعيلية استناداً إلى أوامر رئاسة الجيش المصري كانت تقضي بعدم التعرض للجنود الانجليز.

وحين اخذ العدو يخفف القيود المفروضة على كتائب الجيش المعزولة في سيناء ارسلت القيادة البريطانية للكتيبة العاشرة تخبرها فيه ان لها الحق في استخدام المعدية بشرط الا يستخدمها الارهابيون، وقد وافق قائد الكتيبة على هذا الشرط بعد ان استشار قيادته أيضاً.

مغامرة خطرة

علمت من عبد المنعم عبد الرؤوف انه لا يوجد في الكتيبة ضابط آخر يمكنه ان يتعاون معه في مهمة امداد الحركة بالسويس، وان معنى ذلك ان الكمية التي يمكن ارسالها ستكون قليلة جداً ولا تفي بالغاية، وابدى استعداده في نقل أي كمية من العتاد من أي منطقة نحددها له، وقد سرني هذا الاستعداد من جانبه وان كنت قد ابديت تشككي في امكانية القيام بهذا العمل في الوقت الذي كان الانجليز فيه يحتلون جميع الطرق ويفتشون السيارات بما فيها السيارات العسكرية. ولكني رغبة في استنفاد كل الوسائل أخبرته انه توجد كمية كبيرة من العتاد لحسابنا عند «اليوزباشي عبد الفتاح غنيم» رئيس مكتب مكافحة المخدرات في القنطرة الشرقية وأعطيت له طريقة الاتصال به كما اعطيته طريقة الاتصال برئيس شعبتنا في السويس «الطاهر منير» وفي نفس اليوم كنت اركب السيارة عائداً الى الاسماعيلية وقد شعرت ان رحلتي لم تؤد إلى نتيجة ايجابية وان عبد المنعم لم يتمكن من أداء هذه المهمة.

ولكن لم يكد يمر اسبوع حتى جاءتني رسالة من عبد الفتاح غنيم تفيد ان عبد المنعم قد جاءه فعلاً واستلم شحنة من الذخائر كما جاءتني أخبار من السويس تفيد ان هذه الشحنة قد وصلتهم وانهم مستعدون الآن لمواصلة العمل، ومن ذلك علمت ان صديقنا عبد المنعم قد أدى واجبه على أكمل صورة، على انني لم أعرف تفاصيل هذه المغامرة الا بعد ان كتب الي بنفسه بعد ذلك بفترة طويلة.

* * *

يبدو ان زيارتي المريبة لعبد المنعم قد تسربت لقائد كتيبته، ولما كان يعرف صلة معاونه القوية بالاخوان ونشاطه المؤيد لهم فقد توجس من هذه الزيارة واخذ يراقبه مراقبة شديدة كما طلب من رئاسة الفرقة ان تنقل ضابطاً آخر ليحل محله!

وكان لا بد لصاحبنا لكي يذهب إلى القنطرة الشرقية من سيارة عسكرية، ومدة لا تقل عن خمس ساعات، وفي اليوم التالي استأذن احد الضباط في أن يأخذ سيارته ليعود بها مريضاً في مستشفى السويس وكان قد أعد اقفاصاً من البوص وكمية من البرتقال ليغطي

واجهة.الاقفاص. وحين شارفت الساعة الرابعة مساء كان يمضي بالسيارة في اتجاه طريق السويس الشرقية، وحين عبر المعدية نظر جنود البوليس الحربي المصري والجنود الانجليز في السيارة فوجدوها محملة بالاقفاص وبها بعض البرتقال فلم يعترضوها وحين تجاوز المعدية انحرف بسيارته في الطريق إلى الاسماعيلية فالقنطرة.

وكان المطر ينهمر بغزارة حين كان صاحبنا يعود بسيارته محملة باقفاص ظاهرة البراءة مليئة بالخبز والخضروات والفواكه. ولم يتصور الجنود الانجليز الذين كان يمر بهم في عودته ان ضابطاً مصرياً برتبة البكباشي يمكن ان يعرض نفسه للخطر على هذه الصورة. وفي المساء كانت الشحنة الثمينة تصل إلى «الطاهر منير» وتوزع على المناطق التي يعمل فيها الرجال، وبعد أسبوع بدأت التقارير ترد على مركز قيادتنا عن عمليات ناجحة قام بها الاخوان في ميناء الأدبية في السويس وفي المعسكرات البريطانية المجاورة.

وقد علمت بعد ذلك ان عبد المنعم كان يرسل كل ما يستطيع ارساله من الذخيرة إلى رجالنا في السويس ويحثهم على الاستمرار في العمل. ورغم انا قد نجحنا بعد ذلك في ارسال كميات أخرى بوسائلنا الخاصة بعضها عن طريق سيارات الجيش البريطاني نفسه إلا اننا سنظل نذكر ان عبد المنعم قدم لنا معونة قيمة في أحرج الأوقات!

ضباط آخرون

حين اعتذر عبد المنعم عبد الرؤوف عن امدادنا بالقدر اللازم من الذخائر من كتيبته اشار عليّ بأن اتصل بضباط آخرين يعملون في رئاسة الفرقة في رفح على الحدود المصرية الفلسطينية واصفاً اياهم بأنهم من الضباط الوطنيين، وذكر اسماء صلاح سالم وعبد الحكيم عامر وغيرهم. ولم تكن هذه الاسماء غريبة بالنسبة اليّ إذ سبق لي ان عرفت اصحابها في بعض المناسبات، ولكن سرني ان عرفت انهم من الضباط الوطنيين الذين يمكن الاعتماد عليهم لا سيا وان ضباط الرئاسة بحكم صلاحياتهم واتصالاتهم الواسعة بالوحدات تجعلهم أكثر قدرة على اجابة مطالبنا.

وقد قررت بعد عودتي من السويس ان اقوم بزيارة لقطاع غزة استجابة لدعوة من الشيخ عبد الله ابو ستة شيخ مشايخ قبائل الترابين الفلسطينية، وكان في ذلك الحين يعد مجموعة من شباب قبيلته الاشداء لارسالها إلى منطقة القناة، وقد طلب مني المجيء إلى غزة لمشاهدة هذه المجموعة والتشاور في أمر ترحيلها.

كذلك خطر لى أن انتهز هذه الفرصة واتصل بضباط رئاسة الفرقة والبحث معهم في مسألة تزويدنا بكمية من الاسلحة والذخائر استجابة لوصية عبد المنعم، ولقد قررت هذه الرحلة في وقت كان الانجليز قد قطعوا الطرق وعطلوا سير قطارات الركاب فلم اجد بدأ من السفر بقطار للبضائع يعمل بين القنطرة الشرقية وغزة. ورغم ان معاون القطار وحراسه بذلوا جهداً محموداً لتسهيل الرحلة عليَّ الا ان شدة البرد في العربات المكشوفة وتوقف القطار في كل محطة فرعية لتوزيع شحناته جعل رحلتنا مملة مجهدة، ولم نصل رفح على الحدود الفلسطينية الا بعد وقت طويل يزيد ثلاثة اضعاف ما تستغرقه قطارات الركاب في رحلاتها العادية!

لقد كانت المرة الأولى التي ادخل فيها رئاسة الفرقة منذ نهاية حرب فلسطين حين كنت في ذلك الوقت كثيراً ما ادخلها لمقابلة اللواء فؤاد صادق قائد الحملة المصرية أو لتصريف شؤون تتعلق بقوات المتطوعين مع الضباط اركان حربه. ولقد استذكرت أياماً خلت كانت فيه هذه المنطقة تبدو كخلية النحل تموج بضباط من مختلف الرتب يعرضون مشاكل وحداتهم المبعثرة على خطوط طويلة جداً تمتد من رفح إلى اسدود، وتدور إلى الخليل وبيت لحم، ثم تدور مرة أخرى من هناك إلى بئر السبع فالعوجا على الحدود المصرية من الناحية الأخرى. لقد بدت الآن هذه الرئاسة صامتة هادئة الا من حراس قليلين يجلسون متثاقلين امام مكاتب الضباط، وكان لا بد ان انتحل سبباً لزيارة الرئاسة حين اعترضني جنود الحرس على البوابة الرئيسية فطلبت مقابلة اللواء محمد ابراهيم سيف الدين قائد الفرقة في ذلك الحين وسفيرنا حالياً في الاردن، وظننت انه لن يمانع في استقبالي، وفعلاً لم تمض إلا دقائق اجرى فيها الجندي الحارس اتصالاً تلفونياً حتى خرج يفتح لي البوابة و يصحبني إلى مكتب اللواء سيف الدين.

وقد طرقنا اموراً مختلفة حين اجتمعت إلى قائد الفرقة إلا الموضوع الذي جئت من اجله.

ذلك انني -رغم ثقتي في اللواء سيف الدين واعجابي به- كنت ارى فيه جندياً صارماً شديد التقيد بالقوانين، وليس من السهل اقناع هذا النوع من الرجال بعمل متطرف كعملنا لا ينسجم مع أي قانون. ولقد خشيت أن يسأل اللواء رئاسة الجيش و يأخذ اذنها، ولن يكون من وراء ذلك الا افتضاح الامر وعرقلة اي تعاون مقبل يمكن ان نناله من الضباط الصغار. ولذلك وجدتني اطوي هذه المسألة في نفسي واستأذنه في ان اطوف بمكاتب ضباط رئاسته من معارفي وأسلم عليهم قبل ان انصرف ولعل اللواء سيف الدين قد فكر في أمر هذه الزيارة الفارغة ولا أدري ماذا كان يصنع بي لو علم انني جئت احرض ضباطه على خرق القوانين وتوفير الذخيرة وارسالها لاولئك الخارجين على جميع القوانين!

لم اتمكن في تلك المرة من مقابلة صلاح سالم وعبد الحكيم عامر لتغيبهم في ذلك الحين وان كنت قد قابلت ضباطاً آخرين، وحين شرحت لهم ما أريد رحبوا بالفكرة ترحيباً حاراً، ولقد حددت لهم اسم شخص من رجالنا يقيم في رفح ليضعوا عنده ما يستطيعون جمعه وكان هو يعرف الطريقة المتبعة لارسالها، وقد نفذ هؤلاء الضباط وعدهم وكانوا مصدراً هاماً بعد ذلك في امدادنا بالذخائر. وقد علمت من اليوزباشي عبد الفتاح غنيم وهو الذي اختص بالاتصال بضباط الجيش وتوفير الذخيرة انه سافر بعد ذلك الى رفح واتصل بالصاغ صلاح سالم والصاغ -اللواء حالياً- عبد الحكيم عامر وانهما قدما أيضاً مشروعاً حسناً في هذا السبيل.

اسلحة يهودية في المعركة

كان علي ايضاً ان ارتب امر ارسال شحنة كبيرة من الاسلحة اليهودية والمفرقعات من قطاع غزة وهي كمية كنا قد غنمناها من اليهود خلال حرب فلسطين واختزناها عند اصدقائنا من شيوخ البدو في المنطقة. ولهذه الاسلحة قصة لا تخلوا من الطرافة، ولعلها تصلح مثالاً على المشكلة التي يمكن ان يعانيها قادة الحركات السرية حين يجدون انفسهم بين امرين شديدي الخطر، هما: الحرص على السرية من ناحية والحرص على الابقاء على الثقة التامة بينهم وبين رجالهم، في امور تبدو غير مفهومة كقصة هذه الاسلحة من ناحية أخرى.

استطيع ان اذكر تلك الليلة من شهر ابريل عام ١٩٤٩ وكانت الهدنة الفلسطينية الجائرة قد فرضت على العرب قبل ذلك بقليل، وكنا نحن سرية من المتطوعين تقيم في معسكر البريج في وسط قطاع غزة ننتظر الاذن بالتسريح والرحيل الى بلادنا حين جاءني ضابط صديق واخبرني أن أمراً صدر من رئيس الوزارة السعدية ابراهيم عبد الهادي باعتقالنا جميعاً، وان اللواء فؤاد صادق قد اصدر اوامره الى قائد منطقة دير البلح بتنفيذ امر الاعتقال وتسلم المعسكرات والاسلحة في صباح اليوم التالي.

كان لدي في مخازن المعسكر في ذلك الحين كمية كبيرة من الاسلحة اليهودية الرشاشة والمفرقعات من انواع مختلفة وهي كمية غنمنا بعضها من اليهود واشترينا بعضها الاخر بأموال جماعتنا الخاصة. وكان الغرض من تخزينها هو تسليح بدو المنطقة اذا فشلت الحرب النظامية ضد اليهود واصبحوا مضطرين للدفاع عن أنفسهم امام الغزوات الصهيونية، ولم اكن بطبيعة الحال اميل الى تسليم هذه الكمية للجيش المصري ولذلك وجدتني افكر في طريقة لتخزين هذه الكمية الكبيرة بعيداً عن متناول الجيش ودائرة مخابراته، وقد ادركت قيمة الصلات الحسنة التي عقدتها مع رجال القبائل البدوية حين تسللت في ظلمة الليل بسيارتي الجيب واخبرتهم عن نيتي فأبدوا ترحيباً بمساعدتي وقام الشيوخ بانفسهم يحفرون الحفر ويبطنونها بالواح الخشب والصاج. وفي تلك الليلة كنت اقود سيارة شحن صغيرة واتنقل بها بين المعسكر ومضارب القبائل مرات كثيرة وليس معي الا سائق السيارة يعاونني في تحميل الاسلحة وصناديق قنابل المورتر والقنابل اليدوية والمفرقعات، ولم تشرق شمس اليوم التالي ويفيق جنودنا من نومهم حتى كانت الكمية كلها في مستودعاتها الجبلية وكنت امارس رياضة الصباح مع الرجال وأبادلهم على موائد الافطار دون ان اخبرهم بشيء!

ولقد تم الأمر كما توقعت فلم ينتصف نهار ذلك اليوم حتى كانت سيارات الجيش والبوليس الحربي تحيط بالمعسكر ويطلب مني قائد القوة تسليمه المعسكر والاسلحة. ورغم انه ساق الامر في لهجة مهذبة مؤكداً ان الرجال سيرحلون الى عائلاتهم في قطار خاص الا انني كنت اعرف جيداً انهم ذاهبون الى المعتقلات، وكنت اعرف اكثر مما تصور هو، كنت اعرف مثلاً ان اوامر صدرت للوحدة المدرعة لكي تكون مستعدة للعمل اذا ابدينا اي مقاومة، كنت اعرف كل ذلك ولكني لم اخبر به أحداً من رجالنا لانني كنت اقدر ان أي

صدام قد يقومون به سيعرضنا و يعرض اخواننا جنود الجيش الى خسائر ليست في مصلحة أحد.

ولذلك رحبت بالضابط وصحبته الى مخازن الاسلحة والتموين بينما كان رجالنا ينطلقون مبتهجين يعصبون امتعتهم و يستعدون للرحيل الى ارض الوطن حيث الزوجات والاولاد والاهل بعد غياب عام كامل قضوه في جهاد مرير متصل!

ولقد كانت مفاجأة مذهلة لرجالنا جميعاً حين وجدوا مخزن الاسلحة فارغاً تماماً الا من بنادق قليلة على عدد الرجال بالضبط ورأيتهم يتهامسون و يتساءلون ولكنهم شعروا ان في الامر سراً مستعصياً فانصرفوا عنه مؤقتاً. وحين ضمنا المعتقل العسكري في رفح في اليوم التالي بدأوا يسألونني عن مصير الاسلحة وقد استخلصت فعلاً افراداً من المسئولين لا يتجاوز عددهم ثلاثة وافضيت لهم بالتفاصيل، الا ان هذا لم يحل المشكلة اذ كان هناك اكثر من مئة وخمسين شخصاً يهمهم ان يعرفوا ايضاً. وقد تعالى الهمس بعد ذلك واصبح مشكلة تتصل بالثقة في القيادة وربما كنت اسمع احياناً اتهاماً ملفوفاً ولكن لا جواب!

كانت المسألة عندي أكثر من أن تكون مسألة شخصية، كانت أمراً يتعلق بسمعتنا جميعاً، بل بسلامتنا جميعاً في وقت كان الاخوان يُتهمون فيه بالارهاب. وكنت أنا شخصياً قبل ذلك قد مثلت أمام مجلس عسكري بتهمة تدريب الارهابيين وإرسال الأسلحة للقاهرة، ورغم أن المجلس قد برأني من الاتهام إلا أن افتضاح أمر الأسلحة كفيل بإثبات هذه التهمة مجدداً وجر الكثير من المشاكل، وقد كان عليّ أن أختار بين اتجاهين: توضيح الأمر لرجالنا الكثيرين مع ما في ذلك من احتمال تسرب الأسرار إلى ضباط المعتقل وحراسه الذين يلتقطون كل كلمة، أو كتمان السر كتماناً مطلقاً مع ما في ذلك من اتهامات تمس الثقة والنزاهة، ولقد اخترت الحل الثاني دون تردد! إن المسؤول، وخاصة في الأعمال ذات الصبغة السرية، ينبغي ألا يعنى كثيراً بما يمكن أن يقوله الناس عن عمله، فإن الناس بطبعهم يتجهون إلى تأويل كل عمل لا يفهمونه تأويلاً سيئاً، وإذا جعل قائد الأعمال السرية هدفه إرضاء الناس والتملق إليهم فإنه لا يبقى بعد سر يمكن أن يكتمه.

إن التفاخر والحرص على الإرضاء وتملق العواطف هي أعدى أعداء السرية في عملنا، وعلى الذين يحرصون على هذه المعاني أن يعتزلوا كل عمل سري وأن يكرسوا أنفسهم لأعمال

أخرى تحقق لهم ذلك وليس فيها ما يستحق الإخفاء، كما أن على الرجال من غير القادة أن يدركوا ذلك أيضاً وأن يعودوا أنفسهم على التزام حدودهم وعدم التطلع إلى معرفة كل شيء. وعليهم أن يذكروا دائماً أن الجماعات المناضلة لا بد أن يكون لها من الأسرار ما تحرص على إخفائه حتى عن أنصارها المخلصين، ذلك لأن الفضول والرغبة في الاستقصاء والحرص على معرفة كل شيء نقائص يجب أن يترفع عنها جنود العمل السري لأنها جديرة أن تفضح كل عمل وأن تؤدي بالجماعة كلها إلى الدمار!

لقد تسربت هذه الأسلحة كلها خلال عامين إلى منطقة القناة ولعلها كانت الكمية التي سدت النقص الهائل الذي كنا نعانيه حين بدأنا معركتنا مع القوات البريطانية، ولقد انفضح هذا السر بعد ذلك عند رجالنا حين تهيأت ظروف مناسبة لافتضاحه، ولا شك أن الكثيرين منهم قد أخذوا عبرة هامة من هذا الحادث، وكانت العبرة التي أخذناها جميعاً هي ما أشرت إليه: إذا كنت مسؤولاً عن عمل سري ووضعتك الظروف بين ضرورات السرية والأمن من ناحية وبين مغريات التفاخر والظهور بمظهر البطولة، وبصورة أخرى بين كتمان الأسرار الخطيرة وبين الحرص على تنقية السمعة وكسب قلوب الناس فيجب أن تختار الكتمان دون تردد على ما فيه من المتاعب لك، إذا كنت تريد حقاً أن ينتهي عملك إلى النجاح، وإذا اخترت غير ذلك فإنك تكون أنانياً لا تهمك إلا سمعتك الشخصية قبل مصلحة القضية التي تعمل من أجلها!

تلك هي القصة التي تذكرتها وانا اقف وسط بيوت مهجورة في دير البلح ورجال من الاخوان يحفرون الارض و يستخرجون صناديق المفرقعات والقنابل و يكدسونها تحت اشجار النخيل قبل ان تحملها السيارات الى مكان قريب من محطة السكك الحديدية.

موقف حميد للبكباشي محمود رياض

لقد كنا كثيراً ما نتلقى الاسلحة والذخائر من قطاع غزة ولكنها كانت ترسل بكميات قليلة تحقيقاً للأمن، وقد اردت هذه المرة ان انقل كميات كبيرة من القنابل اليدوية والمفرقعات ولذلك اخذت افكر في ضابط كبير يستطيع ان يعاوننا على نقل هذه الكمية الى

القنطرة الشرقية في القطارات الحربية، ولم أكن اتردد في اللجوء الى البكباشي محمود رياض سفيرنا حالياً في دمشق، وكان في ذلك الحين يشغل منصب مدير المخابرات الحربية في قطاع غزة وكان الى جانب ذلك يشرف على شؤون الهدنة مع القائمقام اسماعيل شيرين صهر الملك السابق فاروق.

قبل ايام من هذا التاريخ لقيني صديق ضابط في الاسماعيلية واخبرني ان البكباشي محمود رياض يريد الاجتماع بي عند اول مرة انزل فيها الى القاهرة. وقد تحقق هذا اللقاء فعلاً في مكتب مدير شئون فلسطين في ثكنات قصر النيل وقد قال رياض انه يرغب في التعاون مع الحركة المسلحة القائمة في القناة. وانه كضابط يستطيع ان يقدم لها بعض الخدمات، وقد شكرته على ذلك وابلغته ان كل ما نرجوه الان من ضباطنا الوطنيين هو امدادنا بالذخائر.

لقد تذكرت هذه المقابلة مع البكباشي رياض حين كنت افكر في شحن كمية من المفرقعات. ولم يخب الظن فيه ابدا، ذلك إنه بعد ثلاثة ايام كان بنفسه يسافر للقنطرة ومعه شحنة كبيرة من المفرقعات، وكان عبد الفتاح غنيم مستعدا لاستقباله على محطة القنطرة وقد نقلت بقية هذه الكمية الى منطقة القناة مع ضباط اخرين، وكانت تسلم لليوزباشي غنيم الذي جعل من بيته «ترسانة» للأسلحة والذخائر وكان عليه ان ينظم امر تخزينها ثم ارسالها بطرق خاصة الى مناطق مختلفة تمتد بين بور سعيد والسويس وبين الاسماعيلية والتل الكبير!.

التقاء الجيش والشعب

الواقع أن معركة القناة دفعت الشعب والجيش معاً نحو نقطة اللقاء، ولولا هذه المعركة من الجائز أن تتأخر حركة ٢٣ يوليو العسكرية بقيادة محمد نجيب إلى وقت آخر أو لا تقع على الاطلاق، ذلك لأن موقف قيادة الجيش السلبي من هذه المعركة ابرز هذا السؤال أكثر من أي وقت مضى «حتى متى يظل الجيش معزولاً عن الحركة الوطنية؟» كما ان الجهود الكريمة التي بذلها الضباط الذين ذكرت اسماءهم وعشرات غيرهم في ثورة القناة أظهرت القيمة العظيمة التي يمكن ان تنالها الحركة الوطنية لو القى الجيش بثقله كله فيها. لقد

ظهرت الفجوة واسعة بين الشعب والجيش كما لم تظهر في أي مناسبة من قبل، ووضحت معها الاخطار التي تهدد مستقبل الوطن وكيانه لو بقي الجيش على حاله العوبة في يد ملك فاسد وقيادة ضعيفة، كما ظهرت -تبعاً لذلك- شدة الحاجة إلى تعبئة القوى الوطنية في الجيش واعدادها للأمر العظيم.

لقد كانت في الجيش تشكيلات سرية قبل معركة القناة ولكنها كانت تسير متعثرة فجاءت هذه المعركة تسوقها بقوة للأمام كما تسوق الريح القوية امامها سفينة شراعية وتصل بها الى هدفها قبل موعدها المضروب!

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية انطلق ضباط كثيرون كانوا يعملون باساليب مختلفة ولكنهم يلتقون في غاية واحدة هي تمكين الروح الوطنية في الضباط وانقاذ الجيش من هيمنة الملك العابث ودفعه بعد ذلك لمعاونة الشعب في معاركه المتصلة ضد الاستعمار الخارجي والاستبداد الداخلي، وجاءت حركة ٢٣ يوليو العسكرية ثمرة شهية لجهود مضنية قام بها ضباط مخلصون لوطنهم امثال عبد المنعم عبد الرؤوف وأبو المكارم عبد الحي ومعروف الحضري وحسين حمودة الى جانب الضباط الذين برزوا في الحكومات العسكرية امثال محمد نجيب ورشاد مهنا واحمد شوقي وجمال عبد الناصر وصلاح سالم وغيرهم كثيرون يعدون بالمئات، ولم يكن من قبيل الصدفة أيضاً ان يكون اكثر الذين قادوا الحركة العسكرية الانقلابية من أولئك الضباط الذين اسهموا في معركة القناة وعاشوا في جوها الدموي واستطاعوا ان يلمسوا الخطر الكبير اكثر من غيرهم!

لقد وحدت قضية قناة السويس -كما رأيت- قوى الجيش والشعب ودفعتها معاً للقيام بالحركة العسكرية، غير ان قضية القناة نفسها كانت سبباً رئيسياً بعد ذلك في انقسام الجيش والشعب حين قبلت حكومة البكباشي جمال عبد الناصر -التى جاءت بعد حكومة اللواء نجيب- لهذه القضية حلولاً غير الحلول التي قامت الثورة من اجل تحقيقها. وحين وقفت الهيئات الشعبية الوطنية موقف المعارضة من تلك الاتفاقية انكفأت عليها حكومة عبد الناصر واعادت تمثيل الدور الذي كانت حكومات العهد السابق تلعبه مع معارضيها في الرأي!

واذن فقد رأينا اليدين -يد الجيش ويد الشعب ممثلاً في ضباطه الوطنيين- تعملان معاً

ضد الاستعمار البريطاني فوق أرض القناة، ثم شاهدنا هاتين اليدين تضرب احداهما الأخرى بقسوة شديدة بعد توقيع اتفاقية القناة لعام ١٩٥٤، وليس في نيتي ان اخوض في تفاصيل هذا الخلاف، ولعلي أعود اليه في كتاب مستقل، ولكنني أكتفي بالقول ان وحدة الشعب والجيش ادت اغراضها تماماً في اجلاء الانجليز عن ارض الوطن، اما الخلاف الذي جاء بين حلفاء الأمس بسبب الاتفاقية او بسبب الخلاف على شكل الحكم الداخلي وعما إذا كانت هناك ضرورة لاستمرار الديكتاتورية العسكرية أو قيام الديمقراطية الصحيحة فإن الحوادث الجارية يمكنها أن تحمل الجواب على هذا السؤال، وحوادث الغد القريب كفيلة بأن تزيد الأمر إيضاحاً!

محاولة تعطيل الملاحة

كان امراً طبيعياً ان يفكر الجميع في التعرض للملاحة البريطانية في قناة السويس، ولم يكن الهدف هو اصابة بريطانيا بخسارة في بعض بواخرها فحسب ولا في مضاعفة حراجة الموقف الذي تعانيه القيادة البريطانية، ولكن الهدف الرئيسي كان لفت نظر العالم كله، لهذه الحركة واصابة احد الاعصاب الحساسة التي يمكن ان تهز العالم كله ولم يكن هناك عمل يمكن ان يحقق هذه النتيجة اكثر من عرقلة الملاحة في هذا الممر المائي الذي تعتمد التجارة الدولية عليه اعتماداً كبيراً.

ولقد نبتت احدى المحاولات الجريئة في مناقشة بين البكباشي جمال عبد الناصر احد الاعضاء البارزين في تشكيل الضباط الاحرار في ذلك الحين، وبين الصاغ صلاح شادي رئيس تشكيلات الاخوان في البوليس. ولقد تم الاتفاق بين الضابطين على ان يقوم الضباط الاحرار باعداد لغم مائي كبير بواسطة احد الضباط الاحرار الاختصاصيين في المفرقعات وهو اليوزباشي صلاح هدايت على ان يقوم الاخوان باستعماله في ضرب احدى البواخر أو الناقلات البريطانية اثناء عبورها قناة السويس، وقد اخذ صلاح شادي على عاتقه ابلاغ رجالنا في القنطرة نتائج هذا الاتفاق ليقوموا باعداد الدراسات التمهيدية اللازمة للعملية.

وبعد إختبارات قام بها اليوزباشي هدايت في مخازن الجيش ومعامله تمكن من صنع لغم كبير الحجم ولم يبق الا نقله الى قناة السويس، ولم يكن ذلك بالامر اليسير في وقت كان البريطانيون فيه يسيطرون على خطوط المواصلات، الامر الذي اضطر معه الضباط الى الاتصال بالسيد فؤاد سراج الدين وزير داخلية الوفد والاستعانة به في نقل اللغم عن طريق القطارات الحربية، وفعلا تم نقل اللغم عن طريق القطار وبمعرفة السيد سراج الدين بينما نقلت الاجهزة الدقيقة الى العريش بالطائرة الحربية بمعرفة الصاغ صلاح سالم أحد ضباط رئاسة فرقة المشاة التي كانت مرابطة في سيناء في ذلك الحين.

وفي الوقت المحدد للعملية خرجت مجموعة من رجالنا من القاهرة وهدفها القنطرة الشرقية وكان معهم الصاغ صلاح شادي نفسه والملازم حسن التهاني من الضباط الاحرار، وفي القنطرة استقبلهم اليوزباشي عبد الفتاح غنيم الذي كان قد استلم اللغم قبل ذلك وقام بدراسة تحضيرية للعملية.

وفي الليلة التالية لوصولهم تسللوا الى نقطة على قناة السويس بجوار القنطرة ولكن الدوريات البريطانية التي كانت تجوب المنطقة في ذلك الحين اصطدمت بهم واضطرتهم الى التراجع في الصحراء دون أن يحققوا شيئاً.

وتكررت محاولتهم بعد يومين على مقربة من جسر الفردان، ورغم انهم نجحوا في الوصول الى مجرى القناة ووضعوا اللغم في طريق البواخر الا ان السفن في تلك الليلة لم تكن من بينها سفينة بريطانية واحدة، وحين بدأت خيوط الفجر الاولى تتسلل الى المكان وايقنوا ان لا امل في وصول سفينة معادية همّ الملازم حسن التهاني ان يفجر اللغم في اول سفينة تمر بصرف النظر عن جنسيتها وكانت السفينة القادمة باخرة هولاندية للركاب، ولكن الاخوان منعوه منْ هذا العمل الذي اعتبروه فوق انه غير انساني فهو ايضاً مخالف للاوامر التي تقضي بالتعرض للسفن البريطانية وحدها. ولم يفطن ركاب تلك السفينة الهولاندية وهم يعبرون مجرى القناة في تلك الليلة المظلمة من ليالي شهر يناير الى ان سفينتهم كانت تمر على بركان صامت لم يكن ينقصه لينفجر الا ان تتماس بعض الاسلاك الرفيعة على الشاطىء، وهكذا انتهت تلك الليلة وانتهت معها المحاولة الاولى والاخيرة التي اشترك فيها تشكيل الضباط الاحرار معنا في عمل مباشر خلال معركة القناة.

٩ ـ البدو في جيشنا السري

قوة التحمل ـ القدرة على التستر ـ الإستفادة من طبيعة الأرض ـ معرفة الطرق والسير فيها ليلاً ونهاراً ـ هذه الدروس التي نحرص على تعليمها للجندي، وخاصة جندي العصابات حيث ينعزل في حالات كثيرة عن وحدته، ولا يبقى له إلا أن يستعين بمواهبه ومعلوماته الشخصية، هذه الدروس التي نعلمها للجنود ونبتكر الوسائل المختلفة لتعويدهم عليها تعتبر خصالاً فطرية عند البدوي وجزءاً من حياته اليومية، ويندر أن تجد بدوياً لا تتوفر فيه هذه الصفات وصفات كثيرة إلى جانبها كالجسارة وحسن استخدام الأسلحة وإحكام التصويب، ومن أجل ذلك يمكن اعتبار البدو محاربين بفطرتهم، ولما كانوا يضيقون بالنظام ويمقتون التقيد بالأوامر كانوا أقرب في تكوينهم النفسي إلى أن يكونوا جنود عصابات من الطراز الممتاز.

هذه الفكرة عن البدو قديمة عندي، وقد جربت نجاحها في مناسبات مختلفة ولم أندم عليها بتاتاً بل ندم الذين وقفوا موقف المعارضة منها، وقد استحضرتها في ذاكرتي صباح ذلك اليوم وأنا في الطريق إلى القاهرة، حين كنت أتلفت من نافذة القطار عند واحة رمانة أو قطية قبل القنطرة الشرقية فأشاهد بيوت الشعر التي يسكنها البدو وهي تسبح في إتجاه معاكس لسير القطار قبل أن تختفي وراء الكثبان الرملية المتجددة، وحين كنت أشاهد البدو وهم يسقون إبلهم من الآبار القريبة أو يمتطون ظهورها فتنطلق بهم مسرعة وهم يهزجون بأغانيهم البدوية الساذجة، وقلت لنفسي لو أننا نستطيع كسب هؤلاء البدو إلى صفنا فإننا نكون قد أحرزنا نجاحاً عظيماً.

إن بيوتهم تصلح مخابئ لرجالنا وإن إبلهم هي وسائل النقل الوحيدة عبر هذه الصحراوات المترامية، كما أن آجام النخيل المنتشرة في المنطقة تصلح قواعد لنا إذا تطورت العمليات وأصبح علينا أن نغير على الانجليز من البر الشرقي للقناة.

فكرة خاطئة

إن الفكرة القائلة إن البدو يمكن شراؤهم بالمال، وإنهم على استعداد دائماً للتعاون مع أي عدو يستطيع أن يبذل مالاً أكثر لهي فكرة خاطئة من أساسها، ولا يعني ذلك أنه لم يظهر في البدو ـ كما ظهر في غيرهم أيضاً ـ خونة يبيعون أوطانهم في سبيل المال، ولكنها حالات نادرة إلى حد بعيد. وحتى هذه الحالات القليلة إذا استقصينا اسبابها بشيء من الإنصاف نجد أنها تعود إلى الفقر المدقع الذي يعيش فيه البدو، وإلى الإهمال المستمر الذي يلاقونه من الحكومات، كما أنها تعود أيضاً إلى عوامل الإضطهاد والتفرقة التي يتعرضون لها. لقد وقفت خلال حرب فلسطين الماضية على حالات كثيرة يمكن أن تفسر هذا القول، فقد كان بعض البدو يأخذون أموالاً من العدو اليهودي نظير معلومات حربية أو عمل تدميري معين فكانوا يأخذون المال ثم يلجأون إلينا لنحميهم من مطاردة العدو أو عملائه. ولقد كنا عند حسن الظن بنا ففرضنا عليهم حمايتنا وتركناهم يتمتعون بأموالهم في مناطق أخرى وراء الخطوط، ومن ذلك يتضح أن البدوي في الوقت الذي تتنازعه فيه رغبة طارئة في الظفر بالمال لسد حاجاته الضرورية تقوم في نفسه رغبة أخرى ولكنها رغبة أصيلة تمنعه من اقتراف الخيانة فلا يجد أمامه إلا الفرار إلى جهة يمكنه أن يطمئن فيها ليبقي على المال الذي وقع في يده دون أن يتعرض للعقوبة ودون أن يكون مضطراً لخيانة دينه وقومه.

وحين شاع عند البدو أننا نحمي الذين يأخذون أموالاً من العدو، ونفسح لهم مجالاً آمناً في مناطقنا، أصبح الكثير منهم يمارسون هذه الحرفة. ولا شك أننا قد أعفينا أنفسنا بهذه السياسة من شر كبير، ومما يؤكد هذه الفكرة أيضاً ما ترويه أخبار الحملة البريطانية على مصر في عام ١٨٨٢ من أن وزارة الحرب البريطانية عهدت إلى أحد جواسيسها المعروفين وهو(بالمر)بمهمة الإتصال بالقبائل البدوية القاطنة في صحراء سيناء وفلسطين وزودته بأموال طائلة لشرائها، وقد أخذ هذا الجاسوس يبعثر ملايين الجنيهات على رجال القبائل ولكن البدو قتلوه بعد أن أخذوا كل ما معه. وحين نجحت الحملة البريطانية على مصر ووقف قتلته أمام المحاكم العسكرية الإنجليزية، اعترفوا بأنهم قتلوه بعد أن سلبوا ماله لاعتقادهم أنه كان كافراً يحارب الدين!

وليس مجال هذا الكتاب من الاتساع بحيث نفيض في علاج هذه القضية الهامة، ولكن حسبنا أن نقول أن البدو يشكلون جيشاً عظيم الأهمية في الصحراء وأنهم بفطرتهم يكرهون الخيانة و يترفعون عنها ولا يقترفونها إلا تحت عامل الحاجة والشعور بالاضطهاد، وإن إهمال الحكومات لشأنهم -كما هو الحال في مصر مثلاً- هو المسؤول في المقام الأول عن احتراف الكثيرين منهم التهريب، ودفع القلة القليلة منهم للتعاون مع العدو بحثاً عن القوت الضروري. ويجب علينا قبل أن نلوم البدو ونسرف في لومهم أن نلوم أولئك الذين لا يجهدون أذهانهم في دراسة مشاكلهم وتصور الحياة القاسية التي يحيونها في الصحراء فهؤلاء أحق بالملامة!

لقد أشرفت بنفسي في مناسبات مختلفة على تنفيذ سياسة هدفت إلى التعاون مع البدو واستغلالهم ضد العدو، وأستطيع أن أقول بعد عشرات التجارب أن هذه السياسة أدت إلى نتائج مرضية وأن من السهولة أن نكسب البدو إلى صفنا إذا نحن قررنا أن نعاملهم معاملة إنسانية رفيقة، وأن نشعرهم دائماً بأنهم مواطنون صالحون لهم من الحقوق ما لنا وعليهم من الواجبات ما علينا، كما أن من الضروري أيضاً وأنا أستعرض الدروس التي مرت بنا خلال ثورة القنال أن أوصي رجال الإخوان المسلمين في كل مكان والذين يتعرضون للمسؤوليات القيادية منهم بصفة خاصة، أن يعملوا على نشر فكرتهم بين القبائل البدوية، ذلك لأن البدو بفطرتهم البسيطة وحياتهم الخالية من التعقيد أكثر الناس تقبلاً للفكرة الدينية واستعداداً للدفاع عنها، وإذا أردنا أن نستفيد منهم في معركتنا المقبلة ضد الصهيونية فيجب أن يسبق ذلك تعارف واتصال وتوجيه سليم ويجب أن ندرك أن كل إتصال يسبق الحرب نفسها يساعد على توفير أعظم قدر من النجاح خلال تلك الحرب.

زيارة ليلية

لقد ظللت أترقب الفرصة السانحة منذ بداية المعركة لأتعرف على القبائل البدوية التي تسكن على امتداد خط السكك الحديدية القادم من فلسطين إلى وادي النيل، أو التي تتناثر مضاربها في البقعة الرملية المنبسطة بين قناة السويس ومديرية الشرقية، غير أن الفرصة لم

تسنح إلا في وقت متأخر حين جئت لزيارة رجالنا المرابطين في القنطرة الغربية، وسألتهم عما إذا كانوا قد تعرفوا على بعض رجال البدو المحيطين بالمنطقة فذكروا أن هناك رجلين منهم ينتسبان إلى الإخوان المسلمين أحدهما (سليم) والآخر (عميرة) فأبديت رغبتي في التعرف بهما، وفي مساء ذلك اليوم جاء «أحمد القصاص» رئيس شعبتنا في القنطرة الغربية ومعه شاب عرفته من ملامحه فقد كانت له عين الصفات التي يتميز بها البدو، و يتفردون بها عن الناس كيان نحيل طويل، وسحنة سمراء ينعكس عليها مزيج من الصرامة والنبل ونظرات نفاذة يشع منها بريق الذكاء. وقال أحمد القصاص باقتضاب: «الأخ سليم» فرحبت به وجلسنا نتسامر بعض الوقت، وأخذت أسأله عن قبيلته والمناطق التي يسكنونها وعن القبائل المجاورة وأسماء المشايخ والوجهاء فيها، ومن الأجوبة التي قالها سليم عرفت أن جميع القبائل التي تسكن هذه المناطق تعود في أصلها إلى قبائل سيناء، ولكنهم ارتحلوا إلى المناطق الخصبة حيث تملكوا الأراضي الزراعية واحترفواالفلاحة على غير عادة البدو وكانت النتيجة التي توصلت إليها سارة بالنسبة إلي، ذلك لأنني أعرف قبائل سيناء وتربطني بكثير من رجالهم روابط الصداقة وسيكون من السهل علينا أن نتعاون مع هذه القبائل ونستفيد منها في حركتنا ولما أبديت رغبتي إلى سليم في زيارة المنطقة التي تسكنها قبيلته لمعت الإبتسامة على محياه وقال «أهلاً وسهلاً يا أخي» وافترقنا على أن يعود إلي في مساء اليوم التالي.

وبعد سهرة طويلة مع الإخوان خرجنا سليم وأنا ومعنا زميل ثالث هو «عبد المحسن الهواري» من خيرة رجالنا في القنطرة الشرقية، والذين أبلوا بلاءً حسناً في الحركات التي دارت في تلك المنطقة، واتجهنا جميعاً صوب الشمال الغربي، وحين تركنا منازل القنطرة وراءنا وتوغلنا في الحقول الخضراء سألت سليم عن المسافة التي كان علينا أن نقطعها لنصل إلى منزله فقال «قريبة!» قلت: بمقاييس البدو أم الحضر؟ قال ضاحكاً: بل بمقاييس الحضر، ذلك لأن كل مكان يعتبر قريباً بالنسبة للبدوي الشديد التحمل الذي تعود على قطع المسافات الشاسعة سيراً على قدميه، ولكن الأمر يختلف تماماً بالنسبة للحضري الذي يتعبه السير الطويل، وربما تسأل البدوي عن مكان ما فيصفه لك بأنه قريب، ولكنك لا تصل إلى غايتك إلا بعد ساعات طويلة، ورغم أن سليم قد فهم مقصدي إلا أنه تبين لي بعد أن وصلت مكدوداً بعد ثلاث ساعات من السير السريع أنني كنت مخطئاً في التقدير، وأن سليم رغم تحضره النسبي كان لا يزال يحتفظ بمقياسه البدوي.

ولقد حاولت إضاعة الوقت بأن أقص على زملائي بعض ذكرياتي عن البدو والبادية، ذلك، لأن أكثر ما يعينك على كسب ثقة البدوي وصداقته أن تشعره أنك لست غريباً عنه، وكلما جعلته يعتقد أنك قريب من البداوة كلما زدت ارتفاعاً في عينيه وزاد احترامه لك، ويجب أن تحذر جيداً إذا كنت تحرص على أن تظل محترماً في عين البدوي أن يبدو عليك الخوف من الأخطار أو التعب من المشي والعجز في مسابقته في قفز العوائق وتسلق الكثبان بالخفة والرشاقة اللازمتين، وإلا كنت في نظره (فلاحاً) لا خير منك، وهم يطلقون هذه الصفة على المدنيين الناعمين تعبيراً عما يكنونه لهم من احتقار وازدراء.

وحين توغلنا بعيداً ولم يعد يظهر من المدينة إلا نور ضئيل انحرفنا يميناً بمحاذاة قناة السويس في اتجاه بحيرة المنزلة، وكنت لا أزال أتبادل الحديث مع سليم وأقص عليه ذكرياتي ثم أطرح عليه بعض الأسئلة، ولم يكن حولنا إلا سكوت مطبق لا يقطعه إلا نقيق الضفادع الذي ينبعث من البرك الراكدة المتخلفة عن الترع، وإذا اقتربنا من شواطئ المنزلة أخذ الضباب ينتشر أكثر فأكثر حتى تعذرت علينا الرؤية، ولم يعد من السهل أن ننطلق مسرعين فوق أرض تملأها الحفر الطينية، وتتشابك فيها المصارف والقنوات، وحينذاك أمسك سليم بأيدينا وانطلق مسرعاً وهو يجرنا وراءه دون توقف كأنما يسير على الارض المنبسطة في وضح النهار، ذلك لأن من السهل على البدوي إذا سلك طريقاً في النهار ولو مرة واحدة أن يسير فيه مرة أخرى مهما كان الظلام دامساً.

وحين ازداد تراكم الضباب الثقيل فوقنا، وبدونا ثلاثتنا كأننا مخلوقات خرافية تغوص في أعماق المحيط -محيط من الضباب تتراكم طبقاته فوقنا إلى علو لا نهائي- أطلق سليم يدي وقال ها قد وصلنا ولم أتبين أمامي شيئاً، ولكن حين خطونا إلى الأمام بدأت أسمع نباح كلب بعيد أخذ صوته يتضح شيئاً فشيئاً، وبدا نور ضئيل أمامنا وكلما ازددنا اقتراباً اتضحت لنا معالم بيت طيني بسيط، وفي ساحة مغطاة بألواح الصاج والقش جلسنا نستريح، وأخذ سليم يوقد النار ويهيئ لنا الشاي وفطور الصباح، وحين نظرت إلى الساعة كانت تشير إلى ما قبل الخامسة بقليل، وكان علينا أن نتناول فطورنا بهدوء ونستلقي بعض الوقت قبل أن ينطوي الليل، وتنجاب طبقات الضباب تحت شمس الصباح القوية.

مناطق للوثوب

لقد بدا واضحاً أن الشمس قد طلعت منذ وقت طو يل، ولكن مرت ساعات قبل أن يتبخر الضباب أمام أشعة الشمس الدافئة، وحين ذاك استطعنا أن نتبين مكاننا بالضبط وأن نرى حولنا مساحة من الأرض لا يحدها البصر وقد غطتها النباتات الخضراء الزاهية، وحين هبت عليها نسائم الصباح القوية أخذت تبدو أمامنا كبحيرة عظيمة متموجة تسبح فوق سطحها الأخضر زهور مختلفة الألوان، وتنفرج صفحتها هنا وهناك عن بيوت صغيرة بيضاء يسكنها الفلاحون، واستطعنا أن نتبين أمامنا عن قرب شر يط السكة الحديدية المحاذي لقناة السو يس، و بعد لحظات مر قطار بر يطاني استطعت أن أتبين من خلال منظاري المكبر أنه يحمل مصفحات ودبابات من ميناء بورسعيد، كما رأيت قافلة طو يلة من سيارات العدو العسكر ية قادمة من بور سعيد أيضاً، وقنا في اتجاه السكة الحديدية حين أبديت رغبتي في الإقتراب من هذه الأهداف لأقصر مسافة ممكنة.

كان بالقرب من طر يق السيارات طاحونة مهجورة لم نستطع الوصول إليها إلا حين خلعنا أحذيتنا، وخضنا في أرض تنتشر فيها الأخاديد الموحلة العميقة، ونظرت يميناً وشمالاً فوجدت الأرض «المكسرة» المليئة بالحفر والمصارف تحاذيها إلى مسافات بعيدة، وسمعني سليم أحدث نفسي فقال: ماذا!؟ قلت لا شئ! وكنت في الواقع أهمس لنفسي أنها منطقة تصلح كثيراً للكمائن!

أ ـ بيوت مهجورة تقع على بعد أمتار من مواصلات العدو وتصلح للإختباء!

ب ـ أرض وعرة تملؤها الحفر والمصارف وتعرقل مطاردة العدو لنا!

ج ـ ترع جافة تتوغل بعيداً حتى تسلمك إلى البساتين ومضارب البدو!

د ـ أهم من ذلك كله منطقة يسكن سليم وقبيلته على مقربة منها، مما يسهل إخفاء الأسلحة وتمو ين الرجال!

لقد برزت أمامي مرة أخرى أهمية الأرض وأهمية التعرف إلى القبائل التي تسكنها وإيجاد صلات قو ية معها، ولكن برزت في نفس الوقت مشكلة أخرى وهي أن قوى الجيش البر يطاني ستقوم بمطاردتنا حتماً، ولن تستطيع هذه العوائق الأرضية أن تفعل أكثر من

تأجيل المطاردة ساعة أو ساعتين، وهي مدة لا تكفي لكي يعود رجالنا إلى أقرب قاعدة لهم في القنطرة الغربية، كما أن عودتهم بأسلحتهم إلى هذه القاعدة سيكون أمراً يلفت النظر وربما عرفهم عملاء العدو الذين لا يمكن أن تخلو منهم منطقة فيبلغون عنهم الانجليز مما يهدد قاعدتنا تماماً ويعرضنا نحن والسكان المدنيين لشر الأخطار، لقد برزت هذه المشكلة وأخذت تلح علي وأنا أنقل البصر بين الطاحونة المهجورة وقافلة السيارات البريطانية القريبة منا، وأخذت تترسب حول سؤالين هامين هما:

١ ـ أين يذهب رجالنا بعد العملية؟

٢ ـ أين يخفون أسلحتهم؟

لايمكن أن يكون ذلك عند سليم وقبيلته القريبة، ذلك لأن «سليم» ربما أنه كان معروفاً أنه من الإخوان كما أن البيوت القريبة هي أول من يتعرض للتفتيش، وإذن فلا بد من البحث عن مكان أكثر بعداً عن مكان عملياتنا على أن يكون خاضعاً لمراقبة رجال يوالون حركتنا. وأخذت أسأل «سليم» عن أسماء سكان الكفور الأخرى التي تقع بين (ظهر الجبل) وهي المنطقة التي تسكنها قبيلته وبين مدينة القنطرة، فأخذ يسرد أسماء كثيرة لم أعرف منها أحداً ثم ذكر إسم أولاد (الحاج شهاب البراوي) فعرفتهم على الفور.

إن أسرة البراوي فرع من عائلة (النخالوة) نسبة إلى قرية نخل التي يسكنونها في شبه جزيرة سيناء وهم رجال عرفوا بالصلابة وتعودوا حياة الصحراء وأتقنوا معرفة دروبها ومساربها، فاتخذت الحكومة منهم أدلة وجنود بوليس ووصل بعض رجالهم إلى رتب عالية في قوات الحدود البوليسية، وكنت أعرف الكثيرين منهم كما أعرف عميد العائلة أيضاً (الحاج شهاب البراوي) فطلبت من «سليم» أن يأخذني فوراً إلى مزرعتهم وهكذا انطلقنا ثلاثتنا عائدين إلى القنطرة من طريق آخر.

وحين وصلنا إلى غايتنا بعد حوالي ساعة واستقبلنا أحد أصحاب المزرعة عرفني به «سليم» قائلاً «إنه أحد أولاد الحاج شهاب» فلما عرفني بإسمي صافحني مرحباً وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث، والحق أنني لم أجد صعوبة تذكر في إقناع هؤلاء الرجال بأن يجعلوا من أرضهم مخبأ لأسلحتنا وملاذاً لرجالنا وإن بدا عليهم تفكير عميق قبل أن يقرروا ذلك بصفة نهائية، ولعلهم تصوروا بعين الخيال دبابات العدو ومصفحاته تسحق زراعتهم وتروع نساءهم وأطفالهم وهي تبحث عن رجالنا. وقد حدث ذلك فعلاً لهم

ولغيرهم مرات كثيرة ولست أظن أنهم ندموا على الخدمات التي أدوها لنا. إن ضريبة الوطن يجب أن تؤدى، ولقد أداها مزارعون كثيرون في هذه المنطقة!

لقد تعرف رجالنا بعدي على قبائل أخرى في المنطقة كان أهمها «البياضية» وهي قبيلة عميرة الذي ورد ذكره في اول هذا الحديث، واخذوا ينقلون الاسلحة والذخائر ومواد الإسعافات الأولية ويختزنونها في مزارعهم، وأصبح من الأمور المألوفة بعد ذلك أن يصطدم رجالنا بالقوافل والقطارات البريطانية، ثم يتسللون عبر المزارع ليلقوا بأسلحتهم في الأماكن المعدة لهذه العملية قبل أن يعودوا إلى قاعدتهم في القنطرة مرة أخرى، وعبثاً حاول الانجليز العثور على أحد منهم رغم الحملات الكبيرة المتعددة التي كانت تحاصر المناطق، وهي معززة بطائرات الإستطلاع التي كانت تطير على علو منخفض، وهكذا تحققت فكرة إيجاد قاعدة فرعية لرجال المقاومة أطلقنا عليها فيما بعد إسم (منطقة الوثوب) وحين نجحت الفكرة ووضحت أهميتها أرسلنا أمراً إلى جميع مناطقنا نطلب فيه تطبيق هذا الدرس. ولقد جاء في رسالة وجهناها إلى قادتنا في المناطق ما يلي: «يجب أن نعترف أن قواعدنا في المدن-رغم أنها تهيء لنا مكاناً حسناً للاختباء- لا تمنحنا حرية التنقل بأسلحتنا والعودة إليها مباشرة بعد العمليات، ولذلك نجد من الضروري البحث عن مناطق اخرى تكون اقرب الى مناطق العدو وعلينا ان نخبيء أسلحتنا بعناية، وأن يتسلل اليها الرجال قبل العملية للتزود منها بالأسلحة والعودة اليها بعد ذلك كما يجب أن تتوفر فيها مثل هذه الشروط:

أ - أن نوثق علاقتنا مع سكان المنطقة بحيث يصبحون موالين لنا تماماً.

ب - أن تكون بعيدة نسبياً عن مناطق العمليات.

ج - أن يكون بالإمكان تموين الرجال فيها لمدة أسبوع على الأقل إذا حيل بنهم وبين العودة.

د - إعداد مخابىءجيدة وسط المزارع للاسلحة والملابس.

ولقد أكدنا على قادتنا في هذه الرسالة ضرورة التنبيه على الرجال أن يعودوا متفرقين من طرق مختلفة حتى تضيع الآثار ويتعذر على العدو تحديد الأماكن التي لجأوا إليها.

وقد طبق هذا الدرس في الإسماعيلية وبور سعيد والشرقية على نطاق واسع بعد ذلك وحقق من الفوائد أكثر مما توقعناه.

الإستدراج

تنفيذاً للقرارالذي اتخذناه بشأن إعداد القواعد الفرعية أو مناطق الوثوب أصبح من الضروري تهيئة منطقة من هذه المناطق أمام الأهداف الحيوية للعدو، ولقد اعتبرت منطقة «ظهر الجبل» هي منطقة الوثوب بالنسبة للسكك الحديدية وطرق المواصلات بين القنطرة و بور سعيد، ولما كان للعدو بعض الجسور على امتداد الترعة «الحلوة» بين القنطرة والإسماعيلية ليعبر عليها إلى مناطق التدريب التي اختارها في قلب الصحراء، كما كان له محطات مياه كبيرة تنقل الماء من الترعة إلى المعسكرات المنتشرة في تلك المنطقة فقد أصبح من اللازم اختيار منطقة صالحة تواجه هذه الأهداف، وبعد دراسة واسعة قام بها رجالنا تقرر اعتبار قبيلة «المعازة» البدوية هي المنطقة المختارة.

والواقع أن أهمية هذه المنطقة لم تقف عند حد العمل ضد هذه الأهداف ، ولكن تعاظمت قيمتها حين نجحت خططنا الإستدراجية واستجاب العدو للضغط المتواصل الذي قمنا به، فأنزل قواته الآلية لتجوب الرقعة الصحراوية بين قناة السويس وبلبيس، وكان هدفه تطويق وإبادة وحداتنا التي تغير من هذه الصحراء ومنع وصول الإمدادات التي كان يعتقد أنها تصل إلى «الإرهابيين» من قواعدهم في الشرقية.

وحينذاك أصبح على منطقة «المعازة» أن تعمل ضد هذه الدوريات الطوافة بالإضافة إلى عملها الأساسي في مهاجمة الأهداف الثابتة للعدو، والحق أن رجالنا بمعونة هذه القبيلة البدوية قد أدوا عملاً رائعاً في الحركة حين كانوا يبثون الألغام على الطرق الصحراوية بكثرة، وحين كانوا يشتبكون مع وحدات العدو الآلية كلما وقعت في الأرض الصالحة، ولا شك أن طبيعة الأرض الرملية بكثبانها العالية كانت تمنح رجالنا فرصة طيبة للعمل لا يمكن أن يتوفر مثيلها لو فشلت أعمال الإستدراج، وبقي العدو محتمياً وراء معسكراته المحصنة.

وكان من أهم الأعمال التي قاموا بها آنذاك هو تدمير الجسور التي أقامها العدو، وكان من المتوقع دائماً أن يبادر العدو إلى إصلاح هذه الجسور بما يتوفر لديه من الإمكانات المادية والقدرة الفنية، ولكن رجالنا كانوا يعودون بعد أيام لتدميرها مرة أخرى، وحين تكررت أعمال التدمير من جانبنا وتكرر إصلاح الجسور من جانب العدو هداه تفكيره إلى النتيجة

التي كنا نرقبها دائماً، والتي تعتبر كسباً عظيماً لأية عصابة تعمل ضد جيش نظامي وهي حراسة هذه الجسور بقوات ثابتة أو دوريات متحركة.

إن التطور في خطط أي جيش نظامي نحو حراسة منشآته المنعزلة بقوات ثابتة يكون دائماً تطوراً في مصلحة العصابات وقد كان تطور الأسلوب البريطاني على هذا النحو لمصلحتنا على طول الخط.

العمل ضد الجسور ومضخات المياه

إن من العسير علي أن أسجل هنا عشرات الحوادث التي وقعت ضد منشآت العدو وقواته، وإلا كانت ترديداً مملاً لحوادث يغلب عليها التشابه، فلقد كان نسف الجسور وأنابيب المياه وزرع الألغام على الطرق عملاً يتكرر كل يوم وبنفس الأسلوب، إنه صورة واحدة تتكرر عشرات المرات ولذلك أراني مضطراً إلى تجاهل معظم هذه العمليات والإكتفاء بسرد بعض النماذج التي تعين على فهم الموقف، وإنني أنقل الآن وصفاً لإحدى هذه العمليات على لسان أحد الذين اشتركوا فيها وهو عصام الدين الشربيني:

«كان الانجليز يعتقدون أن صحراء الصالحية هي الطريق التي تستخدمها قيادتنا في نقل الرجال والإمدادات من الشرقية إلى الإسماعيلية والقنطرة، فأخذوا ينظمون دوريات آلية لمراقبة هذه الصحراء، ولما كان الطريق الوحيد الذي تسلكه الدوريات المعادية في طريقها من المعسكرات إلى الصحراء يمر على جسر كبير يقع في وسط قرية مصرية هي قرية «الرياح» فقد كان باستطاعة نقطة المراقبة التي أقمناها في هذه القرية أن ترى العدو، وأن تعطي إنذاراً مبكراً إلى رجالنا في «المعازة» وفي المنطقة الصحراوية لكي يدخلوا مخابئهم، وبذلك لن يتمكن العدو من اقتناص أحد منهم على كثرة الحملات التي قام بها، ويبدو أن الضباط الإنجليز فهموا هذا السر فأشاروا بإقامة جسر جديد على ترعة الإسماعيلية بعيداً عن قرية الرياح حتى تتكمن قواته من الدخول مباشرة إلى الصحراء دون أن نشعر بهم، والحق أن إقامة هذا الجسر قد حرمنا من مراقبة العدو فعلاً كما سبب لنا المتاعب ولكنه من ناحية أخرى أقام لنا هدفاً معزولاً ومنحنا فرصة أوسع للعمل، وكانت

مجموعة «المعازة» قد كلفت بدراسة المنطقة ومراقبة عملية إنشاء الجسر وبذلك تتبعوا إنشاءه منذ اللحظة الأولى.

لقد أرسلنا بعض البدو لمراقبة إنشاء الجسر وحين أتم المهندسون الإنجليز عملهم كان زميلنا البدوي المناضل «سليم» هو أول من عبر الجسر على حماره وحين أوقفه الإنجليز على طرف الترعة وسألوه عن هويته قلب إليهم كفيه في بلادة ظاهرة وبدا عليه أنه لم يفهم شيئاً، وكان في ثيابه الرثة ومنظره الزري ما يكفي لإقناعهم أنهم أمام بدوي معتوه، فدفعوه بأيديهم وركلوا حماره بأحذيتهم الغليظة وهم يسبون و يسخطون، وكانت هذه المدة كافية لأن يعرف «سليم» كل ما أراد معرفته، ولا شك أنه لم يخطر في بال الجنود أن هذا البدوي بملابسه القذرة ولحيته الكثة من أبرع القناصة في المنطقة وأشدهم مراساً، كما لم يخطر ببالهم أنه سيعود بعد ليلتين مع جماعة من المخربين ليجعل من هذا الجسر الذي تعبوا في إنشائه كومة من الأنقاض !

لقد دلت التحريات التي قمنا بها أن العدو لم يضع حراسات على الجسر في الأيام الأولى معتمداً على بعد المسافة ومعتمداً على دورية من السيارات تعبر الجسر مرة كل ساعة، وفي اليوم الذي تم فيه إنشاء الجسر كنا نضع نحن الخطط لتدميره، وفي منتصف الليل بعد يومين كان «محمود جاويش» ينقل جماعة منابقيادة «محمد علي سليم» بسيارته الجيب إلى عرب «المعازة» حيث أخذنا أسلحتنا والمفرقعات اللازمة، ثم سرنا أكثر من ساعتين في الصحراء وراء دليل ماهر من عرب «المعازة» ولما وصلنا إلى نقطة قريبة من الجسر أرسلنا «سليم» و «سيد الريس» للإستكشاف خشية وجود كمين للعدو ورقدنا نحن على الأرض ننتظر عودتهم.

كان البرد شديداً وكنا نبذل جهداً كبيراً لمغالبة النوم بعد السير الطويل حين عاد «سليم» وزميله، وأخبرونا أنه لا أثر للعدو في المنطقة ولكن ينتظر أن تصل السيارات في جولتها المعتادة وقد انتظرنا نصف ساعة أخرى قبل أن تظهر سيارتان عسكريتان فوق الجسر و يترجل منها جنود الإنجليز ثم أخذوا يشعلون لفائفهم و يتحدثون قبل أن يركبوا سياراتهم و ينطلقوا من حيث أتوا.

وحين عاد السكون أصدر قائدنا أوامره بالعمل، فانقسمنا حسب الخطة إلى ثلاث مجموعات: إحداها مجموعة التدمير التي توجهت نحو الجسر، والثانية والثالثة للحراسة من

الناحيتين، وكانت الخطة تقضي أن تعبر مجموعة الحراسة الجسر إلى الصحراء بعد أن تتلقى الإشارة بانتهاء عملية تثبيت الألغام. وحين أنهت مجموعة التدمير عملها اجتمعنا مرة أخرى عند طرف الجسر، وأشعلت النيران في الفتيل بينما كنا نهرول مبتعدين في اتجاه الصحراء، ورغم أننا ابتعدنا مسافة كافية إلا أن بعض الشظايا وصلت إلينا حين دوى انفجار هائل ورأينا أجزاء الجسر تتطاير في الهواء، وتسقط كتلاً في مجرى الترعة وتختفي فيه، وبعد مرور أقل من ربع ساعة ظهرت السيارات البريطانية بالقرب من مكان الجسر، ولكنها وقفت هناك ولم تتقدم خطوة واحدة بينما كنا نحن نواصل سيرنا ضاربين في الصحراء الرملية.

ولما وصل عصام الشربيني إلى هذا الحد من قصته سكت، ولكنني سألته عن مصير هذا الجسر والجسور الأخرى بعد ذلك، فقال «إن هذه العملية لم تكن هي الأخيرة من نوعها، فقد أقام الإنجليز هذا الجسر أكثر من مرة، وقمنا نحن بتدميره أكثر من مرة أيضاً، وكان الإنجليز يعتقدون أننا لن نستطيع الوصول إلى الجسور كلما ابتعدوا بها عن مجال نشاطنا، ولكننا لم نعجز عن اللحاق بهم أبداً» وختم عصام الدين حديثه قائلاً: «لقد كانت فعلاً عملية مسلية!»

مشكلة في القنطرة

لقد عدت إلى منطقة القنطرة بعد شهر من تلك الليلة التي قضيتها مع «سليم وعبد المحسن الهواري» ونحن نتجول في الحقول، وكانت عودتي من الشرقية إلى القنطرة استجابة لرسالة بعث بها «أحمد القصاص» وذكر فيها أن ثمة خلافاً وقع بين رجالنا وقائدهم حينذاك (فوزي فارس) وكان قد خلف «محمد علي سليم» في قيادة تشكيلاتنا بالقنطرة بعد أن نقل الأخير لقيادة معسكرات التدريب في فاقوس. حين وصلت القنطرة وزرت رجالنا في مخابئهم عرفت سبب المشكلة توأ، وهو سبب مزمن لايعرفه إلا الذين يتولون القيادات بين شباب الإخوان المسلمين.

إنه (الملل)...إنهم يريدون أن يحاربوا ليل نهار، وإذا حيل بينهم وبين القتال لأسباب خارجة عن الإرادة ينتابهم قلق شديد، ويبدأون في الضغط على قائدهم لكي يخوض بهم

معركة، وليس كل قائد مسؤول على استعداد دائماً لأن يستجيب للعاطفة و يندفع برجاله في مغامرة غير مأمونة، لا لشيء إلا لأنهم قلقون، ومن هنا نشأت المشكلة بين فوزي فارس ورجاله .

إن هذه الروح (روح القتال) التي أثبتت وجودها عند رجالنا، ودفعتهمدائماً إلى القيام بما يشبه المعجزات تنقلب أحياناً إلى خطر عظيم ! بل لقد تسببت في الكوارث في بعض الحالات حين لم يوفق القادة في السيطرة عليها، إنها في الحالة الأولى أشبه بتيار الماء حين تتحكم فيه المحابس، فيسيل على الأرض برفق حاملاً معه الخير والنماء، وهي في الحالة الثانية كتيار الماء نفسه حين تنفلت محابسه وسدوده وتنعدم السيطرة عليه فيكتسح كل شيء في سبيله!

انها روح طيبة بلا شك ولكنها تنقلب خطراً إذا زادت عن حدها، ولا أشك أن التجارب التي مر بها الإخوان خلال الحركات العسكرية التي قاموا بها قد خففت الكثير من هذا الغلو ووضعتهم على المسافة الضئيلة الفاصلة بين الشجاعة والتهور!

وحين جئت القنطرة في تلك المرة كان الوضع فيها مخيفاً للغاية، ذلك أن رجالنا هناك كانو قد قاموا بعشرات الكمائن وأعمال الخطف وتدمير السكك الحديدية وأسلاك التليفونات والجسور، وفي كل هذه الحالات كانت خسائرنا من الجرحى لا تكاد تذكر بينما كانت خسائر العدو في المعدات عظيمة للغاية .

كان هناك تحول محسوس في خطط العدو المضادة، فبينما كان في البداية يلزم جانب الدفاع عن معسكراته ولا يطلق النار إلا إذا أطلقت عليه، تحول الآن إلى خطة جديدة طابعها «الهجوم» والتحدي . إن أي شخص يقترب من المعسكرات تطلق عليه النيران فوراً، وكذلك الحال إذا اقترب من السكك الحديدية وطرق المواصلات، وكانت هناك بادرة خطيرة أثرت علينا فعلاً وجمدت نشاطنا أياماً طو يلة في بعض المناطق . ذلك أن الإنكليز كانوا قد استدعوا عشر ين ضابطاً بر يطانياً من الملايو، من الذين أداروا دفة القتال طيلة أربع سنوات ضد العصابات الشيوعية هناك، واكتسبوا خبرة عظيمة في مواجهة هذا النوع من الحروب، ولقد أشار هؤلاء الضباط ألا تخرج القوافل العسكر ية إلا في أرتال كبيرة محروسة حراسة جيدة، كما أخذت دور يات مصفحة لا تنقطع عن المرور ليلاً على طرق

المواصلات والجسور، وكذلك أشار هؤلاء الخبراء بإنشاء وحدات خفيفة سريعة الحركة وتوزيعها على مسافات قريبة على طول خطوط المواصلات، حتى إذا حدث صدام في منطقة ما أسرعت الوحدات القريبة للتدخل ومحاصرة المنطقة المضروبة في مدة وجيزة !

صحيح أن توزيع قوات العدو على هذا النطاق الواسع يهب لنا فرصاً أحسن لاصطياد الرجال والمركبات، وصحيح أيضاً أن هذا التحول في خطة العدو ينبيء عن النجاح الذي أحرزناه حين سقناه على الرغم منه إلى إجهاد قواته وتوزيعها على هذه الصورة . كل هذا صحيح ! ولكن هذا التحول في خطط العدو يحتاج منا إلى أن نتوقف قليلاً ريثما نعيد تنظيم تشكيلاتنا على أسس جديدة .

إن القبضة البريطانية أصبحت الآن متقلصة العضلات بارزة العروق مستعدة للسحق والمحق، وواجبنا أن نطأطيء رؤوسنا حتى تتراخى عضلاتها ويخف تحفزها وحينذاك نعاود ضرباتنا من جديد !

بهذا المنطق المعقول تحدث معي « فوزي فارس » وقد أيدته تماماً في رأيه، ولكن كان علي قبل أن أعود إلى الشرقية أن أعين على تخفيف التوتر الذي ساد رجالنا إزاء هذه الحالة . ولما كنت قد بلوت الكثير من مواقف الإخوان المشابهة فقد تكونت لدي خبرة لعلاج هذه الحالات المتأزمة، وكان علاجها عندي حاضراً وهو (العمل) عمل يتوفر فيه الأمن اللازم، نجدد به نشاط هؤلاء الشباب المؤمنين وآمالهم، وحين خرجنا في تلك الليلة سوياً في دورية استكشاف شعرت أن الملل الذي كان مخيماً عليهم قد ذاب دفعة واحدة كما تنصهر كومة من جليد تحت أشعة الشمس !

كمين ناجح

كنت قد علمت من «فوزي فارس» أن البريطانيين يسيرون دوريات ليلية على طريق المواصلات الرئيسي، وهي تكون غالباً مكونة من دبابة ومعها سيارة مصفحة أو سيارتان، ولقد تذكرت تلك الأرض المعقدة التي رأيتها أول مرة مع «سليم» ولكن «فوزي فارس» أخبرني أنهم ضربوا القوافل الإنجليزية من نفس تلك النقطة قبل أقل من شهر،

وليس من المستحسن أن نعاود العمل فيها . وكان في كلامه كثير من المنطق إذ لا ينبغي لك أن تضرب من مكان واحد أكثر من مرة قبل مرور وقت كاف . ولكن الإنكليز يعرفون أيضاً هذه القاعدة «العصابية» ولا بد أنهم يتوقعون أن تأتي الضربة من مكان آخر . وقد طاب لي أن أتصور أننا سنخرق هذه القاعدة وأن نثبت أنها ليست ضرورية في كل الأحوال، ولذلك أعطيت الأمر بالتوجه إلى الطاحونة المهجورة الواقعة (في ظهر الجبل) ورأيتني مرة أخرى أسير مع عشرة رجال، ثلاثة من البدو وسبعة من الحضر في الطريق التي سرت فيها مع «سليم وعبد المحسن الهواري» .

ولقد عرجنا في طريقنا على (منطقة الوثوب) التي سبقت الإشارة إليها واسترحنا فيها يومنا كله. وفي المساء الباكر تزودنا بالمدافع الرشاشة والبنادق والذخائر اللازمة واتجهنا صوب الطاحونة المهجورة، وهناك وضعنا الألغام الكهربائية في ناحيتين من الطريق. وكان الغرض من الألغام ليس مركبات الدورية وإنما لعرقلة النجدات التي يمكن أن تصل خلال العمل، ثم وزعنا أنفسنا إلى ثلاث مجموعات صغيرة : إحداهما مع (يحيى عبد الحليم) والثانية مع (أبو الفتوح عفيفي) والثالثة مع (عصام الشربيني) وكان مفروضاً أن تختص كل مجموعة بإحدى السيارات، وقال اسماعيل عبد الله من إخوان الشرقية «إنه يفترض أن تكون الدبابة في المقدمة فإذا أطلقنا عليها النار فإنها ستكون ناراً غير مؤثرة عليها، ولن تكون لها من نتيجة سوى أن تكشف موقعنا وتمنح الدبابة فرصة القضاء علينا». وقد اقترح «اسماعيل» كعلاج لهذا الإحتمال أن يتقدم وحده إلى الدبابة وأن يقذف بداخلها قنبلة يدوية مستفيداً من المفاجأة وبدا الإقتراح الجريء معقولاً على ما فيه من المخاطر!

مرت الساعات بطيئة متثاقلة ولم يظهر أثر لسيارات العدو، وكنت قد اتخذت لنفسي مكاناً في أحد المصارف الموحلة القريبة حتى اقترب الفجر، وفجأة لمع ضوء قوي في اتجاه بور سعيد، وبدأ صوت هدير المحركات يمزق سكون الليل، ثم ظهر طابور من السيارات العسكرية يتقدم في اتجاهنا . وحين غمرنا ضوء الكشافات أخفينا رؤوسنا وراء السواتر المرتفعة، وغاصت قدماي في الوحل إلى الركبتين، وحين حاذتنا القافلة إستطعت أن أتبين على ضوء السيارات مصفحات صغيرة مكشوفة كانت موزعة بين سيارات الشحن، وقد جلس فيها الجنود البريطانيون وراء المدافع الرشاشة من طراز (برن) المثبتة على حوامل اسطوانية وهم يحركونها في دوائر، وقد ظهر عليهم التحفز الشديد !

كـانت قافلة من تلك القوافل الطويلة المحروسة ولم تكن هي الصيد الذي أردناه، وحين ابـتـعدت القافلة وانسدلت وراءها أستار الليل الحالكة وعاد السكون ثقيلاً كما كان، جاء أبـو الـفـتـوح عـفـيـفـي يخبرني أنه لا فائدة ترجى هذه الليلة وأن علينا أن نعود قبل أن تطلع الشمس، وكدت أوافقه على رأيه حين سمعنا قرقعة مبهمة على طريق السيارات، ثم أعقبها سكون. واستطاعت أذناي أن تلتقط غمغمة غير واضحة. وبعد أقل من عشر دقائق عادت الـغمغمة من جديد، وكان واضحاً أنها لأصوات كتلك التي تنبعث من جنازير الدبابات، إلا أنها اختفت مرة أخرى، وأعقبها سكوت مريب! وجاء «أبو الفتوح» مرة أخرى يزحف عـلى يديه وركبتيه ويهمس في أذني أنها دورية العدو وهذه عادتهم يسيرون قليلاً ثم يتوقفون ويـتـلـصصون، وقد طال توقفهم هذه المرة. وأخذنا نضغط على أعصابنا وكانت أقل حركة كـافـيـة لفضح الكمين، ويبدو أن بعضهم نزلوا من الدبابات وأخذوا يسيرون على الأقدام، ذلـك أنـني بدأت أسمع صوتهم بوضوح، بل خيل إلي أنني تبينت أشباحهم أيضاً وراء التل المجاور.

وبـعـد دقـائـق خلتها ساعات طويلة بدأ صوت المحركات يعلو من جديد، واستطعت أن أتبين في الظلام دبابة ومصفحة ضخمة من ذوات نصف «الجنزير» تتقدمان ببطء وبدون أي ضـوء حـتـى لـكـأنها قطعتان من الظلام المتحرك، غير أنهما أشد حلكة من الظلام المحيط بهما، وكـان واضـحـاً أن الـدبـابـة فـي المقدمة وكان برجها مفتوحاً وقد أطل من فوهته رأس جـنـدي إنجـلـيـزي يتطلع ويتفحص الظلام، وفجأة دوى انفجار مكتوم في وسط الدبابة ثم أعقبه صوت نيران سريعة مكتومة أيضا! لقد ألقى «اسماعيل» قنبلته حسب الخطة المقررة. وحين انـفـجـرت صـعد على سطح الدبابة ووجه مدفعه الرشاش طراز (ستن) وأخذ يطلق الـنـيـران على من بداخلها، واستمرت الدبابة في سيرها ولكنها لم تلبث أن انحرفت ودارت حول نفسها دورتين ثم سقطت في المصرف القريب !!.

وكـان الأمـر يخـتـلـف بالنسبة للسيارة المصفحة المكشوفة فإن رجالها لم يلبثوا أن استردوا شـجـاعـتهم بـعـد المـفـاجـأة ومضوا يغطون الأرض التي كنا فيها بسيل من النيران، وسمعت جـنـدي الـلاسـلـكـي يـتـحدث آلو... آلو... ولكنه لم يكمل حديثه إذ كانت قنبلة يدوية أخـرى قد انفجرت في السيارة فدمرت الجهاز، واستمر إطلاق النيران بصورة متقطعة دقائق أخـرى، ولـكن رجالنا استطاعوا إسكات نيران العدو بنيران مماثلة ثم قذفوا قنبلة أخرى أنهوا

بها مقاومة العدو، واستولوا بعد ذلك على الأسلحة ثم أضرموا النيران في السيارة !! وبعد دقائق معدودة كنا جميعاً عند نقطة اللقاء المتفق عليها، وأخذ «يحيى عبد الرحيم» ينادي أسماء رجاله واحداً واحداً، ياللروعة !!..إنهم جميعاً هنا ... ولم يصب أحد منهم بأذى !!

كانت المدة التي حددناها لنهاية العملية هي ثلث الساعة ومع أنها تمت في وقت أقل مما توقعنا، إلا أننا لم نكد نخطوا في طريق الإنسحاب حتى لمعت أضواء قوية من اتجاه الإسماعيلية واتجاه بورسعيد، وكانت هذه هي النجدات الخفيفة التي أشرنا إليها، وحين كنا نلج المزارع القريبة كانت الطريق وراءنا تعج بالسيارات، واستطعنا أن نسمع بوضوح الجنود البريطانيين وهم يتهيأون للمطاردة،ورغم ذلك فقد كنا مطمئنين !!

إن التحضير الجيد قبل العملية لا يضمن لك النجاح فحسب ولكن يحميك من المطاردة أيضاً، لقد قدرنا أن العدو لا يستطيع أن يبدأ المطاردة قبل ساعة على الأقل وهي مدة تكفي لكي نصل إلى المنطقة الآمنة . وقبل طلوع الشمس كنا قد لبسنا ملابس البدو والعمال الزراعيين وانطلقنا نعمل بهمة ونشاط في تحويل مجاري المياه وسقي نبات الفول، وكانت هناك طائرتان صغيرتان تحومان فوق رؤوسنا على علو منخفض، وبعد أربع ساعات تقدمت نحونا سيارة بريطانية من عشرات السيارات التي كانت تجوب المنطقة، واقتربت من المكان الذي كنت أعمل فيه وحولي بعض البدو، وكان من الجائز أن يستريب فيَّ الجنود الإنجليز لوأنهم ألقوا نظرة على وجهي الذي يختلف عن وجوه البدو، ولكن يبدو أنه لم يصلوا منطقتنا إلا بعد أن أجهدهم البحث والتنقيب في المناطق الأخرى، فنادوا علينا دون أن يترجلوا، وذهب إليهم أحد البدو، وسمعتهم يسألونه عما إذا كان رأى أحداً من «الإرهابيين» فهز رأسه دون أن يفهم منهم شيئاً أو أن يجيبهم بشيء، وكنت لا أزال أضرب الأرض بالفأس حين اندفع الإنجليز بسياراتهم لتفتيش المناطق المجاورة .

ولقد مكثنا محصورين في هذه المنطقة يوماً وليلة كان البدو خلالها يقدمون لنا الطعام ويهيئون لنا وسائل الراحة حتى جلت القوة البريطانية خائبة . وعدنا إلى قاعدتنا في القنطرة . ومرة أخرى ظهرت الأهمية العظمى لمناطق الوثوب كما ظهرت أهمية الإتصال برجال القبائل والتعاون معهم . وفي تقرير كتبناه بعد ذلك ووزعناه على مناطقنا أكدنا فيه هذه الحقائق كما نبهنا إلى خطورة الخطة البريطانية الجديدة التي تعتمد على النجدات السريعة مما يحتم علينا العناية في اختيار الأرض الصالحة التي تعرقل المطاردة .

كما أكدنا ضرورة العناية أكثر من ذي قبل ببث الألغام لتأخير وصول النجدات . ولقد علق رجالنا تعليقات ساخرة حين تناولوا الصحيفة البر يطانية التي كانت تصدر في قاعدة القناة في صباح اليوم التالي وقرأت في صفحتها الأولى أخبار الكمين الناجح و بلاغاً لقيادة العدو تقول فيه إن نجاح هذه العملية الليلية يؤكد الأخبار التي سبق أن ذكرناها عن وجود عناصر أجنبية من الألمان واليوغسلاف بين صفوف الإرهابيين !

بدو من سيناء

على أن دور البدو في معركتنا لم يقتصر على هذا الحيز المحلي بل رأينا أنفسنا مضطر ين إلى جلب بعض شبابهم من شبه جز يرة سيناء لتطعيم تشكيلاتنا العاملة في الصحراء وكانت الفكرة البعيدة لنا - وهي فكرة لم تتحقق إلا في نطاق ضيق جداً - هي استدراج العدو إلى النزول في صحراء سيناء ، وقد الححنا عليه مراراً حين تعرضنا لسير البواخر في القناة وهاجمنا نقطة الفردان . وحين رسمنا هذه الخطة كنا نعتقد أن خير من يقوم بتنفيذها هم أولئك البدو القادمون من شبه جز يرة سيناء .

ولما كان بعض هؤلاء قد عملوا معنا خلال حرب فلسطين واكتسبوا خبرة عظيمة في أعمال التسلل والتدمير، فقد قررت اختيار عدد منهم، ولجأت في ذلك إلى صديقي (البكباشي زهدي أبو العز) الذي كان في ذلك الحين مأموراً لقسم سيناء المتوسط وهو القسم الخاص بشؤون البدو في محافظة سيناء.

وكان «زهدي أبو العز» قد ساهم في حركتنا منذ بدايتها سواء في إمدادنا بالذخيرة مما كان يجمعه من زملائه الضباط أو في اختيار العناصر الصالحة من البدو الذين كان يعرفهم أكثر منا .

وقد كان زهدي سر يع التلبية ، فأرسل مجموعة من شباب قبيلة «السواركة» أستطيع أن أذكر منهم الآن شابين قاما بعمل مجيد هما «سليم ومبارك» والأول غير سليم الذي ورد ذكره في منطقة القنطرة . ومن المؤسف أنني علمت أن هذين الشابين قد استشهدا في فلسطين بيد اليهود حين كانا يقومان ببث الألغام على الطرق العسكر ية اليهودية في صحراء النقب رحمهما الله !

١٠ ـ خطط العدو المعاكسة

دعونا نعيش الآن في الناحية الأخرى من الجبهة لأن هذه الصورة التي حاولت رسمها عن معركة القناة ستظل مبتورة ناقصة حتى نضيف إليها نصفها الآخر، ونرى ماذا كان العدو يدبر من الخطط، و يستخدم من الوسائل، و يكيد من المؤامرات والدسائس، وهو يواجه هذه الحرب العنيفة .

ان العدو البريطاني لم يستسلم - كما أننا لم نكن نتوقع منه أن يستسلم بسهولة - وإذا كانت الشواهد كلها قد قامت خلال المعركة على أنه اعترف تماماً بأن قاعدته في القنال أصبحت جحيماً لا يطاق، بحيث فقدت أهميتها ومزاياها نتيجة لهذه المعركة، رغم أنه اعترف بهذه الحقيقة، إلا أنه لم يسلم بالنتيجة الحتمية لها، وهي الجلاء إلا بعد عامين كاملين من هذا التاريخ.

ولقد وضع العدو خطة واسعة لقمع هذه الحركة الوطنية وإحباطها، ولم تقتصر خطته على الناحية العسكرية فحسب، ولكن أقلام مخابراته النشطة أخذت تحوك عشرات المؤامرات والدسائس كما أخذت أجهزة الدعاية التابعة له تشن حرباً سيكولوجية ضد المواطنين . وكان هذا النشاط يسير جنباً إلى جنب مع الخطة العسكرية الواسعة التي وضعها لحماية قواته من ناحية ولسحق حركتنا من ناحية أخرى .

مقاومة المجاعة وانقطاع العمال

لقد مر بك في فصل سابق كيف أدت الحركة التي نظمناها إلى محاصرة قوى العدو وحرمانها من جميع المواد التموينية التي كانت تتمتع بها كما أدت إلى انقطاع عشرات الألوف من العمال والفنيين المصريين الذين كانت قاعدة القناة كلها تقوم على أكتافهم

و ينبغي أن نعترف أن الإنجليز بذلوا مجهوداً قوياً لإحباط هذه الحركة . فأخذوا في البداية يرسلون قوات مسلحة لحماية بعض التجار والزراع الذين رغبوا في استمرار التعاون معهم، ثم أخذوا يغيرون على النقط التي أقمناها نحن على مداخل الطرق ليمنعوا رجالنا من أداء عملهم في تفتيش السيارات وإلزامها بالعودة من حيث أتت . وكانت هذه النقط تذوب بمجرد مجيء الإنجليز ولكنها كانت تظهر على نقطة أخرى من الطريق، الأمر الذي اضطر الإنجليز بعد محاولات كثيرة إلى التسليم بأن استيراد التموين من الأراضي المصرية أصبح عملاً مستحيلاً، وإن عليهم أن يتدبروا الأمر بأنفسهم . وكذلك وصلوا إلى هذه النتيجة أيضاً بالنسبة للعمال . بعد أن حاولوا إكراههم على العمل بالقوة، وبعد أن بذلوا لهم مغريات مادية كثيرة، ولكن وطنية العمال وشدة التأثير الذي قام به رجالنا في أوساطهم كانا أقوى من المغريات !

ولقد رأينا كيف عمل الأسطولان الجوي والبحري في نقل مواد التموين من المستعمرات الأخرى للقوات المحصورة، ولكن عمال الموانيء المصريين رفضوا بعد ذلك تفريغ هذه البواخر كما رفض المقاولون والمتعهدون المصريون في كل من بور سعيد والسويس تزويد هذه البواخر بحاجتها من التموين والماء مما اضطر قيادة العدو إلى أن تشغل الجنود الإنجليز وجنود المورشان في هذه المهمة، أما بالنسبة للعمال فقد ذكرنا أنهم استجلبوا عدداً هائلاً منهم من شرق أفريقيا وجنوبيها ومن قبرص، ولقد استطاع هؤلاء العمال أن يعيدوا للقاعدة شيئاً من نشاطها ولكنه جزء ضئيل لا يفي بالغاية، يضاف إلى ذلك ضخامة التكاليف التي كانت تقدمها الخزينة البريطانية لنقل هؤلاء العمال من بلادهم البعيدة .

وإذن فقد استطاع العدو أن يشد الأحزمة على البطون وأن يصمد لحركة الحصار فترة أطول مما توقعنا، ولقد ساعده على ذلك - بلا شك - توفر وسائط النقل في يده كالبواخر والطائرات كما ساعده أيضاً قرب بعض مستعمراته إلى المنطقة .

و ينبغي أن نذكر أن الإنجليز كانوا يعتبرون هذه الإجراءات إجراءات وقتية لا تحل المشكلة، وكان أملهم كله ينحصر في تهدئة الحالة في قناة السويس، والوصول إلى حل سياسي مع مصر يضمن بقاء القاعدة كما يضمن مساعدة المصريين بحيث يعود العمال من جديد، وتنشط حركة التموين، وهذا هو الأمل الذي ظل يداعبهم والذي لم يتحقق على

الإطلاق . وحين وصلوا إلى هذه النقطة لم تعد الإجراءات الوقتية في نظرهم تكفي لإنعاش القاعدة وإعادتها إلى سابق أهميتها فأصبحوا أقل استمساكاً بها وكان هو بعض ما أردناه .

حرب سيكولوجية !!

لم تكد الحركة تبدأ أو تتسع دائرة نشاطها حتى أقام العدو محطة إذاعة خاصة أخذت توجه أخبارها وتعليقاتها باللغة العربية ، وكان معظم موظفيها من اليهود الفلسطينيين مضافاً إليهم بعض الخونة المصريين ، أما مادتها المسمومة فكانت تعتمد على التقليل من أهمية الحركة وتحذير سكان مدن القناة من التعاون معنا ، وإلقاء أخبار كاذبة عن خسائر هائلة وقعت بين صفوفنا ، كما كانت تجد من الحالة الداخلية السيئة في مصر مادة خصبة لإضعاف عزائم المواطنين ، وكأنها تقول لهم بدلاً من أن تكافحوا هنا وتعرضوا أنفسكم للقتل إذهبوا إلى القاهرة فكافحوا الإستبداد والإقطاع ..

وحين كانت القوات البريطانية تقوم بحملات الحصار والترويع ضد بعض المدن ، أو تهدم بعض المنازل كإجراء إنتقامي ، كانت الإذاعة تتخذ من هذه الحوادث مادة لتخويف المواطنين من عمل مماثل إذا ظلوا على ولائهم للحركة.

ولم تكن هذه هي محطة الإذاعة الوحيدة التي حاربتنا فإن المحطات الإستعمارية الأخرى في قبرص ولندن وغيرها كانت تقوم بنفس الدور وكان هدفها هو التأثير على أعصابنا وعلى ولاء مواطنينا لنا .

كذلك لجأت الدعاية البريطانية إلى إصدار نشرة إخبارية إسمها «أخبار القنال» كانت تطبع منها ملايين النسخ وتلزم السكان بقراءتها إلزاماً ، فمثلاً تعطي الألوف منها للحراس البريطانيين في نقط التفتيش ، وفي محطات السكك الحديدية ، وعلى مداخل المدن ، ليسلموها إجبارياً للمدنيين. أما الذي كان يرفض استلامها من المصريين فكان يحتجز و يضرب. وقد مر وقت كانت هذه النشرة هي المصدر الوحيد للأخبار، وخاصة حين أخذ البريطانيون يحظرون دخول الصحف المصرية إلى المنطقة. كذلك كانت الطائرات البريطانية تلقي أطناناً من المنشورات تحذر فيها المدنيين من «الإرهابيين» وتدعوهم إلى

التعاون مع القوات البريطانية في التفتيش عنهم . أما حملات التفتيش الفجائية واقتحام البيوت وفرض الحصار على القرى المتعاونة معنا فكانت أيضاً جزءاً هاماً من هذه الحرب النفسية الواسعة . على أن القوات البريطانية أسرفت في ارتكاب أعمال غير إنسانية وهي تشن هذه الحرب فكانت تعرض جثث الشهداء المصريين الذين يقتلون في المعسكرات على الجماهير المصرية ، وكانت أحياناً تسوق العمال أو الفلاحين بالقوة في طوابير لكي يسيروا في دائرة حول جثة شهيد مضى على قتله وقت طويل ، وقد تكون نهشته كلاب الحراسة الشرسة ، وكان هدفهم من ذلك هو إدخال الرعب في قلوبهم ، ونقل الفزع إلى مواطنيهم الآخرين حين يحدثونهم عن هذا المشهد المؤلم . ولست أدعي أن هذه الحرب النفسية المتعددة الأطراف قد فشلت تماماً بل أعتقد أنها أدت إلى شيء من النجاح ، ولكنه ليس النجاح الذي توقعته تلك الأدمغة البريطانية التي أشرفت على إدارة هذه الحرب. وكان الفضل يعود في ذلك لوعي المواطنين واقتناعهم بالحركة المسلحة ، وهو اقتناع لم توجده في الواقع منشورات أو صحافة بقدر ما أوجدته حقائق الإستعمار المرة التي عاشوا فيها وتوارثوها جيلا بعد جيل. إلا أن حركة المنشورات التي قمنا بها نحن أيضاً ساعدت على دحض المزاعم البريطانية وتوضيح الحقائق لمواطنينا. وقد أقمنا محطة إذاعة سرية في الشرقية ، ولكنها لم تعمل بعد أن تبين لنا أن صوتها لا يصل إلى مدى بعيد بسبب ضعف إمكانياتنا المادية والفنية.

تهم باطلة

ولقد كان الإنجليز ينقلون صورة مشوهة عن حركتنا فتارة يتهموننا بأننا أدوات مسخرة للشيوعية ، وتارة بأننا فوضويون متعصبون نكره الأجانب ، ولقد كنا نعجب أشد العجب ، حين كنا نقرأ ما تنشره بعض الصحف الإنجليزية المغرضة عن هذه الحركة ، وكيف أن «الإرهابيين» يقتلون النساء والأطفال ، ويحرقون أجسادهم بالنار كما تفعل القبائل الهمجية ، وكان الغرض من هذه الروايات هو تبرير بقاء الإحتلال في مصر بدعوى المحافظة على الأجانب ، وتسويغ الأعمال العدوانية التي كانت القوات البريطانية ترتكبها ضد مواطنينا ، وهي تقاتل قتال اليائس عن كيانها.

ولقد استغل الإنجليز قتل الراهبة الأمريكية «أنتوني تيمبرز» التي قتلت أثناء تبادل إطلاق الرصاص حول دير للراهبات في الإسماعيلية. ورغم أن التهمة ظلت تتذبذب بيننا وبين الإنجليز ولم يعرف بالتحديد حتى الآن كيف قتلت الراهبة المسكينة، ولا رصاص من هو الذي قتلها، وإن كان رجالنا يؤكدون أنه الرصاص الإنجليزي إلا أن الجنرال أرسكين احتل الدير بقواته وطير الأخبار إلى جميع أنحاء الدنيا، مؤكداً أن المصريين يقتلون الراهبات العجائز! ولولا وجود الجنود الإنجليز لأفنوهم عن آخرهم !!

فرِّق تسد !

لم تكن هذه القاعدة الشيطانية مبدأ اعتنقته القوات البريطانية في القناة وحدها، ولكنها سياسة قديمة تفرد بها الإستعمار البريطاني وطبقها في جميع البلاد التي ابتليت به، وكان نصيب مصر من هذه السياسة عظيماً بل إن الغزو البريطاني نفسه لم يأت إلا في أعقاب سلسلة من الفتن الكثيرة والصغيرة، فالخلاف الذي نشب بين الخديوي وجيشه، كان ثمرة لخطة محبوكة، لعب فيها البريطانيون دوراً رئيسياً. وضرب الإسكندرية بمدافع الأسطول ثم احتلالها بعد ذلك جاء عقب فتنة دموية أشعلها عملاء الإنجليز من المصريين والأجانب. والإحتلال الذي ظل يجثم على صدر مصر أكثر من سبعين سنة كان يعيش على سياسة التفرقة، تارة بين العرش والشعب، وتارة بين المسلمين والأقباط، وتارة بين الإقطاعيين والفلاحين، وأحياناً كثيرة بواسطة ضرب الأحزاب المصرية بعضها ببعض. ولذلك لم يكن غريباً أن تستخرج القيادة البريطانية هذا السلاح المتآكل وتستخدمه في معركة القناة، وكان الميدان الذي اختارته ميداناً قديماً أيضاً، وهو ميدان التفرقة الدينية بين المسلمين والأقباط. ولست أنوي الآن أن أتعرض لهذه المسألة في أدوارها القديمة، ولا للثورات المصرية التي عملت فيها الطائفتان جنباً إلى جنب، إذ ليس هذا الكتاب مجال كل ذلك، ولكني فقط أسجل بعض الحوادث القليلة التي وقعت خلال معركة القناة.

حادثة في السويس

في منتصف يناير، بلغ التوتر ذروته في مدينة السويس، وانتقلت المعركة إلى داخل الشوارع بعد أن كانت تدور خارج المدينة. وسبب ذلك أن الإنجليز كانوا قد فرضوا حصاراً

على المدينة بعد عملية هدم «كفر أحمد عبده» التي سيأتي ذكرها بعد قليل، فوجدها بعض القناصة فرصة لاصطياد الجنود الانجليز في الشوارع، وحينذاك أصدر قائد القوة البريطانية أوامره لجنوده بالتقدم في الشوارع وهم يطلقون نيران البنادق، وكان المصريون يتراجعون أمامهم وهم يطلقون بعض الرصاص، وحين وصلوا أمام إحدى الكنائس انطلقت النيران من نوافذها على المصريين، ورغم أن أحداً لم يصب بأذى إلا أن بعض المشاغبين انتهزوا الفرصة فهاجموا بوابة الكنيسة وقذفوا بعض الخرق المبللة بالمازوت بعد أن أشعلوا بها النيران فاشتعلت النيران في أبواب الكنيسة حتى تدخل رجال الإطفاء وقوى البوليس ففرقوا المظاهرةوسيطروا على الموقف تماماً.

وقد اتضح فيما بعد، أن الحادث كله مدبر من أساسه، وأن تقدم الإنجليز من هذه الشوارع بالذات في الوقت الذي كان فيه بعض جنودهم وعملائهم بالملابس المدنية يطلقون النار في اتجاه المصريين، وفي الوقت الذي كان فيه بعض المشاغبين المأجورين يتهجمون على الكنيسة كل هذه الحركة كانت دائرة متصلة، وكانت مؤامرة واحدة، طبقها عقل الكولونيل «ماندي» مدير المخابرات الحربية. ولعل أغرب ما في القصة أن مخابراتنا نحن تنبأت بالحادثة قبل وقوعها بيوم واحد غير أنني لم أعرف ذلك إلا بعد وقوعها بيومين آخرين وذلك بسبب صعوبة الإتصال في ذلك الوقت.

هكذا وقعت هذه الحادثة، وكان واضحاً ما فيها من التدبير المبيت ورغم ذلك فإن الدعاية البريطانية في القناة وخارجها استغلتها اوسع استغلال، ومضت تحرض الأقباط المصريين، وتتهمنا ـ نحن الإخوان المسلمين بالذات ـ بأننا نتهجم على بيوت الله، ونحرق الكنائس المسيحية، رغم أن الإخوان لم يشترك أحد منهم في هذه الواقعة كلها من بدايتها، لأن العمل في الشوارع ـ كما ذكرنا ـ كان مخالفاً للسياسة الموضوعة للحركة كلها، وقد ثبت بعد ذلك، وبعد تحقيق جرى في السويس، أن أحداً من رجالنا لم يشترك في هذه العملية، ولكن الدعاية المعادية التي كانت تعرف حقيقة دور الإخوان في معركة القناة ومدى تأثيرها جعلت تركز جهودها عليهم، وأملها في ذلك أن تسيء إلى سمعتهم وتوقع بينهم وبين مواطنيهم، وكانت تعتقد أنها إذا وصلت إلى تحطيم هذه المجموعة تكون قد حطمت معركة القناة كلها. غير أن المصريين مسلمين ومسيحيين، كانوا أكثر وعياً لما يحاك لقضيتهم، فقاموا جميعاً بتهدئة الخواطر وقام السيد مكرم عبيد الزعيم المصري القبطي

المعروف، بتنظيم اجتماع بين المرشد العام و بطريرك الأقباط في القاهرة، ولم يكن الأمر -كما قلنا- في حاجة إلى اجتماعات بعد أن وضحت المؤامرة ولكن مكرم عبيد أراد أن تنشر الصحف أخبار هذا اللقاء الودي حتى يعلم العدو وأشياعه أن المؤامرة باءت بالفشل الذريع.

وطنية طبيب

من المؤسف أني لا أستطيع الآن أن أذكر اسم ذلك الطبيب القبطي الذي كان يعمل في القنطرة الشرقية، كما أني لم أجد إسمه في مذكراتي القليلة، وإن كنت وجدت له أعمالاً مجيدة تستحق التسجيل.

فقد كانت وظيفة هذا الطبيب تقتضي منه أن ينتقل كل يوم بين القنطرة الشرقية والغربية، فيعبر القنال ذاهباً وعائداً كما يتجول في الكفور البعيدة عن البلدة.

وحين حاصر الإنجليز «معدية» القنطرة وأخذوا يفتشون الناس تفتيشاً دقيقاً، أصبح من العسير علينا أن ننقل الذخيرة بين الضفتين إلى رجالنا العاملين في المنطقة الغربية، وقد علمت بعد ذلك أن هذا الطبيب تطوع لهذه المهمة، فكان يضع الذخيرة والقنابل في حقيبته اليدوية مع الادوات الطبية، وينقل كمية منها في كل يوم تقريبا، وكان من الجائز ان يفتشه الانجليز لولا انه طبيب يمر عليهم كل يوم، حتى اصبح وجهه مألوفا لديهم. ولعلهم عرفوا انه مسيحي ايضا، فلم يضايقوه بالتفتيش. المهم ان صاحبنا هذا كان يرى على المعدية يصحبه كلبه الكبير كل يوم، وكان الجنود الانجليز ينصرفون عنه الى الاهتمام بالكلب الظريف ومداعبته دون ان يعرفوا ان صاحبه ضالع مع اعدائهم «الارهابيين»!

محاصرة المدن وهدم المنازل

في مرات كثيرة كان العدو يلجأ إلى فرض الحصار على بعض مدن القناة وقراها، وكان الحصار يقع - عادة - بعد حوادث تجري في المنطقة القريبة من هذه المدينة أو القرية،

وأحيـانـاً يـقـع دون حـوادث عـلـى الإطـلاق إلا الرغبة في التضييق على السكان وإدخال الـرعـب فـي قـلـوبهـم ، وإيجـاد فـجـوة من الكراهية وعدم التعاون بينهم و بين حركتنا ، على أساس أن هذا التعاون هو الذي يجر عليهم البلاء.

وفـي ضـوء هـذه السياسة فرض الحصار على بور سعيد مرة ، وعلى السو يس مرتين ، غير أن نـصـيـب الإسـمـاعيلية كان أكبر نصيب بسبب ملاصقتها للمعسكر الكبير الذي اتخذ منه الجـنرال ارسكين مقراً لقيادته ، و يبدو أن الجنرال كان يجرب هذه الخطط في المدن المجاورة له قبل أن يطبقها في المدن الأخرى ، لأنه كان يعمد إلى احتلال الأحياء القر يبة بين حين وآخـر فـيـحـيطها بالأسلاك الشائكة ، ويمنع الإ تصال بها ، ثم يأمر بتفتيشها بيتاً بيتاً بحثاً عن الأسـلـحـة أو الإرهـابـيين ، كما حاول في أول الحركة احتلال بعض المباني في قلب المدينة بصورة دائمة، مثل مدرسة البنات الثانو ية و بناية «ابوزكري» ولكنه عاد وسحب قواته من البنايتين حين اضطر لتعديل خطته واعتبر المدن كلها مناطق محظورة بالنسبة للجنود.

وفـي الـسـو يس هدمت القوات البر يطانية في أوائل شهر ديسمبر، منازل يملكها مصري اسـمـه «أحمـد عـبـده» وكـانـت هـذه المـنـازل تـشبه قر ية مستقلة على طرف حي الجناين بـالـسـو يـس ، وهي تقع بالقرب من أنابيب البترول ومضخة المياه الرئيسية للإنجليز مما كان يـسـهل مهمة الهجوم على هذه الأغراض ، فقام الإنجليز بهدمها. على أن ذلك لم يكن السبب الـرئـيـسي في الواقع لأن الحوادث التي وقعت في المنطقة كانت جد قليلة ولكن السبب أن الإنجـليز رأوا أن يـشـقـوا طـر يقاً جديداً لهم يبتعدون به عن الطرق التي كنا نحن نتعرض لهم فيهـا وكـان طر يق الخلاص في نظرهم هوتدمير هذه المنازل وشق الطر يق منها . ولقد كان عـملهم يتسم بالقسوة فإن هدم المنازل لم يكن ضرور ياً في الواقع ، وكان يمكن تفاديه ، كما أنهـم لم يمهلوا السكان إلا ساعات معدودة ، ثم زحفت الدبابات والجرارات وهي تدك المباني الـطـيـنية الهشة ، بينما انصرف المهندسون إلى تدمير المباني الكبيرة بالألغام . وقد سببت هذه الحـادثـة مز يـداً مـن الإ ثارة عند الرأي العام المصري ، وتناولتها بعض الصحف الأورو بية بـالـنـقـد الـشـديد . وقد قامت الحكومة المصر ية بعد ذلك بتعو يض هؤلاء المواطنين البؤساء تعو يضاً مجز ياً وقامت ببناء بيوت لهم أفضل من تلك التي فقدوها .

خطط مرنة

والواقع أن الجيش البريطاني رغم تقاليده العريقة ونظمه الصارمة كان يميل إلى المرونة وهو يقابل الهجمات المصرية في القناة ويبتكر دوماً من الأساليب ما يلائم تطور المعركة وينسجم مع الأساليب التي كنا نتبعها، ويبدو ان سبب ذلك يعود إلى أن هذا الجيش كجيش استعماري تعود على مواجهة ثورات شعبية كثيرة في مناطق مختلفة من العالم، وهو أمر طبيعي إذا ذكرنا أن الشعوب التي ثارت على الإستعمار البريطاني كانت دائماً تلجأ إلى حروب العصابات تشنها على الجيش الغاصب، مما أكسب البريطانيين - كما قلنا - ميلاً إلى المرونة، كما أكسبهم خبرة ربما لا تتوفر لغيرهم في مواجهة هذا النوع من الحركات الشعبية. ولقد كنا نحن نرصد هذه التطورات ونستفيد منها أيضاً، ونحاول أن نضع أساليب جديدة نتفادى بها هذه الخطط. وكانت كل تجربة جديدة تقع في منطقة ما من مناطق عملياتنا تبلغ فوراً إلى المناطق الأخرى. ولست هنا أنوي تسجيل جميع هذه الأساليب المتعددة والمتطورة التي لجأ إليها العدو، ولكنني - كما فعلت بالنسبة لعملياتنا نحن - سأحاول أن أتخير ما يتسع له المجال من هذه الأساليب وما يصلح لأن يكون دليلاً على ضراوة المعركة التي دارت بيننا وبينه، ودليلاً على عظم الضغط الذي قام به رجالنا والذي اضطر العدو إلى إدخال تعديلات على خططه وأساليبه أكثر من مرة.

الحراسات

إن أول شيء يخطر لضابط نظامي إذا هوجمت وحدته هو تعزيز الحراسات وبالنسبة للجيش البريطاني حيث تتوفر إمكانيات مادية وفنية كثيرة، كان تعزيز الحراسات لا يعني - دائماً - وضع المزيد من الجنود وتقريب المسافات أكثر فأكثر بين كل نقطة وأخرى من نقط الحراسة ولكنه كان يعتمد على تحقيق أكبر قدر من الرؤية حول المعسكرات، عن طريق بناء الأبراج المرتفعة، ووضع الكشافات الكبيرة على الأركان، وكذلك وضع خطة للنيران تكفل تغطية مساحة أكبر من الأرض بالنيران المتقاطعة، كما كانوا يلجأون إلى حيل كثيرة للإنذار، مثل كهربة الأسلاك الشائكة في بعض الحالات، أو تزويدها بنوع من

الالغام لا يحدث انفجارا ولكنه يشتعل بمجرد المساس به، فاذا اشتعل هذا اللغم سلط الكشافات القوية نوراً قوياً، وجاءت وراءها نيران المدافع الرشاشة، وهكذا كما است في الفترة الأخيرة للحركة بعدد كبير من الكلاب البوليسية المدربة.

الدوريات الآلية والكمائن

لقد وجد الإنجليز أن الإكتفاء بهذه الحراسات يتيح لنا فرصة التقدم والوصول الأسلاك الشائكة و بمعنى أننا نستطيع أن نصل بأمان إلى الأسلاك وهناك فقط نصا بالدفاعات . و يبدو أنهم وجدوا في مناسبات متعددة أن اقترابنا على هذه الصورة يمكننا إطلاق النيران فعلاً على الجنود أو قذف القنابل اليدوية على السيارات التي تكون قر من الأسلاك الشائكة كما أننا في أكثر من مرة استطعنا مغافلة الحراس وتفادي أضواء الأ الكاشفة، وفتح ممرات في الأسلاك الشائكة بواسطة القطع بالمقصات العازلة، أو بواء النسف بالألغام الأسطوانية «البنجالور»، بحيث تصبح المسافة بعد ذلك قصيرة والم سهلاً . و يبدو أن تجربة الإنجليز معنا أقنعتهم بأن الدفاع الثابت لم يعد يحقق جميع الف المتوخاة، فلجأوا إلى نوع من الدفاع المتحرك يكفل إبعادنا مسافات أكبر عن الأغر المقصودة . فأخذوا ينظمون دوريات آلية سيارة تطوف حول المعسكرات من بعيد، لجأوا إلى وسيلة أخرى شعرنا نحن بأهميتها الكبرى وهي «الكمائن»، ومن ذلك أن يخز بعض الجنود لتبادل الإختباء في بعض الوديان أو الحفر ليس بعيداً عن الأسلاك الشائ و ينتظرون على هذه الحالة ساعات في انتظار وصولنا، ولهم بعد ذلك أن يصطدموا مباشرة ليمنعونا من الإقتراب أو ينتظروا عودتنا حتى يقطعوا علينا خط الرجعة . ولا شك هذه الأساليب قد ساعدت الإنجليز كثيراً على تفادي الهجمات والتقليل من خطرها.

صحيح أننا استطعنا أن نرصد حركات هذه الدوريات، وأن نحدد الطرق التي تسل حول المعسكرات ونحدد المواعيد التي تبدأ فيها عملها بحيث نستطيع أن نهاجمها، وصح أيضاً أن رجالنا ـ في بعض الحالات ـ كانوا يترصدون لهذه الكمائن أيضاً في مخابئها ب يهاجمونها، ولكن الإنجليز استطاعوا بهذه الوسائل أن يقللوا ولا أقول يمنعونا تماماً من النش

ضد الأغراض الهامة، كالمطارات ومحطات الرادار ومراكز القيادات .

إنك تستطيع ـ كرجل عصابات ـ أن تصل إلى مراكز الجيش النظامي مهما بالغ في احتياطاته، غير أن مثل هذه الأساليب التي لجأ إليها العدو جعلت ضرباتنا غير مؤثرة ضد الأغراض الهامة!

القوافل الكبيرة

حين تعددت حوادث اصطياد السيارات على الطرق وقتل رجالها والإستيلاء على أسلحتهم، وضع الإنجليز إجراءات مشددة لأمن السيارات، منها : أن تخرج دائماً في أرتال كبيرة، وأن تكون محروسة بالسيارات المصفحة، ومعها سيارات خاصة مزودة بأجهزة لاسلكية تمكنها من الإتصال بالوحدات القريبة لطلب النجدة وتحديد النقطة التي هوجمت منها، وكانوا يلجأون لحماية السيارات من رمي القنابل في داخلها إلى أسلوب قد يبدو ساذجاً ولكنه كان يحمي الجنود من القنابل اليدوية، كانوا يغطون الأبواب بالمشمع السميك أو بشباك من السلك، ومرات كثيرة لم نتمكن فيها من قذف قنابلنا بداخل السيارات بعد تطبيق هذه الإجراءات!

أما بالنسبة للقوافل الكبيرة المسلحة فقد استطاعت فعلاً أن تحمي نفسها وأن تحرمنا من الإقتراب منها لفترة من الوقت، حتى استطعنا أن نجلب ألغام الضغط، ونبتكر حقول الألغام الكهربائية على الطرق. أما القوافل التي تعبر الطرق غير المعبدة فقد ابتكر أحد إخواننا البدو ـ إلى جانب الطريقة المعهودة في زرع الألغام ـ طريقة أخرى بسيطة يقصد منها إخراج الجنود الذين يكونون في داخل السيارات، وهي صنع مسامير غليظة من الفولاذ محددة الأطراف تدق في الرمال بعناية وكان يترتب على ذلك أن تتلف إطارات بعض السيارات فتتوقف عن السير و يترجل منها الجنود لإصلاحها، وحينذاك يمكن اصطيادهم من مسافات بعيدة بنيران الرشاشات!

النجدات «الطائرة»

لقد استخدمت هذا التعبير في رسالة وجهتها لإخواننا في المناطق أحذرهم من أسلوب لجأ إليه العدو في نجدة القوافل أو الدوريات الآلية التي تتعرض لهجماتنا. فقد لاحظنا أننا

لا نكاد نبدأ في عملية ما من هذا النوع حتى تصل النجدات البريطانية إلى مكان الحادث في وقت قصير، مما يدل على أنها كانت مستعدة للتحرك عند أول إشارة وأن الجنود كانوا مستعدين بأسلحتهم وعتادهم للعمل في دقائق معدودة.

وإذا تصورنا أن الوقت الذي يستغرقه الجنود في إعداد أنفسهم وسياراتهم والوصول إلى مكان الحادث هو نصف ساعة مثلاً فإن الخطة المدبرة كانت تختصر هذا الوقت إلى عشر دقائق فقط.

وحين تكرر هذا الأسلوب في أكثر من عملية جعلني ذلك أميل إلى الإعتقاد أن العدو قد قسم المنطقة إلى قطاعات وشكل قوات خاصة وزعها على المعسكرات القائمة على الطرق وجعل من واجبها القيام بالنجدات عند الطلب، بحيث يكون الجنود وسياراتهم في حالة استعداد تام، فإذا صدرت إليهم الأوامر تحركوا بسرعة إلى النقطة المطلوبة لنجدتها، وهكذا وجدنا أننا لا نكاد نبدأ العملية حتى نجد أنفسنا محاطين بقوات جديدة. وكان ردنا على هذه الإجراءات هو تخير أكثر الأماكن بعداً عن مراكز هذه القوات، وزرع الألغام في الطريق من الجانبين قبل بدء العمل، مع الإسراع في تنفيذ العملية في أقصر وقت ممكن والإنسحاب السريع.

حراسة القطارات

ظن الإنجليز بادىء الأمر أن إرسال قطاراتهم وراء القطارات المصرية مباشرة سيمنعنا من بث الألغام في السكك الحديدية، كذلك وضعوا أمام القاطرة عربة فارغة محملة بالأحجار أحياناً أو أكياس الرمل لكي تصطدم بالألغام قبل القطار، وقد جعلتنا هذه الوسائل ننصرف فعلاً عن وضع ألغام الضغط حين تبين لنا أنها لم تعد مجدية، وربما أنها تعرض أرواح المصريين للخطر إذا انفجرت في القطارات المصرية، واتجهنا إلى استخدام الألغام الكهربائية التي يمكن التحكم فيها بحيث كنا نترك القطار المصري يسير في طريقه ثم نصل الأسلاك الكهربائية بعضها ببعض فتنفجر الألغام في قطارات العدو.

ومن ناحية أخرى، زودوا جميع القطارات بعربات حراسة مسلحة وبالغوا في الإحتياطات والحراسات في بعض المناطق، وحين يكون القطار محملاً بالجنود أو بأشياء ثمينة، فأخذوا ينظمون دوريات مصفحة ترافق القطار في سيره من الناحيتين لتجعل الإقتراب منه مستحيلاً، وكان هذا الإجراء كفيلاً بأن يمنعنا من أداء أي عمل لولا أن كان بيننا شباب يحبون أن يموتوا بحيث لا تستطيع العوائق مهما بلغت أن تمنعهم عن تحقيق هذه الرغبة، وكان الرد على هذه الإجراءات الشديدة هو تقرير القيام بعمليات انتحارية كتلك التي مرت بك في الحديث عن عملياتنا والتي كانت القنطرة الشرقية مسرحاً لها، وكان عبد الرحمن البنان هو بطلها المختار.

احتياطات الأمن للجنود

بعد مرات كثيرة نجحت فيها عملياتنا لاختطاف الأسلحة أو مباغتة الجنود في مراكز الحراسة أصدرت القيادة أوامر مشددة لجنودها تحذرهم فيها من «الإرهابيين» وكانت تصلنا أحياناً عن طريق مخابراتنا بعض هذه التعليمات، وهي تصور مقدار الذعر الذي استبد بهم فجعلهم يتخبطون في أوامرهم. كانوا يأمرون الجنود بعدم السماح لأي مصري بالإقتراب منهم لأن هذا المصري الذي تبدو عليه البساطة والفقر قد يكون أحد الإرهابيين العتاة، كما أمرتهم بأن يطلقوا النار على أي شخص يحاول الإقتراب منهم، وكانت هذه التعليمات بعيدة عن الحكمة، ذلك لأنها وضعت الجنود في جو من الذعر والإرتباك وأثرت على أعصابهم تأثيراً سيئاً، حتى أنهم كانوا يطلقون النار لأتفه الأسباب، الأمر الذي نتج عنه إطلاق النار على بعض زملائهم أحياناً وعلى الكثيرين من المدنيين الأبرياء في أحيان أخرى، ولا أذكر أن أحداً من رجالنا العاملين أصيب نتيجة لهذه الأوامر الشاذة، ذلك أن رجالنا كانوا يأتون دائماً على نية القتال ولا يظهرون أمام الإنجليز إلا فجأة وهم على أشد حالات الإستعداد لخوض المعركة. كذلك فإن القيادة البريطانية أخذت تحذر جنودها من بعضهم بعضاً، وقد جاء في إحدى نشراتها «إن للعدو عملاء بيننا ينقلون الأخبار، وقد يكونون من الموظفين غير الإنجليز أو جنود الموريشان، وحين تتحدث إلى زميل لك قد تكون

هناك آذان غريبة تستطيع أن تلتقط هذا الكلام وتستخرج منه أرقاماً ومعلومات هامة ثم تبلغها للعدو، يجب أن تتعود الا تتحدث مع زميل لك في شؤون العمل إلا في أوقات العمل، وبعد أن تتأكد من أن أحداً لا ينصت إليك، كما يجب أن لا تكتفي بتمزيق الرسائل وإلقائها في سلال المهملات، بل يجب أن تجمع بحذر وأن تحرق في كل يوم قبل الإنصراف من العمل».

مخابرات العدو

كان العدو يعتمد على شبكة قوية من المخابرات وجيش من الجواسيس والعملاء المدربين الذين يعملون لحسابه، و ينبثون في جميع الأوساط والبيئات المصرية، وكان معظم هؤلاء العملاء من الأجانب واليهود و بعضهم من المصريين الخونة. ولم يكن مجال نشاط هذه الشبكة الواسعة هو منطقة القناة وحدها وإنما كانت جماعاته تعمل بنشاط في العاصمة والمدن الكبيرة، ويختلط جواسيسها الأكفاء بالوزراء ورجال الفكر وقادة الأحزاب السياسية، وضباط الجيش، يساعدهم على ذلك وجود السفارة البريطانية في القاهرة وقنصلياتها المختلفة في المدن الهامة. وكانت هذه الخيوط تعمل منسجمة متعاونة وفق خطة عليا، وتتلقى تعليماتها من مصدر واحد، ثم تجمع معلوماتها فترسل بها إلى رئاستها الفرعية ولكنها تتصفى في النهاية في جهة واحدة أيضاً، وعلى ضوء هذه المعلومات توضع الخطط السياسية والعسكرية التي يشترك في تنفيذها أجهزة السفارة البريطانية والجيش البريطاني في قاعدة القناة.

وكانت المخابرات البريطانية تنقسم إلى إدارات مختلفة، فهناك إدارات خاصة بالأحزاب السياسية، ونقابات العمال المختلفة والجيش المصري والبوليس المصري وحركة المقاومة الشعبية، وكانت هناك إدارة خاصة بالإخوان المسلمين ومراقبة نواحي نشاطهم، أما أهداف هذه المخابرات فكانت ذات جوانب متعددة منها حبك المؤامرات الداخلية، والتأثير على الإتجاهات السياسية في البلاد، ومراقبة حركة المقاومة الشعبية، وإعطاء المعلومات التي يستند إليها الجيش في غاراته، ومنها مراقبة الجيش المصري والبوليس المصري وإعطاء التقارير التفصيلية عن تطور هذه القوات المصرية.

ولقد كان علينا نحن أن نواجه هذا الجيش من الجواسيس الخطرين، ونعمل على إحباط خططهم وخاصة تلك التي تتعلق مباشرة بنشاطنا، وقد مر بك أن كثيراً من التجار والعمال والجنود من غير الإنجليز كانوا يعملون لحسابنا، ويمدوننا بالمعلومات اللازمة ويساعدوننا على دخول المعسكرات البريطانية، غير أن إمكانياتنا المادية والفنية لم تكن بالتي تسمح لنا أن نتوسع في العمل وننظم جهازاً فعالاً يواجه هذه الشبكة البريطانية الهامة، أما المعلومات التي كانت تقع في أيدينا خاصة بالجيش المصري أو البوليس المصري فقد كنا نتطوع بإعطائها بعض الضباط المتعاونين معنا ليبلغوها بدورهم إلى جهات الإختصاص، وكان التعاون بيننا وبينهم يجري بصفة شخصية لا دخل للحكومة فيه، حتى وقع الإنقلاب العسكري بقيادة محمد نجيب، وتشكلت الحكومة العسكرية، وبذلك تحقق قدر كبير من التعاون بيننا وبين تلك الحكومة، التي عنيت أشد العناية بهذه الناحية، وأرسلت بعض ضباطها إلى القناة لتنظيم مخابرات مضادة. وكان هؤلاء الضباط -وخاصة في الأيام الأولى- يعتمدون اعتماداً كلياً على رجال الإخوان المسلمين في منطقة القناة، وقد أتيح لي شخصياً أن أحضر اجتماعات متعددة كانت تعقد في منزل الشيخ محمد فرغلي بالإسماعيلية، يحضرها الضباط المصريون وبعض قادة الإخوان في أقاليم القناة لوضع الخطط المشتركة للمخابرات، كما كانت تعقد اجتماعات في القاهرة بين الشيخ فرغلي وبين الصاغ كمال الدين حسين أحد الأعضاء البارزين في حكومة الإنقلاب، وهو الضابط الذي كانت الحكومة قد أوكلت إليه مهمة الإشراف على هذا النشاط.

وقد استطاعت هذه الشبكة حين اكتملت لها أسباب القوة أن تصيب المخابرات البريطانية بضربات شديدة، وأن تحبط الكثير من مؤامراتها كما استطاعت أن تختطف بعض العملاء المصريين، من أمثال محمود صبري وغيره، وأن تقدمهم للمحاكم العسكرية لينالوا العقاب العادل جزاء خيانتهم للوطن.

مع البوليس المصري

بالرغم من أن البوليس المصري لم يحاول التحرش بالإنجليز، كما كان يحاول أداء واجبه في حماية الأمن إلا أن الانجليز كانوا يحسون أن البوليس يعرف الكثير عن مخابيء

«الإرهابيين» وخططهم، ولكنه لا يفعل شيئاً إزاءهم، وقد حاولوا في البداية التفاهم مع المحافظين والمديرين، وعقدت اجتماعات متعددة بين قادة مناطقهم وبين هؤلاء المحافظين لاتخاذ تدابير مشتركة لقمع الحركة، وكان هؤلاء المحافظون يتفقون معهم على ذلك، إلا أنهم لم يفعلوا شيئاً بسبب تعليمات الحكومة التي كانت تقضي بعدم القبض على رجال المقاومة من ناحية، وبسبب اختفائنا عن رجال البوليس من ناحية أخرى، بحيث لا يستطيعون ذلك حتى ولو ارادوه.

وحين تعددت الحوادث وقامت الدلائل على أن البوليس لا يتعرض لرجال المقاومة ولا يقوم بواجبه في مطاردتهم، دخلت العلاقات بين الإنجليز والبوليس في مرحلة خطرة، فبدأوا يطالبون بتجريد قوة البوليس من السلاح، ثم دلت تحريات مخابراتهم أيضاً على أن بعض ضباط البوليس في مدن القناة يتعاونون مع رجال المقاومة، فأخذوا يخطفون هؤلاء الضباط ويبعدونهم عن منطقة القناة، كما حدث مع الصاغ «حسن طلعت» قائد مخابرات البوليس في الإسماعيلية، والملازم «عبد الخالق بركات» قائد نقطة «جنيفا» وغيرهما. غير أن هذه الحالة لم تقف عند هذا الحد، بل تطورت إلى اشتباكات فعلية حين حاول الإنجليز طرد رجال البوليس بالقوة.

إشتباكات مع البوليس

أخذ الإنجليز يتحرشون بقوات البوليس ويطلقون النار على مراكزها عقب كل حادثة، وكان أمراً طبيعياً أن يرد رجال البوليس على النار بالمثل، وفي عدة مرات وقع بعض الشهداء من الجنود، وشيئاً فشيئاً بدأ البوليس يدخل المعركة وتكررت بعد ذلك حوادث التصادم بين الإنجليز والبوليس، حتى كان يوم ٢٥ يناير عام ١٩٥٢ الذي وقعت فيه مذبحة كبرى بين قوات البوليس في الإسماعيلية.

كان الجو متوتراً ينبىء عن حدوث شيء في ذلك الصباح، وكانت قوة بريطانية تحتشد في المعسكر الكبير، حين دخل ضابط من ضباط البوليس المصري على البريغادير إكسهام في مكتبه، وحين سأل الضابط المصري عن سبب استدعائه ناوله البريجادير ورقة مكتوباً

فيها أنه ثبت للقيادة البريطانية أن قوة البوليس في الإسماعيلية تساعد رجال المقاومة، وعلى ذلك فإن القيادة تطلب من هذه القوة تسليم أسلحتها والرحيل فوراً إلى القاهرة!!

وطبعاً لم يكن في سلطة الضابط المصري أن يجيب على هذا الطلب الغريب، فطلب مهلة يعود فيها إلى رؤسائه، وخرج مهرولاً، غير أنه حين وصل مبنى المحافظة وجد الدبابات البريطانية وكتيبة من المشاة تحيط بالمحافظة من كل جانب، وتحتل جميع الطرق المؤدية إليها. ولم يدخل الضابط المحافظة وإنما اتصل بالمحافظ وقائد البوليس اللذين اتصلا بالسيد فؤاد سراج الدين وزير الداخلية يبلغونه النبأ، وشد ما كانت دهشتهم حين جاءهم الجواب بعد قليل: «إن على قوات البوليس ألا تستسلم وأن تدافع عن نفسها.»

من الذي يدافع عن نفسه أمام هذا الجيش الكبير؟ وكيف يدافع؟ وبماذا يدافع؟ كل هذه الأسئلة لم يفكر فيها وزير الداخلية وهو يصدر أوامره لجنود البوليس بالمقاومة!!

ولا شك أن مسؤولية جسيمة تقع على عاتق وزير الداخلية فؤاد سراج الدين بإصداره ذلك الأمر الأخرق، الذي يدل على عدم فهم للموقف ومقتضياته، ولكن هذه المجزرة لم تكن في الواقع إلا ثمرة من ثمار الإرتجال والإضطراب في خطط الحكومة العامة، وهي خطط لم يكن وزير الداخلية وحده مسؤولاً عنها.

أخذت مكبرات الصوت المرافقة للسيارات البريطانية تدعوا الجنود المصريين إلى الإستسلام، وتحذرهم من المقاومة، ولكن تعليمات وزير الداخلية تقضي بغير ذلك، فأعد الجنود أسلحتهم واختبأوا خلف أكياس الرمل، وحين انقضت المدة المقررة وأصدر البريجادير «إكسهام» أوامره إلى قواته أن تطلق نيرانها للإرهاب، فتحركت الدبابات ووجهت أسلحتها إلى أسطح المبنى، ثم أطلقت عدة طلقات ولكن الجنود المصريين رفضوا الإستسلام، وحينذاك سلطت الدبابات مدافعها على المبنى وأخذ جنود المشاة يصوبون نيران مدافعهم الرشاشة، وبدأ الجنود المصريون يدافعون عن أنفسهم، واستمرت المعركة أربع ساعات اتصل المحافظ خلالها بالقاهرة عدة مرات وأبلغها أخبار المعركة، ونصح بالتسليم حقناً للدماء ولكن تعليمات الوزير بقيت تتلخص في المقاومة وعدم الإستسلام!!

ولكن هذه المقاومة لم تكن مجدية وماذا يمكن أن تفعله البنادق والرشاشات القليلة ضد قوة مصفحة كبيرة تساندها الدبابات؟ ولم تلبث ذخيرة الجنود المصريين أن انتهت تماماً،

وبدأوا يستسلمون بالعشرات ، وأسفرت المعركة عن مقتل مئتين من الجنود المصريين ، واعترف البريطانيون بمقتل ثلاثة عشر ، وجرح خمسة.

ولقد أحدثت هذه المعركة ردود فعل شديدة لدى الرأي العام المصري وقامت المظاهرات الصاخبة في جميع أنحاء البلاد تطالب الجيش المصري بالتدخل، كما طالبت إقالة وزير الداخلية على إهماله ، وقد أدت هذه المظاهرات في اليوم التالي إلى «حريق القاهرة» المعروف ، حين انضمت قوى البوليس إلى المتظاهرين احتجاجاً على أوامر وزير الداخلية التي تسببت في الكارثة، كما زعزعت هيبة الحكومة الوفدية وأثرت تأثيراً مباشراً في الأحداث السياسية التي تعاقبت بعد ذلك بسرعة فائقة ، والتي لم تتوقف إلا بقيام الحركة العسكرية بقيادة اللواء محمد نجيب في ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢.

١١ ـ المعركة في طورها الأخير

كان للمعارك الأخيرة أثر فعال في تعبئة الرأي العام المصري تعبئة لم يصادفها طوال كفاحه المتصل ضد الإستعمار البريطاني، وكانت الحكومة الوفدية في هذا الجو المحموم أكثر استعداداً للتخلص من السلبية التي تميز بها موقفها من أحداث القناة، بعد أن شعرت أن الأرض تهتز من تحت أقدامها، وأن العبارات المنمقة لم تعد تكفي لإقناع الشعب الهائج الذي يرى ابناءه العزل يذبحون بأيدي الغاصبين. ولقد قام رجال الإخوان في القاهرة باجتماعات مع رجال الحكومة القائمة، وبعد اجتماعات متعددة تمت بين حسين كمال الدين عضو مكتب الإرشاد وبين «محمود البديني» محافظ القاهرة والمندوب الشخصي للسيد فؤاد سراج الدين اتفقوا على أن تقوم الحكومة بإمداد المعركة على نطاق واسع، وفعلاً قام البديني بإعطاء الإخوان بعض المدافع الرشاشة من مخازن البوليس ولكنه اشترط على أن لا يحس أحد بهذا الإجراء، خشية أن يتسرب أمره إلى الإنجليز. ووعد السيد سراج الدين بأن هذه الكمية ستكون دفعة أولى تتبعها إمدادات كثيرة. ورغم أن الكمية كانت قليلة، إلا أنها أحدثت انتعاشاً عظيماً بين وحداتنا العامة، ومع أن الحكومة الوفدية لم تقدم شيئاً بعد ذلك -إذ عاجلها قرار الملك بالإقالة- إلا أن هذه الخطوة من جانبها، وإن جاءت متأخرة جداً يجب أن تسجل لها بالتقدير، وأن نعترف: أنه ربما لو بقيت الحكومة الوفدية في مكانها، ولم تسقطها مؤامرات القصر والإنجليز لاتجهت حركة القناة اتجاهاً آخر، ولتحقق الجلاء عن منطقة القناة بصورة أشمل وقبل موعده بعامين على الأقل!!

جولة محمود عبده

قبل معركة «التل الكبير» التي أشرت إليها سابقاً جاء «محمود عبده» إلى مركز رئاستنا في «فاقوس» وكان قد بلغني أنه سيحضر من القاهرة بتكليف خاص من المركز العام، للقيام بجولة في منطقة القناة ووضع تقرير عنها، وكان عليَّ أن أنتظره في ذلك اليوم لأصحبه في جولته تلك. ولم يكن محمود عبده غريباً علينا، فقد كان يقود سرية من سرايا

الإخوان المسلمين خلال حرب فلسطين، وهي القوة التي اشتركت في اعمال الدفاع عن بيت لحم والخليل، وكان لها دور رئيسي في الإبقاء على هذه المنطقة عربية حتى الآن(١) ورغم أنني لم أتعاون مع محمود عبده في عمل واحد، إلا أن فكرتي عنه كانت حسنة للغاية، وكان معروفاً بيننا بالإستقامة والصرامة، وشدة التقيد بالنظام. وقد مكثنا سوياً يوماً في «فاقوس» أطلعه فيه على رأيي في الموقف، وعلى صور من التقارير التي كانت ترد من المناطق المختلفة، والتقارير التي كنت أبعث بها إلى مصر عن نتائج العمليات، وعما تحتاجه من الأموال والعتاد. ثم ذهبنا سوياً في جولة على معسكرات التدريب في الشرقية، وقد بدأ هو مهمته بسؤال قادة المعسكرات ونزلائها عن برامج التدريب اليومية.

وفي اليوم التالي سافرنا سوياً إلى الإسماعيلية، حيث اجتمعنا بالشيخ فرغلي و يوسف طلعت وعرفنا ما عندهم تماماً، ثم زرنا قواعدنا القريبة من الإسماعيلية، وفي كل مرة كان علينا أن نبتكر حيلاً شتى للمرور بعيداً عن نقط الحراسة، التي أقامها الإنجليز في كل مكان لعزل المناطق بعضها عن بعض، وقد رفضنا أن يصحبنا الشيخ فرغلي أو يوسف طلعت في جولتنا، لأن مجرد مرور أحدهم معنا كفيل بأن يجذب إلينا مخابرات العدو وعملاءهم الذين كانوا يحسبون لحركات هذين الرجلين حساباً شديداً، وفي المناطق كنا ننام مع رجالنا ونعيش بينهم ساعات شائقة، و يسألهم محمود عبده عن أحوالهم ومشاكلهم ونواحي نشاطهم ومقترحاتهم، وهكذا.

وفي القنطرة الغربية اجتمعنا مع فوزي فارس ورجاله، وعلى مائدة الغداء التي جمعتنا على حصير قديم، أخذنا نتحدث، وحين خرجنا في سيارة جيب صغيرة نطوف على مجموعات رجالنا المنتشرين عند قبائل البدو، تذكر محمود عبده تلك المائدة البسيطة وهذه الحياة الشاقة التي يحياها رجالنا، فقال لي : إنك لا تستطيع أن تدرك أهمية التربية الإسلامية وأثرها في تكوين المحارب الناجح إلا حين تعيش مع هؤلاء الشباب في حياتهم القاسية، مع أنهم جميعاً إما طلاب في الجامعات، أو موظفون، أو تجار من ذوي اليسار. وقال محمود : إنه لا يدري كيف يمكن ان يطاوعنا أمثال هذا الشباب، و يرضى بحالة

---

(١) كان هذا قبل نكسة عام ١٩٦٧ «الناشر»

التقشف التي نضعه فيها لولا مراحل التربية التي مروا بها ، وفي هذه المعاني أخذنا نتحدث حين كانت السيارة تنتقل بنا من «عرب المعازة» إلى «ظهر الجبل» إلى قبيلة «العبابدة» وغيرها.

وفي بور سعيد استقبلنا «أحمد المصري» رئيس شعبتنا هناك، وكانت المناطق تبلغ بعضها بعضاً بتحركنا ، وقد نمنا تلك الليلة في بيت أعد خصيصاً لمثل هذه الحالات السرية ، وكان إلى جانب السرير الذي نمنا عليه كلانا ، صناديق حسبتها في بادىء الأمر بضائع ، حتى تبين لي في الصباح أنها صناديق مفرقعات وقنابل، وعرفنا أننا كنا ننام على سطح بركان صامت ...

وبعد يومين عدنا نتسلل مرة أخرى مرحلة مرحلة ، حتى وصلنا إلى السويس واتصلنا بقادة رجالنا هناك ، كما حدث في كل منطقة ، وقد استغرقت هذه الجولة أسبوعاً من الزمن ، عاد بعده محمود عبده إلى القاهرة بينما عدت أنا إلى فاقوس ...

تطورات مريبة!

في تلك الفترة جرت تطورات في مصر،فهم البعض منها أنها مقدمة لإقصاء الحكومة الوفدية تمهيداً لضرب الحركة المسلحة في القناة ، فقد استدعى الملك فاروق سفيرنا السابق في لندن «عبد الفتاح عمرو» وجعل منه مستشاراً سياسياً للقصر، ولم يكن «عبد الفتاح عمرو» يتمتع بأي قدر من الثقة لدى الجماعات والأحزاب الوطنية، فقد كانوا يرون فيه صديقاً للإنجليز، وبدأت الهيئات تتساءل بإلحاح عن المغزى الذي يكمن وراء استدعائه ليكون مستشاراًللملك في الوقت الذي تكهرب فيه الجو، واتسعت دائرة القتال ضد العدو!! كما أن الملك عين «حافظ عفيفي» رئيساً لديوانه ، ولم يقابل هذا التعيين أيضاً بالإرتياح ، وخاصة من دوائر الحكومة التي كانت ترى في الدكتور «حافظ عفيفي» خصماً عنيداً فوق أنه كان من ذلك الطرازمن الساسة الذين يسمون أنفسهم «بالواقعيين» وأنه أبدى آراء في الحركة المسلحة تميل إلى ضرورة مواجهة الموقف بالتعقل والحكمة ، وفتح أبواب المفاوضات مع الإنجليز، وهي آراء كانت في ذلك الجو المشحون بالتوتر كفيلة بأن تدمغ صاحبها بالخيانة لدى الجماهير.

و يبدو أن هذه التطورات جعلت الكثير ين من الساسة يعتقدون أن هناك تحولاً في الموقف، وأن القصر حين أحاط نفسه بهؤلاء الساسة أصبح يميل إلى إقالة الحكومة وفرض حكومة أخرى تأخذ على عاتقها إرضاء الإنجليز، وقمع المقاومة المسلحة، ولما كان الإخوان المسلمون قد لدغوا أكثر من غيرهم من جحور التآمر، وكانوا دائما الضحية لتغير سياسة الحكومات وتبدلها المستمر بين التطرف والتفر يط وكانت المحنة السابقة لا تزال تطن في آذانهم، حين ضربتهم حكومة النقراشي كتمهيد منها لقبول الأمر الواقع في فلسطين وتوقيع اتفاقية الهدنة، تلك الإتفاقية التي كان الإخوان يعارضونها أشد المعارضة. قلنا إن الإخوان الذين لدغوا من جحور التآمر أصبحوا هم الآخرون يتحسسون هذا التبدل و يتخوفون من نتائحه، وكان لهذا الموقف الغامض الغر يب في عاصمة البلاد أثره في تكييف المعركة على صورة جديدة.

قائد جديد وخطة جديدة!

لعل القارئ يذكر اننا اختلفنا في بداية الحركة حول خطتين، الأولى: أن نضع تشكيلاتنا في مدير ية الشرقية، وننطلق منها للعمل ضد الإطار البر يطاني من الخارج. والثانية: أن نعمل في جميع المناطق من الداخل مرة واحدة. وقد أخذنا بتنفيذ الخطة الثانية، وكنت حتى ذلك الحين متحمساً لهذه الخطة منصرفاً تماماً عن استبدالها، وحين تعددت المصادمات، و بدأ شهداؤنا يتساقطون في المناطق المختلفة، وكثرت حملات الحصار والتضييق التي شنتها قوات العدو، بدأ بعض الناس يرون أن تقتصر العمليات على منطقة الشرقية، ولكننا كنا نعد هذا الرأي نوعاً من حالات الضعف التي تنتاب بعض الناس إذا عاشوا طو يلاً في جو الخطر، وعلى ذلك، فإننا لم نلق بالاً لما كنا نسمع، ومضينا في خطتنا دون أن نسمح لأنفسنا بالتردد ...

غير أن الجو الغامض الذي طغى على عاصمة البلاد بعد حركات القصر الأخيرة، ساعد كثيراً على تقو ية وجهة النظر القائلة بضرورة تغيير الخطة.

كنت في منطقة القنطرة حين جاءت مخابرة تليفونية تدعوني لحضور اجتماع هام في الزقازيق، يحضره عبد القادر عودة، ومحمود عبده، وبعض قادة النظام الخاص. وقد قدمنا في نفس اليوم بسيارة جيب صغيرة، يقودها «محمد علي سليم» وسلكنا طريقنا عبر الصحراء حتى وصلنا الزقازيق في قلب الشرقية بعد حلول الليل، وقد اجتمعنا فور وصولنا بعبد القادر عودة الذي اخبرنا أن محمود عبده قد عين قائداً جديداً للحركة، وأن علينا أن نتلقى تعليماتنا منه. والواقع أن الجلسة التي عقدتها بعد ذلك مع محمود عبده لم تكن جلسة هادئة، لقد تناقشنا طويلاً حول سياسة العمل، وكان هو مقتنعاً بضرورة سحب الإخوان من المناطق وتجميعهم في الزقازيق، بينما كنت أنا عند الرأي القديم، والواقع أني اقتنعت بعد قليل أن هذه المناقشة غير مجدية، وأن محمود عبده هو القائد المسؤول الآن ومن حقه أن يحدد الخطة التي يريدها، وليس عليَّ إلا أن أسمع وأطيع، وهكذا انتهت الجلسة دون أن نصل إلى اتفاق!

والواقع أن السؤال الذي يجب أن يطرح ليس هو من منا كان على خطأ، ومن منا كان على صواب؟ وليس هو أيضاً أي الخطتين كانت الأحسن للعمل ضد الإنجليز؟ ولكن الموضوع هو، أينا كان أدرى من غيره بطبيعة الجو السياسي الذي أخذ يتلبد بالغيوم؟ ومن منا كان أكثر استعداداً للإنسجام مع هذا الجو الجديد ومسايرته؟ ولقد كان محمود عبده أدرى مني بهذا الجو، وأكثر قدرة على التوافق معه! ذلك لأنني كنت منصرفاً بكليتي إلى المعركة الدائرة، غير ملتفت للجو الخارجي، ومدى ما يمكن أن يحدثه من انعكاسات، وما قد يجره من مشاكل على الجماعة. كنت أنظر للقضية نظرة «حركية» صرفة، في وقت كان مصير الحركة كلها يتأرجح في ميزان السياسة المتقلبة!

ولقد استأذنت محمود عبده في صباح اليوم التالي أن أذهب لزيارة عائلتي في إجازة، على أن أعود بعد أسبوعين، فأذن لي وفي الليلة التالية كنت ومحمد علي سليم نضرب بسيارتنا الجيب، عائدين إلى القنطرة.

كان يقود السيارة في طريق ضيق يسير بمحاذاة الترعة، قبل أن نعبر على جسر من جذوع النخل ـ أقامه الفلاحون فوق المصرف، بجوار قرية «السماكين» ـ لننطلق في ارض صحراوية في اتجاه القنطرة، ولم يأت فجر اليوم التالي حتى كنا في مركز رجالنا بالقنطرة،

وحين كـان محـمـد علـي سـليم يبلغ التعليمات التي أخذها من القائد الجديد والتي تقضي بـضرورة الإنـسحاب إلى مـدير ية الشرقية، كنت أنا أعد حقائبي عائداً إلى البلدة!..

وزارة تهدئة!

حين عـدت بـعد أسبـوعين إلى الزقـاز يق كـان رجالنا كلهم قد سحبوا من المناطق الداخلية، واجتمعوا في الزقاز يق وضواحيها. وكان محمود عبده منهمكا في إعادة التدر يب في مـعـسكـرات متـقـار بة. وفي تلك الأيام ذهب «لبيب الترجمان» وجماعة معه في رحلة جر يئة مضنية، عبر صحراء بلبيس، للعمل ضد المطارات والمعسكرات في «فايد» ولكنهم فوجئوا بـانـكشاف أمرهم، فعادوا مرة أخرى كما ذكرنا سابقاً. وكانت حكومة علي ماهر التـي خلـفـت وزارة الوفد تميل إلى تهدئة الموقف، ولكنها لا تر يد أن تصطدم بنا، غير أننا شعـرنا بشيء من التضييق حين بدأ رجال البوليس يحومون حولنا، على نحو لم يكن مألوفاً في عهـد الوفديين، ومن الإنصاف أن نقرر أن «علي ماهر» رغم أنه لم يكن متحمساً للحركة المسـلحة حماس الوفديين لها، إلا أنه كان يرى أنها ربما تساعده على تحصيل كسب أكبر من الإنجليز خلال المفاوضات التي كان يعد نفسه لإجرائها معهم.

وفـي ذلـك الـوقـت مـررنـا بـفـتـرة مـن القلق إذ أخذت الحركة فيها تتأرجح بين العمل والتوقف، وهي حالة كان يجب أن نخشاها على حركة المقاومة كلها. ذلك لأن الحركات المسـلحة إذا وصلت إلى مرحلة يكون القائمون على أمرها مترددين بين التوقف والإستمرار، فإنها تفقد الإنطلاق اللازم لنجاحها!

ولم يـكـن هـذا الـوضـع - فـي الـواقع - خطأ يمكن أن يتحمله أحد ولكنه كان ثمرة للجو السـياسي الذي تعيش فيه مصر في ذلك الحين، هذا الجو الشاذ الذي وضع القضية الوطنية بيننا وبين الحكومات. بين حركات ثور ية تؤمن بالعمل الإيجابي، ولكنها لا تملك سلطة تنفيذية، وبين حكومات تملك تلك السلطة التنفيذية ولكن ينقصها الايمان بهذا العمل الايجابي!

والـعـبـرة الـتـي يمكن استخلاصها من تلك الفترة هي أن أي حركة مقاومة تكون تحت

وصاية حكومات لا تؤمن بها، تصبح حركة مشلولة ! وحركات المقاومة التي ترضى لنفسها أن تصبح أداة في أيدي حكومات غير ثورية، تسمح لها بالعمل حيناً، وتأمرها بالتوقف حيناً آخر، لا يمكن أن تصل إلى نتائجها كاملة. وليس أمام الحركات الوطنية المسلحة إذا وجدت نفسها تجتاز هذه المرحلة الصعبة، إلا أن تختار في جرأة بين أمرين: إما أن تحل نفسها بنفسها، وإما أن تتمرد على الحكومات الوطنية وتأبى الخضوع لأوامرها! وقد كنا نقدر خطورة الطريق الثاني ومدى ما يمكن أن يجره علينا من المتاعب ومع ذلك فقد قررنا أن نسير فيه!!

العودة إلى العمل

لقد وضح الآن أنه لا أمل يرتجى من معونة الحكومات، ولم يبق أمامنا إذا أردنا أن نواصل الكفاح ضد القوات البريطانية إلا أن نعتمد على أنفسنا، وأن نعود للعمل بوسائلنا الخاصة. وكان علينا أن نعلن أننا قد أوقفنا الحركة، وأعدنا شبابنا إلى القاهرة، حتى نستطيع أن نغوص مرة أخرى ونتخذ شكل حركة سرية سليمة. وكان من الواجب أن نعيد بعض الطلاب إلى معاهدهم، وأن نضع للحركة تصميماً جديداً.

وكان التصميم الجديد يقوم على تقوية العناصر المحلية في داخل مدن القناة، بحيث نعتمد عليها اعتماداً كلياً، وأن يأتي الإخوان بعد ذلك من بقية مناطق القطر على هيئة دورات فيلتحقون بمناطق القناة المختلفة، وينخرطون تحت إمرة القيادات المحلية، وكان التصميم الجديد أيضاً لا يلزم بوضع قائد عام للحركة، ولكن بوضع خطة عامة يقوم قادة المناطق بتنفيذها كل فيما يخصه. وقد كلفت بعد ذلك كما كلف محمود عبده، أن نزور هذه المناطق بين حين وآخر.

وعلى هذا الأساس نقل معظم الطلاب الجامعيين إلى القاهرة، بينما سلمت الأسلحة كلها إلى قادة مناطق القناة، وكان دور قيادة النظام الخاص في القاهرة في التصميم الجديد، هو أن تقوم بتنظيم شباب الإخوان في مجموعات وترسل بهم إلى منطقة القناة للعمل هناك في فترات دورية.

وبهذا الترتيب فتحت صفحة جديدة لمعركة القناة، و بدأت تأخذ شكلاً آخر، لا يختلف عن سابقه في الأهداف ولا في الوسائل، بل كانت تعمل على الأسس التي رسمت من قبل، ولكنها كانت تتفق مع النظرة الجديدة للحكومات المصرية، وإذا كانت المرحلة التي تحدثنا عنها لم تستغرق أكثر من ستة أشهر من عمر المعركة فإن هذه المرحلة الجديدة قد استغرقت أكثر من ذلك!

المعركة مستمرة

لم ينقض إلا شهران على تشكيل وزارة علي ماهر، حتى بدأت الغارات المسلحة في جميع مناطق القناة، ولم تتوقف بعد ذلك حتى تم التوقيع على اتفاقية أكتوبر لعام ١٩٥٤ لقد أخذ رجالنا في القناة يغيرون في كل يوم على المعسكرات البريطانية كسابق عهدهم، ورغم أن البوليس المصري بتعليمات من الحكومة أخذ يشدد أكثر من ذي قبل، بدعوى المحافظة على الأمن والنظام، إلا أن الحوادث ظلت في ازدياد مستمر.

وكانت الفترة الهادئة نسبياً التي جاءت بعد تشكيل الوزارة الماهرية قد شجعت الضباط الإنجليز على أن يعاودوا السكنى مع عائلاتهم في المدن، كما أقنعت القيادة البريطانية بتخفيف أوامر الحظر بالنسبة للجنود، فبدأوا يزورون المدن المصرية للترويح عن أنفسهم، وكانت الخطة التي وضعناها تقضي بتشجيع الإنجليز على أخذ أوضاعهم الطبيعية في المنطقة، حتى تكثر أمامنا فرص العمل والإقتناص، وفعلاً لم تكد الحالة تصل إلى هذه الدرجة من الهدوء حتى وقعت الحوادث في ليلة واحدة من بور سعيد إلى السويس. وكانت الحوادث الأولى تتجه إلى اغتيال الجنود في المدن واصطيادهم أثناء عودتهم ليلاً إلى المعسكرات، كما اتجهت إلى الهجوم على بيوت الضباط حتى يضطروا إلى إعادة عائلاتهم إلى المعسكرات أو ترحيلهم إلى إنجلترا، وكان الهدف من ذلك هو إنهاء حالة الإستقرار التي بدأ الضباط يشعرون بها، ووضعهم مرة أخرى في حالة الحرب.

أنماط من العمليات

قبل اليوم المحدد لبدء العمليات، كانت كل منطقة قد انتهت من اختيار عملية معينة، وكانت وحدتنا في الإسماعيلية تفضل أن تبدأ عملها باغتيال الجنود اثناء عودتهم من المدينة. وبعد حلول الظلام بقليل كان هناك ثلاثة رجال يقبعون وراء تل مشرف على الطريق، حين أقبل ثلاثة جنود بريطانيين كانوا يغنون بصوت مرتفع، ورغم أنهم كانوا مسلحين بالبنادق الرشاشة، إلا أنهم لم يتمكنوا من استخدامها حين فاجأهم رجالنا بالنيران، وهكذا قتل الثلاثة وغنمنا أسلحتهم ! وفي نفس الليلة أطلقت النار من مكان قريب على دورية من المشاة كانت تحرس أحد المعسكرات في القنطرة، فقتل جندي وجرح اثنان، وفي السويس القيت القنابل اليدوية على مجموعة من الضباط بينما كانوا يلعبون الورق في أحد الأندية العسكرية، فجرح ضابطان كانت جراح أحدهما بالغة، كذلك نسفنا مضخات المياه بالقرب من السويس باستخدام الألغام الزمنية !

وقد اندهشت القيادة البريطانية لهذا العمل المفاجئ الذي شمل المنطقة كلها في وقت واحد، وأدركت أنها أمام خطة واسعة محبوكة الأطراف فبدأت تعيد إجراءات الطوارئ مرة أخرى وتطلب إلى ضباطها سحب عائلاتهم من المدن، أوترحيلهم إلى بلادهم، وعادت الحالة تغلي من جديد كما كانت قبل ثمانية أشهر.

ولقد أحصينا في النصف الأوّل من عام ١٩٥٣ أكثر من مئة حادث اغتيال، أو نسف، او اختطاف أسلحة قام بها رجال الإخوان في منطقة القناة. وارتفع هذا الرقم اكثر من ذلك خلال النصف الاخير، وقد احدثت هذه الحركة اثرها السيء في الرأي العام البريطاني، واعتبرتها الصحافة البريطانية نكسة جديدة للعلاقات البريطانية المصرية، وفشلا للقيادة العامة التي انتهزت فرصة الهدوء النسبي، فأعلنت انها نجحت في تطهير المنطقة ضد العصابات المخربة، كما شجعت هذه الحركة ايضا العناصر المعتدلة في بريطانيه، فقامت تضغط على الحكومة لتجد حلاً معقولا لقضية السويس تخرج به القوات البريطانية من المأزق الذي وقعت فيه هناك، وكانت الحوادث والغارات تزداد عنفا كلما بدأت المفاوضات بين الانجليز وبين الحكومة المصرية التي تمخض عنها الانقلاب العسكري المعروف.

معركة مع مخابرات العدو

بدأت في عام ١٩٥٣ معركة صامتة، ولكنها مخيفة مع شبكة المخابرات البريطانية في القناة، وقد ساعد على نجاح هذه المعركة أن الحكومة العسكرية المصرية اتجهت إلى التعاون مع الإخوان في منطقة القناة، وجرت عدة اجتماعات بين المسؤولين من الإخوان والحكومة - كما ذكرنا - وتم الإتفاق في هذه الإجتماعات على تنظيم شبكة للمخابرات المصرية يتولى تنظيمها ضباط من الجيش وتعتمد اعتماداً كلياً على رجال الإخوان، وقد خصصت الحكومة لكل مدينة من مدن القناة ضابطاً من ضباط المخابرات مهمته الإتصال بالإخوان والتعاون معهم، أذكر منهم الصاغ «عاطف» الذي تولى هذه المهمة في بور سعيد والقنطرة. وقد استطاعت الشبكة الجديدة أن تعرقل نشاط المخابرات البريطانية، وتفضح عملاءها في القناة وغيرها من المناطق المصرية، كما استطاعت أن تخطف بعض الجواسيس المعروفين.

حرب المنشورات

وكان من عمل شبكة المخابرات أيضاً أن تقوم بطبع منشورات باللغة الإنجليزية وتوزيعها على الجنود في المعسكرات، ولم يكن ذلك أمراً سهلاً في الوقت الذي كانت فيه القيادة البريطانية متحفزة أشد التحفز، ولكن المنشورات - رغم الإحتياطات الشديدة كانت تصل إلى أيدي الجنود. كانت تلقى في دور السينما أو أماكن الراحة أو المرافق التي يرتادها الجنود أو تنشر في قطارات الركاب، أو في السيارات. وكانت المنشورات كلها تحث الجنود على الثورة والتمرد، وتذكرهم بحوادث القتل التي يتعرض لها إخوانهم، كما توضح لهم أنهم إنما يقاتلون في معركة خاسرة ليس لها هدف، وأن قيادتهم تسوقهم كالأغنام ليقاتلوا شعباً لا يريد إلا حريته، وتؤكد لهم أننا لا نعادي أفراد الشعب البريطاني، ولكننا نحارب الإستعمار البريطاني دفاعاً عن كياننا وحقنا، كما كانت تعلق لافتات كبيرة تحمل هذه المعاني على جدران الشوارع وفي المعسكرات.

وفي مرات كثيرة وضعت القيادة خططاً لمواجهة حركة المنشورات وإحباطها وإلقاء

القبض على موزعيها ولكن محاولاتها -فيا عدا حالات قليلة- باءت بالفشل، ولم تستطع إيقاف هذه الحركة أيضاً.

اختطاف الأسلحة

لقد وجدنا بعد مدة أننا لم نعد في حاجة لشراء الأسلحة من خارج المنطقة، حين استطاع يوسف طلعت ومعاونوه أن ينظموا غارات على مخازن الأسلحة والذخيرة في أبي سلطان. ويستولوا منها على كميات ليست قليلة ثم يوزعونها على المناطق الأخرى، وفي منطقة القنطرة حيث لا توجد مخازن للأسلحة كانت الحركة تتجه إلى استدراج الجنود واختطاف أسلحتهم، وكانت هذه الأعمال الصغيرة تتسم بالجرأة والمخاطرة. وفي أكثر من مرة كان أحد رجالنا يأتي إلى جندي بريطاني يقف حارساً على أحد الجسور أو المعديات على هيئة بائع متجول مثلاً، ثم يغافله ويجذب بندقيته من يده، بعد أن يركله في بطنه ركلة شديدة ثم يولي هارباً، تاركاً الجندي مذهولاً من المفاجأة. ومن الرجال الذين برعوا في هذه العمليات وتنظيمها في القنطرة الغربية : محمود شاويش، وعبد الحافظ عبد الهادي، وغيرهما.

وقد بلغ من قلق القيادة البريطانية لحوادث الإختطاف، أن أخذت تحاكم الضباط والجنود الذين يقعون ضحية لهذه العمليات، وتحكم عليهم بعقوبات قاسية، كما أمرت جنودها -وخاصة جنود الموريشان- وهم من غير الإنجليز، أن يربطوا البنادق إلى أجسامهم جيداً بحبال متينة!

الإنفصام بين الإخوان والحكومة

كان الإنجليز يدركون جيداً أن الإخوان المسلمين وراء هذه الحوادث، وحين كانت سلطات البوليس المصري في الإسماعيلية تعتذر عن عدم معرفتها بالجناة، كانت المخابرات البريطانية تدلهم على أسماء الفعلة، وتدعوهم إلى معاونتها في العثور عليهم.

وفي مرات كثيرة كان «عبد الهادي غزالي» محافظ الاسماعيلية، يدعو الشيخ فرغلي للاجتماع به، و يرجوه أن يعمل على معاونته في تهدئة الحالة، ولكن الشيخ كان يعتذر له باستحالة هذا التعاون. وفي ذلك التاريخ، نشرت مجلة «روز اليوسف» حديثاً مطولاً للشيخ فرغلي مع مندوبها، وصفته فيه بالشيخ الغامض، الذي يحسب له الانجليز ألف حساب، أكد فيه **«أن الإخوان المسلمين لا يستطيعون الكف عن هذه الحوادث، حتى يتم جلاء القوات البريطانية، وأن أفضل طريقة أمام القيادة البريطانية لحماية جنودها من أعمال العنف، هي سحبهم من قناة السويس»!**

وحين رأت الحكومة العسكرية أن تتوسع في تدريب الشعب، ووجهت نداءاتها إلى الشباب المصري في كافة أنحاء البلاد تدعوه إلى الالتحاق بمعسكرات التدريب الوطني، سارع الإخوان المسلمون إلى الانضمام لهذه الوحدات، غير أن هذه القوة كلها لم يقدر لها أن تشترك في أي عمل عسكري في القناة. ذلك لأن المفاوضات بين الحكومتين كانت قد نجحت وأدت إلى اتفاقية اكتوبر التي رأت فيها الحكومة كسباً للقضية الوطنية.

ولذلك سيطرت على هذه الوحدات سيطرة تامة، ومنعتها من المساهمة في الحركة المسلحة، وبهذا بقي العمل كله قائماً على تلك التشكيلات التي أقمناها نحن في منطقة القناة. **وحين وقع الانفصام السياسي بين الاخوان والحكومة العسكرية، بسبب الخلاف على بنود تلك الاتفاقية، طلبت الحكومة حل تلك التشكيلات ومنعها من التصادم مع الإنجليز، الأمر الذي زاد من قناعتنا أكثر من ذي قبل، أننا كنا على حق كبير، حين سلخنا الحركة المسلحة ضد العدو، عن سيطرة الحكومات المحلية!**

مصير الأسلحة البريطانية المخطوفة

حين كثرت الاسلحة البريطانية المخطوفة في يد الاخوان، وبدأت العلاقات تتوتر بيننا وبين الحكومة، وجدنا من الضروري أن نقيم قاعدة بعيدة لتخزين الفائض من هذه الأسلحة وقد وقع الاختيار على بقعة جبلية في شبه جزيرة سيناء، وكان اختيار هذه البقعة يعود إلى اعتبارات هامة، وهي ان هذه المنطقة تبعد كثيراً عن مجال النشاط البريطاني، كما

أنها قريبة من صحراء النقب، حيث كنا نعد العدة للحركة التخريبية التي وقعت في تلك المناطق ضد اليهود خلال عام ١٩٥٣ وما بعده.

وكما نقلنا الأسلحة من قطاع غزة عند بدء الحركة المسلحة، أخذنا الآن ننقلها إلى شبه جزيرة سيناء، أحياناً بقوافل الجمال، وأحياناً بالقطارات الحربية بواسطة بعض أصدقائنا الضباط. وهناك في الأرض الصخرية عند عين «القديرات» وعين «قديس» كانت تحفر الحفر وتبطن بالأخشاب ثم تودع صناديق الأسلحة والذخيرة بعناية، وكانت كل منطقة موكولة إلى أحد إخواننا سكان المنطقة لحراستها، وكان «رمضان السعدي» مسؤولاً عن صيانة المخازن ومراقبة حراستها . حتى بدأنا في تنفيذ خطتنا ضد اليهود فاستخرجت هذه المعدات وسلحت بها جماعات منتخبة من البدو، وأخذت تعمل ضد اليهود في المنطقة الممتدة من البحر الأحمر حتى بئر السبع.

على أن لهذه القصة ختاماً لا يخلو من الطرافة، ذلك أن الحكومة العسكرية حين بدأت حملتها على الإخوان، أبرقت لمحافظ سيناء القائمقام «الشباسي» تطلب منه البحث عن الأسلحة المخبأة في منطقته، وأخذت تلح بالبرقيات المتلاحقة، وكان الرجل يخرج في حملات تفتيشية، في المناطق التي كان يظن فيها وجود هذه الأسلحة، وقد اقتربت إحدى هذه الحملات من مناطق التخزين في أحد الأيام، مما اضطر رجالنا أن ينقلوا الأسلحة إلى بقعة أخرى تقع في المنطقة المنزوعة السلاح بين مصر وإسرائيل، ومع ذلك فإن التفتيش قد استمر، وجاء أحد الضباط يوماً على رأس قوة من الجنود. ويبدو أن هذا الضابط كان يؤمن بالعلوم الغيبية، ذلك لأنه اصطحب معه -كما روى لي بعض البدو- أحد الدراويش الذين يدعون علم الغيب، ليساعده في البحث، ولكن تبين له بعد ذلك أن القوة الروحية لهذا الدجال لم تستطع اختراق الطبقات الأرضية الصماء!! وحين بلغتني هذه الحادثة أدركت المأزق الذي يعانيه هؤلاء الضباط تحت ضغط رجال الإنقلاب وإلحاحهم، حتى أنني هممت أن أسلمهم هذه الأسلحة، لولا أن ذلك العمل كان يعني في حينه تعريض الكثير من إخواني للمحاكمات العسكرية، كما كان يعني شيئاً أكثر أهمية، وهو إلغاء الخطة التي كنا قد وضعناها في ذلك الحين لتسليح بعض البدو ودفعهم للإغارة على المراكز اليهودية، لم أندم على ذلك أبداً فإن هذه الأسلحة قد وزعت بعد ذلك على مجموعات من قبائل

«العزازمة» أخذت تنظم غارات واسعة على طرق اليهود وتصطدم مع قواتهم في صحراء النقب كما حققت لهم من الارتباك والذعر أكثر مما توقعنا.

قضية حسن العشماوي

غير أن هذه الفرصة الحسنة التي منحتها لنا صحراء سيناء الفسيحة حيث كان من السهل تخز ين الأسلحة ونقلها من مكان إلى مكان بواسطة الجمال والأعوان البدو، هذه **الفرصة لم تتح لرجل آخر ساقته الظروف إلى نفس التجربة وهو المحامي «حسن العشماوي».**

ولقد مر بك أن جهود الضباط الوطنيين في معركة القناة ـ فيما عدا بعض العمليات المحدودة ـ اقتصرت على إمدادنا ببعض الأسلحة والذخائر التي كانوا يحصلون عليها من وحدات الجيش، وقد كان لتشكيل الضباط الأحرار نصيب وافر في هذه الحركة إلا أن هذا التعاون انتهى في أقل من سنتين إلى نتيجة لم يتوقعها أحد، وبينما استطاعت الحركة الوطنية أن توحد هذه القوى وتدفعها لعمل قوى مشترك خلال أحداث القناة، فإن رغبات الحكام نقضت كل ذلك في وقت قصير. وجعلت خاتمة هذه القصة، قصة النضال المشترك، التي بدأت خير بداية، مأساة مؤلمة. وإنما يتمثل ذلك في قصة حسن العشماوي التي تلقي ضوءاً على تطور العلاقة بين الإخوان المسلمين وضباط الإنقلاب.

قلنا إن بعض الضباط كانوا يلقون بما يحصلون عليه من الذخائر في القنطرة أو الإسماعيلية أثناء نزولهم من مقر وحداتهم في فلسطين إلى القاهرة. غير أن بعضهم كانوا يفضلون تسليمها في القاهرة نفسها حيث يقوم رجال مختصون من الإخوان بإرسالها إلى مدير ية الشرقية وهناك يجري توز يعها على قواعد المقاومة المنتشرة على طول مجرى القناة.

وفي مرات متعددة أرسل البكباشي جمال عبد الناصر كمية من هذه الذخائر بواسطة البكباشي محمد أمين الخشاب إلى صديقه حسن العشماوي ليقوم الأخير بتوصيلها إلى جنود المقاومة السر ية. وحين اتسعت المقاومة ولم تعد هذه الوسائل مجدية لإمداد الحركة وضمان

بقائها، أخذ الإخوان يشترون الأسلحة من أماكن متفرقة وخاصة من الأراضي الفلسطينية. وقد قام الضباط الأحرار بدور في شراء هذه الأسلحة ونقلها، إلا أنه وضح بعد ذلك أن الضباط الأحرار كانوا يختزنون في بيوتهم ومكاتبهم الخاصة بعض قطع السلاح والذخائر. وعندما وقع حريق القاهرة المشهور وأعلنت الأحكام العرفية في البلاد وأخذت الشبهات تحوم حول بعض الضباط لم يجد الضباط الأحرار في تلك الأيام العصيبة إلا حسن العشماوي ليساعدهم في الخروج من هذه «الورطة» فطلبوا منه أن يجمع الأسلحة من بيوت الضباط ومكاتبهم ويتولى تخزينها بعيداً عن القاهرة، ولم يضيع حسن وقتاً بل أخذ يطوف بسيارته وسيارات إخوانه على بيوت الضباط ويجمع ما فيها من الأسلحة ثم قام بنقلها إلى مزرعة نائية يملكها والده في مديرية الشرقية، وزيادة في الحيطة والتكتم وضع الضباط الأحرار بأنفسهم تصميماً لمخزن سري في المزرعة المذكورة، ولم تسترح نفوسهم إلا حين اطمأنوا إلى أن الأسلحة دخلت المخبأ السري، وأصبحت بعيداً عن متناول السلطات الحاكمة! وسارت الحوادث بعد ذلك في مجراها المعروف، وتتابعت الأزمات الوزارية ثم قامت حركة ٢٣ يوليو العسكرية بزعامة محمد نجيب وارتفعت هذه الفورة الفجائية بأقوام وانخفضت بآخرين وصعد جمال عبد الناصر وزملاؤه فيمن صعدوا إلى القمة العالية. وحين استتب الأمر للوضع الجديد طلب حسن العشماوي من الضباط الأحرار أن يأخذوا أسلحتهم المخزونة بعد أن انتهى دوره وزالت الأسباب التي أدت إلى خزنها، ولكن الضباط استمهلوه لوقت آخر. ولو أن أحداً سأل حسن العشماوي في ذلك الوقت المبكر عن سبب المماطلة في استلام هذه الأسلحة، وخطر له أن يحذره من نوايا هؤلاء الضباط لسخر منه واتهمه بالتشاؤم وسوء الظن!

أما بقية هذه القصة الأسيفة فقد جاءت على صورة غير متوقعة، ذلك أن هذه الأسلحة التي اشترك في تخزينها رجال الانقلاب في مصر ووضعوا تصميم مخزنها بأيديهم، استغلت أسوأ استغلال في تشويه سمعة الإخوان المسلمين والتدليل على تآمرهم واستعداداتهم لقلب الحكومة، كما كانت سبباً في الحكم على حسن العشماوي بالسجن خمسة عشر عاماً بتهمة إحراز أسلحة ممنوعة والاشتراك في مؤامرة لقلب نظام الحكم بالقوة المسلحة!

النهاية ...

حين كانت المفاوضات تتعثر بين الحكومة العسكرية وممثلي بريطانيا كان رجال الحكومة يهددون بالإشتراك في العمليات الدائرة في القناة، وقد تناقلت الأنباء تصريحاً مشهوراً للبكباشي جمال عبد الناصر قال فيه : إنه وزملاءه سيتوجهون إلى منطقة القناة لمحاربة الإنجليز. وقد ظن البعض في ذلك الحين أن العمليات تدور بعلم الحكومة وإشرافها بحيث كانت تستطيع أن توقف هذه الأعمال متى أرادت ذلك، ولكنني إنصافاً للحقيقة والتاريخ أستطيع أن أؤكد بعد أن استنفدت معركة القناة أغراضها أن ذلك الفهم لم يكن صحيحاً البته، وفيما عدا شبكة المخابرات التي كانت تعمل مع الحكومة باتفاق سابق - كما ذكرنا - لم يكن لتلك الحكومة أي إشراف على الحركة المسلحة، كما لم يكن لها أي دور فيها، وإنما كانت تسير بإشراف رجال مغمورين، ربما لا يعرفهم الناس إلا في بلادهم، ودليل ذلك : أن الحكومة جاءت في وقت من الأوقات وجندت كل قواها البوليسية لتمنع الحركات المسلحة ضد الإنجليز ولجأت إلى الإعتقالات الواسعة النطاق، تجمع بها هؤلاء المحاربين ومع ذلك كانت الحوادث تقع كما كان مقدراً لها.

وقبل توقيع اتفاقية أكتوبر لعام ١٩٥٤ بشأن قاعدة القناة، شنّت الحكومة العسكرية موجة اعتقالات واسعة ضد الاخوان المسلمين بسبب موقفهم المعارض لتلك الاتفاقية، وكان الإخوان المسلمون قد أخذوا يهاجمون الإتفاقية المذكورة، ويبينون أخطارها على مصر، في خطب المساجد والصحف والنشرات، غير أن أعنف موجات الإعتقال كانت في منطقة القناة، حيث أخذت قوات البوليس تعتقل المئات من رجال الإخوان المسلمين، وتودعهم في السجون وكانت الأولوية تعطى لتلك الجماعات المسلحة التي كانت لا تزال حتى ذلك التاريخ تغير على معسكرات العدو!

خاتمة

لقد وضعت اتفاقية اكتوبر حداً لمعركة القناة، ولا شك أنه إذا كان في هذه الإتفاقية بعض المكاسب للقضية الوطنية، فإن ذلك يعود في المقام الأول لتلك الحركة المسلحة، التي شنها الشباب المصري المؤمن على قوات الإستعمار. ولكن هل انتهت معركة القناة حقاً ؟

إننا نسمع ونحن ندون ختام هذا الكتاب دوائر الإستعمار والصهيونية تتحدث عن قضية قناة السويس، وتلوح بالتهديد والوعيد وهي تبحث عن حل للمشكلة. ونعتقد أن هذا الكتاب يخرج في أوانه ليقول لأولئك الذين يتحدثون بلغة الحرب والقتال إن المصريين لم تعد ترهبهم هذه اللغة، وإن معركة القناة يمكن أن تعود مرة أخرى على نطاق أوسع، إذا حاولت دول الإستعمار أن تمس سيادة مصر وحريتها، وكم نود أن يذكر الإنجليز - بصفة خاصة - هذه الحقيقة، ويذكروا معها قولاً لرجل من عقلائهم، وهو المستر «انتوني ناتنج» وزير الدولة السابق للشؤون الخارجية والرجل الذي أشرف على إنجاز اتفاقية أكتوبر لعام ١٩٥٤ حين ووجه بعاصفة من النقد لتلك الإتفاقية في مجلس العموم البريطاني، قام بها ذلك النفر الإستعماري الجامد، الذين أسموا أنفسهم «جماعة السويس» فقال لهم ناتنج: «إن هذه الإتفاقية تتمشى مع مصلحتنا، ومع ذلك فقد كان علينا أن نختار بينها وبين أن يواجه جنودنا معركة كتلك التي شنها المصريون في عام ١٩٥١ وقد اخترنا هذه الإتفاقية.»

ولقد دفعني إلى تدوين هذه الصفحات شعوري بأن أمتنا، وهي حديثة العهد بالحركات التحررية المسلحة، قليلة التجربة في هذا النوع من الكفاح، تحتاج أشد الحاجة إلى أن تستحضر تجاربها القليلة وتستفيد مما تجده فيها من مواقف الخطأ والصواب وهي تسير في طريقها نحو التحرر والمجد. ولقد كانت معركة القناة - على قصر مدتها - غنية بالتجارب

طافحة بالدروس والعبر، فوق أنها كانت ذات أثر رئيسي في تحرير مصر من ربقة الإستعمار، ولقد وجدت أن من التفريط في حق هذه الأمة المكافحة أن تنطوي أمجاد أبنائها الأبطال، وتنسى صفحات كفاحهم مع الزمن، وبهذه النية المخلصة اقدمت على نشر هذه الذكريات.

وإذا كانت ظروف سياسية شاذة قد جعلت المكافأة التي نالها أبطال القناة هي أن يحشدوا في السجون والمنافي، فإن من أقل حقوقهم على أمتهم أن تذكرلهم جهادهم وأن تستنير به في كفاحها المقبل الطويل.

ولئن فات المجاهدين الأسارى أن يقفوا في صف الجهاد كما كانوا يشتهون، فلا أشك أنه مما يسعدهم أن يضعوا تجاربهم بين يدي المجاهدين من قومهم، فلعل في ذلك لأنفسهم الحبيسة بعض العزاء (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً). صدق الله العظيم

تمّ الكتاب بحمد الله

محتويات الكتاب

رقم الإيداع ٥١٧٩ / ٨٧

الترقيم الدولى ٢ ـ ٢١ ـ ١٤٢١ ـ ٩٧٧

مطابع الوفاء ـ المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN

هذا الكتاب

- عرض لحقبة مهمة فى تاريخ مصر كانت امتدادا لمحاولات وثورات سابقة لطرد جيش الاحتلال ، وقد استطاع الكاتب أن يقدم للقارىء ملحمة من ملاحم البطولة الشعبية وصفحة مشرقة لكفاح وجهاد الإخوان المسلمين .

وتقرأ فى هذا الكتاب .

- إلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقية عام ١٨٩٩ بشأن السودان والآثار التى ترتبت على ذلك .
- الإمام حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين يعد للمعركة ويديرها فى صمت والأحزاب الأخرى اكتفت بأن تدير المعركة على صفحات الجرائد .
- دور وبطولات هؤلاء الشهداء :

عبد القادر عوده ـ محمد فرغلى ـ يوسف طلعت ـ عمر شاهين ـ أحمد المنيسى .

- كيف بدأت المعركة بالحصار وحرب الأعصاب وتبعها التخطيط والتنفيذ لنسف قطارات وسيارات العدو ، ومخازن ذخيرته ، ومطاراته بأيدى رجال تحمل قلوباً أقوى من الدروع ..
- كيف استطاعت جماعة الإخوان المسلمين أن تستفيد من الجيش لصالح المعركة ودور عبد المنعم عبد الرءوف فى ذلك .
- قصة الأسلحة التى اتهم الإخوان المسلمون بحيازتها وكيف أن رجال الثورة أنفسهم هم الذين صمموا مخازنها .

وفى الكتاب حقائق ووقائع وبطولات ليست من نسج الخيال ولكنها واقع عاشه المؤلف فجزاه الله خيراً على ما قدم لنا ...

ونحن إذ نقدم هذا الكتاب للقارىء إنما نهدف إلى تجلية الحقيقة وعرض هذه الحقبة من تاريخ وطننا العزيز كما سطرها قلم أحد الذين عايشوها .

وعلى الله قصد السبيل

الناشر

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ ش.م.م ـ المنصورة
التوزيع : شارع النحر أمام كلية الطب . ت : ٣٤٧٤٢٣
المطابع : شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب – عمارة الوفاء
ت : ٣٤٢٧٢١ – ص.ب : ٢٣٠ – تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN